منـهاج النـبـوّة

في تحقيق الغاية من الرسـالة الخاتمة

" المنـهـج "

(الجزء الثالث)

الباحثان :

علي أحمد السعود

جواد عيسـى العدرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" منهاج النبوّة " [1] في تحقيق الغاية من الرســـالة الخاتمة ؛ هو الطريقة التي التزمها رســـول الله الخاتم في تلقّى الرســـالة والســـير بها ، بلاغاً وبياناً وتطبيقاً ، حتى أصـبحت حقيقة في الواقع الإنسـاني ، متمثّلة في الأمّة المسـلمة الخاتمة ، كما كانت يوم انتقل - صـــلّى الله عليه وآله وســـلّم - إلى الرفيق الأعلى وقد أكملت دينها ، أي أكملت عبوديتها لله ، فكانت خير أمّة أُخرجت للناس **..**

وهو المنهاج نفســـه الذي ينبغي أن يلتزمه المســـلمون في تلقي الرســـالة والقيام بها ، إذا أرادوا أن يكونوا دائماً خير أمّة أخرجت للناس، في كل زمان ومكان، بإذن الله تعالى**..**

وبيان " منهاج النبوّة " في تحقيق غاية الرســالة الخاتمة ، ســيكون من خلال عملٍ مكوّنٍ من مجموعة أبحاث رئيســـة ، كل واحد منها يشـــكّل جزءاً من البحث الأصـــل ، وعددها ستة ، وهي :

الجزء الأول : فكرة الرسالة .

الجزء الثاني : الغاية من الرسالة .

الجزء الثالث : المنهج . *(وهو البحث الذي بين يدي القارئ الكريم)*

الجزء الرابع : التبيان لسور القرآن .

الجزء الخامس : التنزيل على الواقع .

الجزء السادس : مفاهيم ومصطلحات رسالية .

---

1 - أصل هذا الإصطلاح ورد في التعبير القرآني في قوله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً **وَمِنْهَاجًا** وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (48)) **المائدة** . و ورد عن رسول الله صلّى الله عليه آله وسلّم : (.. ثم تكون خلافة على **منهاج النبوة**..) [صحيح الجامع للألباني] . فالأمّة المسلمة الخاتمة ، لها " شرعتها " و " منهاجها " الخاصان بها .
((وللمنهاج ، ثلاثة ألفاظ تستعمل فيه : " النهج " و " المنهج " و " المنهاج "، وكلها يقصد بها الطريق ، لكن " المنهج " أغلب استعماله في الطريق الفكري . وأغلب استعمال " النهج " في الطريق مطلقا . وأغلب استعمال " المنهاج " في الطريق العملي الذي له أصل فكري . ولكن الذي هو في البؤرة في لفظة " المنهج " هو الطريق الفكري ، أي الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة . وأما " المنهاج " فهو الطريقة العملية التي يُسار عليها للوصول إلى مقصد بعينه)) .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين . والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغرّ الميامين ، أما بعد :

بحث " **المنهج** " هو: بحث في الطريق الفكري ، أي الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة . فهو بيانٌ للأصول والضوابط الشرعية التي ينبغي أن تُراعى عند فهم " المنهاج " ، أي عند فهم الطريقة العملية التي تعبّدنا الله تبارك وتعالى بها في تحقيق " الغاية من الرسالة الخاتمة " في الواقع الإنساني ، والمحافظة عليها كذلك ، حتى قيام الساعة .

و البحث في " المنهج " جاء على ثلاثة أقسام رئيسة :

القسم الأول : وفيه معرفة واقع تلقي رسول الله الرسالة وسيره بها ، بقصد تحقيق الغاية منها . وذلك من خلال تسليط الضوء على النقاط التالية :

- ما حصل مع الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، في **تلقيه** الرسالة مفرقة على مكث ، على هيئة " الترتيل " ، من بداية نزول : (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ..) إلى نزول قوله تعالى :(..ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ..) في حجة الوداع ، وتَحقُق غاية الرسالة متمثلة بالأمّة المسلمة .
- واقع " الترتيل " ، وأنه كان الكيفية التي تلقى بها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم القرآن مفرقاً على قلبه ، ومن ثم تلقاه المؤمنون منه بنفس الكيفية [1].
- القصد من " الترتيل " ، وأنه عن طريقه كان تحقيق غاية الرسالة الخاتمة .
- وأن ترتيل نزول الآيات ، وتتابع أحداث السير ، كانا حسب ضوابط معينة ، وهي على نوعين: ضابط سنني قدريّ ، وضابط شرعيّ تكليفيّ .
- وأن ما حصل مع الرسول الخاتم ، بعمومه ، حصل مع رسل الله السابقين ، بحكم ديمومة جريان " السنن الإلهية " [2] الحاكمة لعملية السير بالرسالات . وقد بيّنا الترتيب السننيّ العام لخط سير الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، كما جاء في القرآن الكريم .

القسم الثاني : وفيه بيان كيف يكون التأسي في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بما سبق بيانه من واقع تلقيه الرسالة مرتلةً وسيره بها على خطوات متتابعة ، بقصد تحقيق الغاية منها ، حيث :

---

1 - **ترتيل** نزول القرآن المجيد ، هو: تنسيق وتنظيم التنزيل المفرّق لآياته ، حسب ضوابط معينة ، من أجل تحقيق الغاية المرادة منه .

2 - **السنّة** في اللغة لها أصل واحد وهو : "جريان الشيء واطراده " (معجم المقاييس) . وفي الإصطلاح هي : طريقة الله - جلّ وعلا - وعادته الدائمة المطردة في إنفاذ إرادته ومشيئته في خلقه ، متمثلة في أمره أي حكمه ، شرعاً وقدراً .

- إن السير بالرسالة تمثّل بقيام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأعمال **ومعالجات** ، وتنفيذه لها في واقعه حتى تحققت الغاية من الرسالة . وإن تلك المعالجات والأعمال – أقوالاً وأفعالاً – حدثت معه والمؤمنين في **ترتيب** وتتابع معين ، مترابط ومتزامن مع " ترتيل " نزول القرآن . ومن ثَمّ ، فإن الأصل في البحث في فهم كيفية التأسي في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بسيره في حمل الرسالة ، ينبغي أن يكون في مجالين اثنين :

الأول : في الأعمال **والمعالجات** نفسها ، وكيفية تنفيذها..

والثاني : في **ترتيب** وتتابع تلك الأعمال والمعالجات ..

- ومن جهة أخرى ، ليس كل ما **ثبت** عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم **وجَب القيام** به ، سواء في المعالجات أم في ترتيب وتتابع حدوثها ، بل **الواجب** هو **الاقتداء** به صلّى الله عليه وآله وسلّم في ما ثبت عنه القيام به ، **وبحسب حكمه** إن كان على الفرْض أو الندب أو الإباحة . فما قام به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، منه ما هو شرعيّ تكليفيّ ، أي من العبادة . ومنه ما هو متعلق بزمانه ومكانه ؛ أي من الوسائل والأساليب ، بمعنى انه متعلق بتطبيق الأمر الشرعي – سواء المعالجات الشرعية نفسها أم ترتيب القيام بها – في الواقع الإنساني المعين .. فكان لا بد من بيان الضوابط الشرعية في ذلك كله ، لمعرفة ما يُقتدى بالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فيه ، وبيان حكمه .

- ومن الضوابط المعتبرة والمهمة ، ضابط " التسوير" ، وهو : جعل آيات محددة ، في **سورة** واحدة ، وبـ " ترتيل " مقصود فيها . وأما كون " التسوير " ضابطاً في الفهم ، فبحكم أنه وحده " الترتيل الشرعيّ" لآيات القرآن الحكيم الذي كُلّف به الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والذي **تعبّدنا** الله جلّ وعلا به، **تلاوة ودلالة** ، ولم يتعبّدنا بترتيل آخر لا قبله ولا بعده .. وهو كذلك " الترتيل الأصل " الذي جعل الله تعالى القرآن الكريم بحسبه **جملة واحدة** ، والذي لا يُعرف القرآن إلا به في وجوداته كلها ؛ في اللوح المحفوظ ، وفي السماء الدنيا ، وفي أيدي الناس ، بوصفه رسالة الله الخاتمة .. وهو أيضاً الترتيل الذي به كان التحدي ، وفيه البرهان على صحة الرسالة وصِدْق الرسول .

- إن الأصل في وجه دلالة " **التسوير** " ، أنه في إطار **تحقيق الغاية من القرآن** ؛ إكمال الدّين لله ، فما أنزل الله عزّ وجلّ القرآن إلا لتحقيق الغاية منه ، وما جعل الله تعالى القرآن الحكيم هكذا في كامل خصائصه وتكوينه وتركيبه – نصّاً وتسويراً – إلا لتحقيق الغاية منه . فكل ما في القرآن الكريم سواء من حيث المحتوى أم من حيث الأسلوب ؛ من حيث الأفكار والأحكام والحقائق ، أم من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير .. فكل ذلك ، إنما كان لتحقيق الغاية من القرآن الكريم ؛ هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، بواسطة **أمة** تطبّقه في واقعها وتحمله للناس .

هذا ، ولأهمية وجِدّة البحث في " التسوير " وفي فهم وجه دلالته ، رأَيْنا أن نُفرد له قسماً خاصاً ، فكان القسم الثالث .

- **القسم الثالث :** وفيه بيان كيفية الاستدلال بـ " التسوير" على " المنهاج " ، أي بيان دلالة السورة الواحدة على كيفية تحقيق غاية الرسالة .

هذا ، و فهم دلالة " السورة " على " المنهاج " يمرّ في ثلاث خطوات :

الأولى : فهم دلالة الكلمات والجُمل والتراكيب .. الواردة في السورة الواحدة .

الثانية : النظر إلى **الســورة الواحدة** على أنّ لها **ســياقاً واحداً** [1] ، تُفهم في إطاره **دلالة** الألفاظ والجمل والآيات التي وردت فيها . فالسـورة مترابطة ومتماسـكة بحيث تُعتبر " **وحدة منهاجية** " واحدة ، وتشـكّل **جزءاً** من " المنهاج " **الكامل** لتلقي الرسـالة والسـير بها لتحقيق الغاية منها ، وهذا هو " **الفهم المنهاجي** " للسـورة . فالغرض الأصـل الذي يدل عليه " التسـوير " هو أن كل سـورة فيها المعالجة أو المعالجات **لمناطٍ** معينٍ [2] ؛ هو " مناط الســورة " ، وهو حالة أو موقف مما يحدث مع المؤمنين أثناء السير بالرسالة في المجتمع لتحقيق الغاية منها ، في مراحل السير وأطواره المختلفة .

وحدوث المناط – الحالة أو الموقف – وتتابع حدوثه ، محكوم بســنن الله تعالى في الســير بالرســالات لتحقيق الغاية منها في الواقع الإنســاني ، وبحســب اختيارات الناس المدعوّين لأيٍ من تلك الســنن ، ســنن الهدى أو ســنن الضــلال .. اختاروا الاســتجابة لدعوة الله تعالى أم رفضــها (الضــابط السننيّ) ، وقد بلغتهم الرسالة بينة واضحة ، أي بلاغاً مبيناً (الضابط الشرعي) .

الثالثة : جمْع الأجزاء (السـور) كلها بعضـها إلى بعض **وترتيبها** بحسـب التتابع السـننيّ لحدوث مناطها ، من أجل أن يكتمل الفهم للمنهاج ويُعرف كامل خط السير بالرسالة . ويتم ذلك عملياً كالتالي :

بدايةً ، معرفة الترتيب والتتابع السننيّ لمراحل وأطوار سير الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرسالة ، كما جاء في القرآن وفي الثابت من السـنة والسـيرة ، والذي يتطابق – في عمومه – مع خط سـير الرسـل الكرام [3].

وثانياً ، معرفة كيف ينبغي أن تُوزّع سـور القرآن الكريم على أطوار السـير المختلفة ، على أسـاس " الفهم المنهاجي " و " مناط السـورة " ، بحيث تُــقرن كل مجموعة من السور بالطور الذي يخصـها وبالمرحلة المتعلقة بها من السير ، من البداية حتى تحقيق الغاية من الرسالة .. فتكون كل مجموعة من السور فيها البيان المفصّل **لمعالجات** الطور الذي اقترنت به ويخصّها .

1 - الأصل في معنى السياق هو: الغرض الذي لأجله سيق الكلام . وفي الإصطلاح هو : الغرض الذي ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية (المقامية) . أنظر (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة .

2 - (المناط) هو : ما أناط ، أي علّق ، الشارع الحكم عليه . فهو الواقع الذي جيء بالحكم له ، فالحكم متعلق به . أنظر (الواضح في أصول الفقه) لـ محمد حسين عبدالله .

3 - وقد بيّنه الله تعالى في عدة سور، منها (سورة إبراهيم) في الآيات (9 - 16) ، حيث كان بياناً شاملاً مُحكَماً .

وبذلك البيان المفصّـل لمعالجات جميع أطوار السـير ، وبحسـب تتابع حدوثها .. يتحصّـل عندنا الفهم الكامل – وبأكثر تفصـيل ممكن – للمنهاج ؛ أي للكيفية الشـرعية التي التزمها رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ، في تلقيه الرسـالة والسـير بها من البداية وحتى تحقيق الغاية ، والتي تعبَّد الله تعالى بها المسلمين للسير بحسبها في كل زمان ومكان .

والحمد لله رب العالمين ..

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت السميع العليم ..

اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا، وزدنا علماً ..

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ..

والآن ، لندخل في تفصيل ما أُجمل في التقدمة :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القسم الأول

بيان كيفية تلقي رسول الله الرسالة وسيره بها ، بقصد تحقيق الغاية منها .

أ – إن إكمال الدّين لله ؛ يعني أن يكون **الدّين خالصاً** لله وحده ، فلا يُعبد في الأرض إلا الله تعالى وحده بلا شريك ، ولبيان طريقة عبادته وشريعته **أنزل** الله جل وعلا **الرسالات** كلها حتى **الرسالة الخاتمة** :

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ...﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ **أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ** ..﴿٣﴾ ﴾ الزمر

ولجعل العبودية لله حقيقة واقعة في حياة الناس ، **بعث** الله تعالى **الرسل** ، حتى الرسول الخاتم [1] :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ..﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ **لِيُظۡهِرَهُۥ** عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة

والوحيّ ، قرآناً وسنّة ، كان هو **المحرّك والموجّه** دائماً لسير وحركة **الرّسول** صلىّ الله عليه وآله وسلّم لتحقيق تلك الغاية ، وذلك :

– بوصفه **رسولاً مبلغاً** عن الله تعالى ، حيث كان **الرّسول** صلّى الله عليه وآله وسلّم يتلّقى الوحيّ ، ويُبلّغ ما يأتيه عن الله تعالى ، ويُعالج الأمور بحسب الوحيّ ولا يخرج عن الوحيّ البتة :

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾ ﴾ الأحقاف

– وبوصفه **عبداً مسلماً** لله ، فالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **أول المسلمين** ، وإمام المتقين **المخلصين** دينهم لله جلّ ثناؤه .. وهو القدوة والأسوة :

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي **لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام

1 - للتفصيل انظر بحث " الغاية من الرسالة " .

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ **مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ** ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢ ﴾ الزمر

# # #

ب – و**القرآن** هو **الأصل** في التحريك والتوجيه من أجل تحقيق الغاية ، و**السّنة** جاءت **المنفذة** و**المبينة** ، قولاً وفعلاً وإقراراً :

﴿ .. وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ ﴾ النحل

فالقرآن هو الأصل **والبيان** تابع له . فكان القرآن يُنزّل على قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فيقوم **بتبليغ** ما نُزّل من آيات الرسالة **تلاوة** ، ويقوم **بِبَيانها** بالاتباع العمليّ والتنفيذ الفعليّ – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – **ويستقيم** عليها ويستمرّ بالاستقامة عليها **حتّى** يُنزِّل الله تعالى الآيات التي تليها، فيقوم الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مرة أخرى **بالبلاغ المبين** ؛ **تلاوةً واتباعاً واستقامة** .. وهكذا :

﴿ **وَٱتَّبِعۡ** مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ **حَتَّىٰ** يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾ يونس

حتى تحققت الغاية من الرسالة ؛ إكمال الدّين (العبودية) لله عزّ وجلّ ..

وعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ، أي عن صفاته وطبائعه وتصرفاته .. أي حاله وواقعه .. قالت : { كان **خُلقه القرآن** }[1].. فالقرآن هو الأصل ، والتخلّق به وجعله حقيقة في الواقع الإنساني هو الغاية ، حيث :

- كانت **آيات القرآن** هي **الأصل** في **سير** الرسول بالرسالة **وحركته** بها ، **والسّنة** جاءت المنفذة والمبيّنة .. فمثلاً : أول ما نُزّل من القرآن في **حمل** رسالة الله تعالى إلى الناس ، قوله سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ... ﴾ المدثر

.. ثم نزل لاحقاً فيما بعد قوله تعالى :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ **وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا** .. ٩٢ ﴾ الأنعام ..

وبعد ذلك :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ﴾ الحج

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة

.. ومن بعده :

---

1 - أخرجه النسائي .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ التوبة ..

ومن ثم :

﴿ ...وَقَـٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ التوبة

.. إلخ

فقام رسول الله **ببيان** كل ما أُمر به تنفيذاً في الواقع ، وبالكيفية التي أُمر بها ، وبالوقت الذي أُمر به ..

- وكذلك ، كانت **آيات القرآن** هي **الأصل** في " **خطاب** " الله تعالى للمجتمع وملائه ، في بيان الحق وكشف زيف الباطل ، **ملقناً رسوله** الحجة البالغة ، **مثبتاً** له على الحق ، كما في قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ **قُلۡ** هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ **قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ** فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ **قُلۡ** هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ الأنعام

﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ **فَقُلۡ** أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ **وَقُل** لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ آل عمران

.. الخ

وهذا كثير في القرآن الكريم كثرة مستفيضة . فالقرآن هو رسالة الله تعالى للبشرية ، وهو خطاب الله سبحانه وتعالى للناس ، أنزله على رسوله لبيان مُراده منهم ليحققوه في واقعهم . وبه أنذرهم وحمّلهم مسؤولية موقفهم منه . وقد يسره الله للذّكر ، أي للفهم وللتذكّر والاعتبار لمن أراد الهداية :

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ ﴾ القمر

﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزمر

لذلك أنكر الله تعالى عليهم عدم هدايتهم واتباعهم الحق البيّن في آيات قرآنه :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ الانشقاق

وبعد رفض الكفار الحق وقد علموا أنه الحق ، أخذوا يحاربون القرآن وينهون الناس عن سماعه :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنعام

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فصلت

وذلك كرد فعل منهم على استمرار الرسول الكريم والمسلمين بتلاوة القرآن الكريم تلاوة دعوة وبلاغ مبين ، استقامة على أمر الله تعالى :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ ... ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنبياء

فالقرآن هو رسالة الله إلى الناس ، وهو الأصل في مخاطبتهم .. فكان هو محور الصراع الدائر بين الحق والباطل ..

هذا ، وانسجاماً مع حقيقة أن **القرآن** هو **الأصل** في **الأعمال** و **الخطاب** وأن **السّنة** جاءت المنفذة **والمبيّنة** .. نستطيع أن نفهم ما حصل من أفعاله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والتي اصطلح العلماء على تسميتها " **خلاف الأولى** " .. فالرسول لا يفعل حراماً ، فبالرغم من أن أفعاله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأقواله ومواقفه تدور دائماً مع **ما نُزّل من القرآن** وفي إطاره ، تطبيقاً على الواقع المعيّن أثناء السير ، خطوة بعد خطوة ، حتى إكمال الدّين لله تعالى ، إلا أنه حصلت منه صلّى الله عليه وآله وسلّم أفعال " **خلافاً للأولى** " وحينئذٍ ، نُزّل قرآنٌ ليصحح الرّسول ويوجهه التوجيه المناسب في تلك الحادثة المعينة .. والحوادث تلك كانت قليلة جداً ، على **طول** فترة تبليغه الرسالة وسيره صلّى الله عليه وآله وسلّم بها لتحقيق الغاية منها ، وهي معروفة :

- الموقف من الأعمى (سورة عبس)
- ما حصل في أنفال وأسرى غزوة بدر (سورة الأنفال)
- الموقف من زيد بن حارثة وزوجه زينب (سورة الأحزاب)
- الامتناع عن تناول طعام حلال (سورة التحريم)
- الإذن للمعتذرين في غزوة العسرة (سورة التوبة)

وهكذا كانت **آيات القرآن** هي **الأصل** في **الخطاب** والتوجيه و**الحركة** ، **والسّنة** جاءت المنفذة والمبيّنة .

# # #

ج – تنزيل القرآن الحكيم ، من الله جل جلاله على رسوله الكريم :

أولاً : كان التنزيل على كيفيتين اثنتين :

حيث **أُنزل** القرآن الكريم جملة واحدة ابتداءً ، وذلك في إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .. والثانية ، في **تنزيله مفرقاً** شيئًا بعد شيء ، وعلى **مُـكث** مقصود ، وذلك في تنزيله من السماء الدنيا على قلب رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلّم .. كما ثبت عند ابن كثير ، حيث قال : ((**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذلك في عشرين سنة ، ثم قَرَأَ** : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 106] هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ)) [1] .

((وأخرج الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضا عن ابن عباس قال : (نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله منه** حتى **جمعه**))) [2] .

هذا ، وقد فرّق الأداء القرآني بين تلك الكيفيتين من خلال التعبير عن كل كيفية منهما بكلمة مختلفة عن الأخرى ، وهما : كلمة ((**أَنـزل**)) وتصريفاتها ، وكلمة ((**نَـزّل**)) وتصريفاتها ، فـ **الإنزال** غير **التنزيل** في التعبير القرآني في وصف نزول القرآن الكريم (وكذلك في وصف نزول الملائكة) [3] .. حيث جاء :

– **التنزيل** ، لما نزل مفرّقاً على دُفُعات ، للدلالة على كيفية تنزيل القرآن على قلب الرسول .

– **الإنزال** ، أعم من ذلك ، يدل على عموم التنزيل ، ومنه إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا.

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ **أَنزَلْنَٰهُ** فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ القدر

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ **أَنزَلْنَٰهُ** فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ الدخان

---

1 - فضائل القرآن . وعلّق الناشر {مكتبة ابن تيمية} بقوله : [وأخرجه النسائي في "الفضائل" "14، 15"، وابن أبي شيبة "10 - 533"، والطبري في "تفسيره" "15/ 119، 30/ 166"، والحاكم "2/ 222" من طرقٍ عن داود بن أبي هند بسنده سواء . وقال الحاكم : "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبيّ ؛ وهو كما قالا].

2 - أنظر (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين . وقال الزرقاني في مناهل العرفان : وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لما هو مقرر من أن قول الصحابي في ما لا مجال للرأي فيه ، ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، حكمه حكم المرفوع . ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، من أنباء الغيب التي لا تُعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها .

3- للتفصيل أنظر المفردات في غريب القرآن لـ الراغب الأصفهاني .

وقوله تعالى :﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ **أُنزِلَ** فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ..﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة

وردت تصريفات الفعل { **أنزل** } في الآيات الكريمة السابقة ، للدلالة على أنه أُنزل جملة واحدة في ليلة القدر من رمضان ، بقرينة الروايات السابقة عن ابن عباس ، وبقرينة السياق كذلك ، حيث ((دلّ ظاهر هذه الآيات الثلاث أن القرآن الكريم أُنزل جملة في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من شهر رمضان . وهذا وصف مغاير لصفة نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث إنه من المعلوم المقطوع به أن القرآن نُزّل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً مفرقاً في نحو ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث . فتعيّن أن يكون هذا النزول الذي دل عليه ظاهر الآيات ، نزولاً آخر غير النزول المباشر على النبي صلى الله عليه وسلم)) [1] . لهذا نجد أنه عندما يكون سياق الكلام في القرآن الكريم حول تنزيله على قلب الرسول الكريم **مفرّقاً** ، يرد الفعل { **نزّل** } أو أحد تصريفاته للدلالة عليه ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَقُرۡءَانٗا **فَرَقۡنَٰهُ** لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ **وَنَزَّلۡنَٰهُ** تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾ الإسراء

أي ؛ وآتيناك – أيها الرّسول– قرآنًا بيَّناه وأحكمناه وفَصَّلناه **فارقًا** (فرقاناً) بين الهدى والضلال والحق والباطل ؛ **لتقرأه** على الناس على مهل وتؤدة وتثبّت . (وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا) أي وكان الأمر أن نزّلناه على قلبك تنزيلاً ، أي شيئًا بعد شيء، يعني مفرَّقًا لتتمكّن من قراءته على الناس على مكث [2].

وأيضاً في قوله تعالى :

﴿ قُلۡ **نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ** مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ **لِيُثَبِّتَ** ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ **وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ** لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ النحل

حيث جاءت الآية في سياق كشف تلبيس الكافرين والرد على شبهتهم حول تنزيل القرآن مفرقاً على قلب رسول الله ، حيث لقّن الله تعالى رسوله أن يُبّين لهم قائلاً : أن القرآن من الله جلّ وعلا ، وقد **نزّله مفرقاً على قلبي** الروح المقدّس الطاهر جبريل ، ليحقق غاية عظيمة ، ألا وهي :

﴿ .. لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾النحل .

فقال : (نَزَّلَهُۥ) ولم يقل **أنزله** [3] ، لأن سياق الكلام حول تنزيل القرآن على قلب الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، مفرّقاً على دفعات كثيرة ، والذي كان موضع شبهة الكافرين .

***

1- (نزول القرآن والعناية به في عهد الرسول) لـ محمد بن عبد الرحمن الشايع .
2 - أنظر تفسير ابن كثير .
3 - و صيغة الفعل (نـزّل) تدل على التكثير ، أي على دفعات كثيرة . كما سنبينه بعد قليل .

ثانياً – والتنزيل المفرق للقرآن ، كان له تنسيق وتنظيم مقصود ؛ هو " **الترتيل** " :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ ﴾
الفرقان

أي ؛ وآتيناك أيها الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم القرآن **كذلك** ، أي **مفرقاً** ، وليس جملة واحدة ، لنجعل قلبك **ثابتاً** على الحق **دائماً** .. (وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا) أي ، وكان الأمر في تنزيل القرآن مفرقاً ، أن رتّلناه ترتيلاً .. فجاء " الترتيل " **هيئةً** للتنزيل المفرق ، فهو ليس أي تفريق بل هو **المُرتّل** ..

((وتنكير (تَرۡتِيلٗا) للتفخيم ، أي كذلك نزّلناه ورتّلناه ترتيلاً بديعاً لا يُقادر قدره)) [1] .

و الترتيل ، كما يُفهم من معاجم اللغة ؛ الأصل فيه : **التبيـين** ، بمعنى التميـيز وعدم الإختلاط ، ويقتضـي ذلك التنسيق والتنظيم وحسن التنضيد والتأليف .. ويكون ذلك في المتفرق من الأشياء ، أو في المكون من أجزاء متفرقة ..

فالترتيل : تنسيق وتنظيم وتــنضيد المفــرّق بشكل حسن ليحقق الغاية المرادة . ومنه الفم المرتل ، ومنه ترتيل القراءة ، وترتيل الكلام ..

كما جاء في لسان العرب لابن منظور :

(رتل) الرتَلُ : حُسْن تَناسُق الشـيء . وثَغْرٌ رَتَلٌ ورَتِلٌ حَسَن التنضيد مُستوي النباتِ وقيل المُفَلَّج وقيل بين أَسنانه فُروج لا يركب بعضـها بعضـاً .. وكلامٌ رَتَل ورَتِلٌ : أَي مُرَتَّلٌ حسَـنٌ على تؤدة . ورَتَّلَ الكلامَ أَحسن تأْليفه **وأَبانَه** وتمَهَّلَ فيه .. وترتّل في الكلام تَرَسَّل ..

وقال مجاهد: الترتيل الترسـل ، قال ورَتَّلته ترتيلاً : بعضــه على أَثر بعض ، قال أَبو منصـور: ذهب به إلى قولهم : ثغر رَتَلٌ إذا كان حسن التنضيد ..

وقال أَبو إسحق : (ورتِّل القرآن ترتيلاً) بيّنه تبييناً ، والتبيين لا يتم بأَن يَعْجَل في القراءة ، وإِنما يتم التبيين بأَن يُبَيِّن جميع الحروف ويُوفِّيها حقها من الإشباع .. تشبيهاً بالثغر المُرَتَّلِ وهو المُشَبَّه بنَوْر الأُقْحُوان ، يُقال رَتَّلَ القراءة وتَرَتَّل فيها .. وقال الضحاك انْبِذْه حرفاً حرفاً . وفي صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كان يُرَتِّل آية آية ..

وقوله عز وجل : (وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا) أَي أَنزلناه على الترتيل وهو ضد العجلة ، أَي : التمكُّث فيه . هذا قول الزجّاج .

1 - أنظر تفسير أبو السعود .

و جاء في المعجم الوسيط :

(رتل) رتلاً استوى وانتظم و حسُن تأليفه ، و يقال رتل الثغر أو الأسنان ، منضد مستوي الأسنان ..
(رتّل) الشيء نسّقه و نظّمه . و_ الكلامَ أحسن تأليفه و جود تلاوته ..

وجاء في كتاب " إعراب القرآن وبيانه " لـ محي الدّين الدرويش :

((ومعنى ترتيله : أن قدّره آية بعد آية بترسّل ، وتثبّت . وقيل هو أنزله – **مع كونه متفرقاً** – على تمكث وتمهل في مدة متباعدة ، وهي عشرون سنة)) . انتهى

وقد ساق صاحب كتاب " إعراب القرآن وبيانه " ، نكتة بلاغية حول لفظة (رتّل) نذكرها لفائدتها :

((**قوة اللفظ لقوة المعنى** : وذلك في قوله تعالى : (ورتّلناه ترتيلا) و لفظة (رتّل) على وزن قتّل الرباعية ، ومع هذا ليست دالة على **كثرة** القراءة ، وإنما المراد بها : أن تكون القراءة على **هيئة** التأني والتدبّر ، وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تُنقل عنه إلى رباعي ، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه **الهيئة الحسنة المخصوصة** من القراءة ، فاللفظة إن كانت منقولة أدت إلى الكثرة . خذ لك مثالا : (كلّم) من قوله تعالى : (وكلّم الله موسى تكليماً) فإن كلّم على وزن قتّل أيضاً ، ولم يُرَد بها **التكثير** بل أُريد بها : خاطبه ، سواء أكان خطابه إياه طويلاً ، أم قصيراً ، قليلاً أم كثيراً ، وهذه اللفظة رباعية ، وليس لها ثلاثي نُقلت عنه إلى الرباعي . لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثي ورباعي ، فكان الرباعي **أكثر وأقوى** فيما دل عليه من **المعنى** ، وذاك أن تكون كلّم من الجرح ، أي : جرّح ولها ثلاثي ، وهو كَلَم مخففاً أي : جرَح ، فإذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة ، وإذا وردت مثقّلة دلت على التكثير [1] . فتدبّر هذا فإنه حسن جداً ، وقَلّ من يتفطن له)) . انتهى

وعليه ، فـــ " الترتيل " في وصف القراءة ، هو **هيئة** للقراءة ، بأن تكون على مهل بأَن يُبَيّن جميع الحروف والكلمات وتُوفِّى حقها من الإشباع ..

و" الترتيل " في وصف تنزيل آيات القرآن ، هو **هيـــئة** للتنزيل المفرّق ، فهو ليس أي تفريق بل هو **المُرتّـــــل** .. فـــ **ترتيل** نزول القرآن ، حقيقته : تنسيق وتنظيم تنزيله المفرّق بشكل حسن ، ليحقق الغاية المرادة ..

وعليه ، فإن " **الترتيل** " هو **الكيفية** التي أرادها الله جلّ وعلا لتــنزيل رسالته مفرقة على قلب رسوله الكريم بقصد تحقيق الغاية منها .

---

[1] - يمكن تطبيق هذه القاعدة على الفعل (نَزل) إذا نُقل إلى (نَـزّل) ليدل على تعدد النزول وكثرته . كما أشرنا سابقاً .

- **هذا** ، و " **الترتيل** " في تنزيل **آيات القرآن يتبعه** – بالضرورة الشرعيّة – " **ترتيل السُّنة** " لكونها **بياناً للقرآن** ، وهذه **بَدَهية شرعيّة** .. فرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بوصفه **رسولاً** من الله جلّ وعلا، مأمور **بتبليغ وبيان** الذي **نُزّل** على قلبه من الرسالة ، أولاً بأول :

﴿ .. **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ** ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ **مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل

فالرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يُبيّن بالسّنة قولاً وفعلاً وإقراراً ، ما **نُزّل** مفرّقاً على قلبه من القرآن **أولاً بأول** ، فالبيان لا يكون إلا لما تلقى من الآيات (مَا نُزِّلَ) على قلبه وليس لما لم يُنزَّل .. لذلك لم يقل : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ { ما أنزلنا}) أي جملة واحدة إلى السماء الدنيا.. فهو لا يعلمه فكيف يؤمر ببيانه ؟! فرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يعلم من آيات القرآن إلا ما **نُزّل** على قلبه ، فيؤمر بتلاوتها على الناس وبيانها لهم ، **ليعملوا** بما جاء فيها بعد أن يفقهوها ويعقلوها .

ومن ثم ؛ فإنّ أفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه كانت **تدور** دائماً مع ما **نُزّل من القرآن** وفي إطاره ، تطبيقاً على واقعه الإنساني ، **أولاً بأول** .. حتى أكمل الله تعالى دين الأمّة على يديه صلّى الله عليه وآله وسلّم .. فكانت أفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه – أي السنّة ومنها السيرة – لا تتجاوز توجيهات آيات القرآن المباشرة أو إطارها العام ، وحسب **ترتيل تلقيها** أثناء السير لتحقيق الغاية من القرآن ، وإنْ حصل بعض منها " خلافاً للأَوْلى " نُزّل قرآن ليصحح ويوجه .. فرسول الله أولى الناس بأن لا يخرج عمّا نُزّل إليه من القرآن ، بل هو أوّل المسلمين وإمام المتقين .. صلّى الله عليه وآله وسلّم ..

وعليه ، **فترتيل نزول** القرآن ، **كان** يليه ويقترن به **ترتيلٌ للسنة** – قولاً وفعلاً وإقراراً – بحكم أنها بيانٌ له .

وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة أخرى مفادها : إن ترتيل نزول **القرآن** هو نفسه ترتيل نزول **الدّين** .

***

ثالثاً : بيان **المراد** (الغاية) من " **الترتيل** " في تنزيل القرآن الكريم ، وقراءة آياته على مكث :

1. للتنزيل **المرتل** للآيات الأثر الأقوى في نفوس الناس المخاطبين لهدايتهم ، **باستمرار التذكير** والتنبيه في أحوالهم وحالاتهم المختلفة : ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ القصص
أي ، ولقد نزّل الله عزّ وجلّ القرآن عليهم متواصلاً بعضه إثر بعض ، ومتتابعاً وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً .. ليتدبّروا ويؤمنوا بما فيه . ويؤيده قوله تعالى :
﴿ وَلَقَدْ **صَرَّفْنَا** فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ **لِيَذَّكَّرُوا۟** وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ الإسراء

أي ، ولقد وضَّحْنا ونوَّعْنا وكررنا في هذا القرآن من الأمثال والمواعظ ؛ ليتعظ الناس ويتدبروا ما ينفعهم فيأخذوه ، لكن وفي كل مرة ، ما يزيد البيانُ والتوضيحُ الظالمين إلا تباعدًا عن الحق ، وغفلة عن النظر والاعتبار [1] .

2. وللتنزيل **المرتل** للآيات الأثر المباشر في **تثبيت** رسول الله ومن آمن معه على أمر الله تعالى وهديه ، حتى تحقيق الغاية التي من أجلها أرسله الله تعالى للناس :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

(كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ) (نُثبّت .. الفعل المضارع فيه دلالة على الاستمرارية) ، أي ؛ وآتيناك أيها الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم القرآن **كذلك** ، أي مفرقا ، لنجعل قلبك – **ومن معك** – **ثابتاً** على الحق **دائماً** ، فكلّما نُزّل على قلبك شيء منه ازددت طمأنينة وثباتاً . وخصوصا عند ورود أسباب القلق وتعرّض رسول الله – ومن معه – لمواقف تُزلزل القلوب [2] . كما في قوله تعالى :

﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ النحل

(لِيُثَبِّتَ) (مفعول لأجله) أي ، تثبيتاً وهداية وبشارة للمسلمين ، أي للمنقادين لحكمه تعالى ..

(وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا) ((وتنكير (تَرۡتِيلٗا) للتفخيم : أي كذلك نزّلناه ورتّلناه ترتيلاً بديعاً لا يُقادر قدره)).. أي وآتيناك القرآن **مفرقاً** وبترسُّل وتمكُّث ، بعضه اثر بعض وعلى هيئة مقصودة ، لتحقيق ذلك الأمر:

(لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ) . وتثبيت الفؤاد يكون بإيراد الحجة تلو الحجة أنه على الحق المبين ..

وفي نفس الوقت بيان فساد دعاوى الكافرين وكشف تلبيسهم ، كلّما قاموا بها ؛ فقال تعالى :

(وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا) (الفعل في { يَأۡتُونَكَ } ، فعل مضارع) أي؛ وكذلك كلّما يأتيك – أيها الرّسـول – المشـركون بشـبهة أو تلبيس في إبطال أمرك ، جئناك – في الآيات **المرتلة** التنزيل – بالجواب الحق الدافع له وبأحسـن بيان .. ((فهم محجوجون في كل أوان ، مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حال)) [3]، وعلى مدى سـير الرّسـول صـلّى الله عليه وآله وسـلّم حتى تحقيق الغاية من الرسالة .. كما في قوله تعالى :

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ .. ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء

---

1 - انظر تفاسير ؛ المنتخب ، الميسّر ، الجلالين .

2 - تفسير الشعراوي

3 - انظر فتح القدير للشوكاني .

3. **وفي** التنزيل **المرتل** للآيات ، **البيان** الواضح (التبيان) **لكيفية** تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني :

﴿ .. **وَنَزَّلۡنَا** عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ **تِبۡيَٰنٗا** لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ النحل

(وَنَزَّلۡنَا .. ولم يقل وأنزلنا ..)(تِبۡيَٰنٗا .. مفعول لأجله وبشكل صيغة مبالغة) ..

أي وآتيناك القرآن مفرقاً على مكث ، يعني مرتلاً ، من أجل البيان الذي لا لبس فيه لكل شيء ؛ أي لكل شيء متعلّق بتحقيق الغاية من إنزاله – إكمال العبودية لله تبارك وتعالى – فما أنزل الله القرآن إلا **لبيان** كيف يُعبَد الله وحده ، وما أرسل الرسول إلا **لتحقيق** ذلك في الواقع [1] .. كما في قوله تعالى :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ **لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ**.. ٢٥ ﴾ الحديد

فيتأتّى ذلك البيان الواضح (**التبيان**) المتعلّق بتحقيق الغاية من إنزال القرآن ، من أمرين :

- من نص آياته ؛ (ٱلۡكِتَٰبَ) ، يعني مدلولاتها ومعانيها. فكلام الله تعالى هو الهدى والنور والفرقان..
- من " **ترتيل** " الآيات ؛ (وَنَزَّلۡنَا) ، أي تلقيها على مكث وترسّل على هيئة مقصودة ..

فتنزيل القرآن **مرتلاً** على قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كان من أجل **البيان** الواضح غاية الوضوح (**التبيان**) ، لكل ما يتعلّق **بتحقيق الغاية منه** ؛ إكمال العبودية لله تبارك وتعالى .

(وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ) (مفعول لأجله) معطوف على كون أن **ترتيل** القرآن جاء **تبياناً** لكل شيء ، **ومبنياً** عليه . أي ، وهو أيضاً هداية ورحمة وبشارة لمن أسلم وانقاد لله متبعاً قرآنه .

كما في قوله تعالى :

﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ **نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ** بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ **وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ** ٩٧ ﴾ البقرة .

1 - ((ومعنى الآية : (بيان لكل شيء يُحتاج إليه في أمر الدين) . أنظر زاد المسير لابن الجوزي وأيضاً تفسير ابن عاشور. فالعموم المستفاد من الآية عموم نسبي متعلق بالسياق الذي ورد فيه ، فالقرآن الكريم فيه تبيان لكل شيء يحتاج إلى تبيان، لما فيه من المصلحة الدينية والدنيوية للعباد . وهذا مثل العموم في قوله تعالى : (وأوتيت من كل شيء) عن ملكة سبأ ، أي من كل شيء يؤتاه الملوك . وكذلك العموم في قوله تعالى : (تُدمّر كل شيء بأمر ربها) أي كل شيء يستحق التدمير، وهكذا.. فعموم الآية من العموم المراد به الخصوص)) . (موقع أهل التفسير ، بتصرف) .

4. **وبواسطة** التنزيل **المرتل** للآيات ، كان **تحقيق** الغاية من القرآن الكريم في الواقع الإنساني :

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى **يُنَزِّلُ** عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ **لِّيُخۡرِجَكُم** مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد

الفعلان المضارعان في (يُنَزِّلُ ، لِّيُخۡرِجَكُم) يدلان على الاستمرارية ، فباستمرار التنزيل المرتّل ، يستمر الخروج .. أي أن **مراد** الله تعالى من **التنزيل المرتّل** لآيات القرآن البيّنات على قلب عبده ورسوله ، **أن يخرجكم** من الظلمات إلى النور، وأكد ذلك بقوله : (وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ) ..

فبالاستمرار في **تنزيل الآيات البيّنات** على قلب الرسول الكريم وتلقيها **مرتلةً** شيئاً فشيئاً ، وتحقيقها في الواقع شيئاً فشيئاً – عبوديةً لله تعالى – يكون **الخروج** من الضلال والدخول إلى الهدى .. حتى إذا **تمّت** الآيات البيّنات نزولاً وتحققاً في الواقع ، **كَمُل** الدخول في الهدى ، أي كملت العبودية لله تبارك وتعالى ..

وهذا ما حدث فعلاً وواقعاً ، ففي **اليوم** الذي **تمت** فيه الرسالة **وحياً** على قلب رسول الله – أو كادت – كانت قد **تحققت الغاية منها** وتمّت **وجوداً** في الواقع و**ظهوراً** على الدّين كله ، و**كمُلت عبودية** المسلمين لله تعالى .. وذلك يوم حَجّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، وقد كانت أحكام الله جلّ وعلا النهائية التي بيّنتها آيات سورة التوبة والتي نزلت في موسم الحج السابق – في السنة التاسعة – قد كانت وسائر أحكام الشريعة ، قيد **التنفيذ الفعلي** وعلى مستوى جزيرة العرب كلها ، وكان منها **إنهاء ما تبقّى** من مظاهر الشرك في حياة الناس عامة .. وفي نُسك الحج خاصة .. وقد تحقق ذلك فعلاً وواقعاً في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، فلم يحج مشرك ولم يَطُفْ بالبيت عريان . وفي يوم عرفة من حجة الوداع ، نزل قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ..ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ** وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ..﴿٣﴾ ﴾ المائدة

وفيها يبيّن الله تبارك وتعالى أن **إكمال الدّين** ؛ هو **إكمال العبودية** لله تعالى ، وحقيقة ذلك :

- أن الكفار قد **يئسوا** من تحوّل المسلمين عن عبادة الله جلّ وعلا ، أي يئسوا أن يُطفئوا نور الله تبارك وتعالى والقضاء على دينه ..
- وإمارة ذلك ، أن دين الله تعالى قد **ظهر** على الدّين كله في بقعة من الأرض (جزيرة العرب) ؛ بحيث لا **يُحْتَكم** فيها إلا لشرع الله تعالى ، وأن **كل** ما أمر الله تعالى به نافذ في حياة الناس ، فقد تحققت الأحكام النهائية التي جاءت في سورة التوبة : أن لا يطوف بالبيت مشرك أو عريان .. إلخ .. ولم يجرؤ أحد من العرب على مخالفتها أو تحدّيها..

((وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم**) ... وكذلك الرواية الواردة عن

الفاروق عمر : أنه لما نزلت { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. } وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « **ما يبكيك ؟** » قال : أبكاني أنّا كنا في **زيادة من ديننا** ، فأما إذا **أُكمِل** فإنه لم يكمل شيء إلا **نقص** ، فقال : « **صدقت** » . ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت « **إن الإسلام بدأ غريباً** ، **وسيعود غريباً** ، **فطوبى للغرباء** »)) [1] .

فالمقصود بـ " **إكمال دين الأمّة** " هو إكمال **خضوع** الأمّة **وعبوديتها** لله جل وعلا ، أي إكمالُ **تنفيذٍ وتحقُّقٍ** في واقعها ، وليس إكمال التشريع بمعنى **انتهاء** نزول الأحكام ، فقد نزلت بعض الأحكام لاحقاً بعد نزول هذه الآيات ، كما **ثبت** عند الطبري في رواية عن ابن عباس [2] .

فإكمال الأمّة عبوديتها لله – أي تحقق غاية الرسالة في الواقع – يقتضي إكمال التشريع ، ويقتضي كذلك أمور أخرى مثل السلطان والقوة للأمّة .. ولكن ، لا يلزم من إكمال التشريع إكمال العبودية ، مثل حال الأمة الآن !.. فإكمالُ الدّين يعني إكمال الخضوع لله ، إكمالَ **تنفيذٍ وتحقُّقٍ** في الواقع الإنساني [3].

وعلى هذا ، فتنزيل آيات الرسالة **مرتلة** ((وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا)) كان هو الطريق إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وتحقيق إكمال الدّين لله .. أي تحقيق غاية الرسالة في الواقع الإنساني .

- **وفي نفس السياق** ، يأتي قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ المائدة

" واضح من الآية الكريمة – كما ينبئ عنه **تقييد السؤال** بحين التنزيل – أنها مسوقة للنهي عن السؤال عن الأشياء التي لم يُنزّل بها قرآن ، والأمر بـ :

1. أن يؤجل السؤال حتى يُنزَّل القرآن فيها بحكم .
2. وإن لم يكن في ظاهر ما نُزّل دليل على شرح ما بهم إليه حاجة، فإذا سألوا حينئذ عنها تُبدى لهم".

ويبيّنه ، قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، الذي ورد في سبب نزول هذه الآية :

(**اسكتوا عني ما سكت عنكم** ، فإنما هلك من كان قبلكم **بكثرة سؤالهم** ، واختلافهم على أنبيائهم) [4] .

---

1 - الحديث رواه مسلم (145) وابن ماجه والترمذي . أنظر تفسير ابن كثير .

2 - انظر تعقيب الطبري على هذا الجزء من الآية في تفسيره . و انظر بحث " الغاية من الرسالة " .

3 - كما في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، آنف الذكر ، عن نقصان الدين بعد إكماله ، فالمقصود هو نقصان من جهة الظهور والتنفيذ في الواقع ، وليس من جهة التشريع - قطعاً - لأن دين الله تعالى محفوظ بحفظ الله تعالى له ، فلا يمكن أن ينقص أو أن يندثر شيء منه بعد أن أتـمّه الله جلّ وعلا .

4 - حديث حسن ، صحيح أسباب النزول لـ إبراهيم العلي .

" فأعلمَ اللهُ تعالى المؤمنين أن **السؤال** عن الأشياء التي لم يُنزّل بها قرآن **لا ينبغي أن يقع** ، لأن الإجابة عليه فيه مساءة لهم – من باب تأكيد النهي وتشديده – لإساءتهم الأدب واجترائهم على المسألة والمراجعة، وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من **الاستسلام** لأمر الله عزّ وجلّ من غير **تكلّف** في بحث كيفيّته وكميّته .

(عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ) . أي ، عفا الله تعالى عن مسائلكم السالفة ، حيث لم يفرض عليكم الحج في كل عام جزاء بمسألتكم ، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم فلا تعودوا إلى مثلها. والله ذو مغفرة للذنوب والإغضاء عن المعاصي .

(قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ). أي، سألوا مثلها في كونها محظورة ومستتبِعة للوبال ، وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير ، فأصبحوا بسببها كافرين ، حيث أُمروا بها فتركوها فهلكوا " [1] .

فتقييد السؤال بما نُزّل ، يعني عدم استباق الأمور وعدم التكلف بالسؤال عن التفاصيل المسكوت عنها لغاية الآن .. **فيجب** على المؤمنين الالتزام **بما نُزّل** من القرآن (الدّين) ، أولاً بأوّل وعدم تجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل ، من غير تكلّف في بحثه ولا تعرّض لكيفيته وكميته: (**اسكتوا عني ما سكت عنكم** ..) .. وهكذا حتى إكمال الدّين لله تعالى [2] .

فهذا دليل على أن **التلقي المفرّق** للدين – القرآن وبيانه من السّنة – كان حسب منهاج معين ، كماً وكيفاً ، حتى تحققت الغاية التي من أجلها أُنزلت الرسالة .. فبحسب " **الترتيل** " كان تلقي الرسالة وتحقيقها في الواقع .

- **وكذلك** ، يأتي ما أمر الله تعالى به من تلاوة القرآن على الناس **تلاوة دعوة** وإنذار، في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ **أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ**ۖ فَمَنِ **ٱهۡتَدَىٰ** فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن **ضَلَّ** فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ **النمل**

والأمر بتلاوة القرآن ، هو في الواقع تكليف بتلاوة **ما نُزّل منه** ، فما لم يُنزّل بعدُ على قلب الرسول، لا يعلمه ، فلا يؤمر بتلاوته وبيانه .. وهذه بَدَهيّة .

---

1 - انظر ، تفسير أبو السعود .

2 - حتى لا يقعوا بما وقع فيه بنو إسرائيل من التكلّف المستنزل لغضب الله تعالى ، عندما أمرهم الله تعالى على لسان نبيهم موســى (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) أي أيّ بقرة. وبدل أن ينصـاعوا لأمر الله تعالى ويسارعوا لتنفيذه ، تكلّفوا السؤال عن التفاصيل التي سكت عنها الله تعالى رحمة بهم ، فأساؤا ولم يحسنوا ، وأظهروا التقوى غير الصادقة فقالوا : (إِنَّ البَقَرَ تَشَـابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَـاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) . حتى قال لهم مؤكداً لهم أمر الله مرة أخرى وقد أكثروا السـؤال عن التفاصيـل : (فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ) . وفي النهاية وبعدما عيّن لهم البقرة ولمّا يجدوا مخرجاً ومهرباً : (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ) .

والأمر بتلاوة ما **نُزّل** من آيات القرآن تلاوة دعوة ، يعني تلاوة الآيات التي فيها معالجة الواقع الإنساني (المناط) المَعْني .. أي أن الأصل في مخاطبة الناس أن يُخاطبوا بآيات القرآن – فبها تكون المعالجة – وألاّ يخاطبوا إلا بما يلزم لمعالجة المناط الحاصل فعلاً أثناء السير .. فعدم نزول آيات من البقرة أو آل عمران – مثلاً – بدل آيات سورة **النمل** السابقة ، يعني أن هذا ليس وقتها ولا مكانها ، ولا الناس المخاطبون هم المعنيين .. فليس فيها المعالجة للواقع الإنساني (المناط) الحاصل والواقع فعلاً .. فلا يُنزّل من الدّين – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – إلا **ما يجب أن يُنزّل** ، قدراً وشرعاً ، أثناء السير نحو إكمال الدّين لله عزّ وجلّ ، والمحافظة على ذلك .. كما في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : (**اسكتوا عني ما سكت عنكم** ..) .

فهذا دليل على أن ترتيل نزول آيات القرآن المجيد كان ترتيل تلقٍ ، وأنه كان حسب منهج معين – كماً وكيفاً – لتحقيق الغاية التي من أجلها أُنزل كرسالة خاتمة للناس من رب العالمين تبارك وتعالى .

- **ويبيّنه** قوله تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ** مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء

(وَنُنَزِّلُ) من التنزيل ، أي مرتّلاً . " (مِنَ ٱلْقُرْءَانِ) (من) بيانية ، قُدّمت على المُبيَّن اعتناء ، فإن كل القرآن كذلك . أو تبعيضية ، لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك ، بل بمعنى أنا **نُنزّل** منه في **كل نوبة** ما تستدعي الحكمة نزوله حينئذ ، فيقع ذلك ممن **نُزّل** عليهم – بسبب **موافقته** لأحوالهم الداعية إلى نزوله في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم – موقع الدواء الشافي الموافق لآلام المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير ، فكل **بعض** منه متصف بالشفاء لكن لا في كل حين ، **بل عند تنزيله** ، أي عند تلقيه منجماً بحسب الحال " [1] .. **فالترتيل** في نزول آيات القرآن ، كان فيه الشفاء والرحمة للمؤمنين .. واستمر الأمر حتى انتهاء التنزيل ، فاكتمل الشفاء والرحمة .. أي اكتمل الدّين لله .

- **وبناءً** على ما سبق بيانه من **الغاية من الترتيل** ، نخلُص إلى ما يلي :

إن " **الترتيل** " في إنزال القرآن ليس لمجرد الإنزال ، فالله جلّ وعلا قادر على أن ينزّل القرآن كيف يشاء ومتى يشاء .. وقد أنزله جملة واحدة – بدايةً – إلى السماء الدنيا في ليلة القدر .. بل إن لله جلّ وعلا حكمة بالغة من **الترتيل** في **تنزيل آيات القرآن الكريم** على قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم – كما جاء في الآيات السابقة – وهي : ليكون **بحسبه تلقي** الرسالة .. و **بيان** الطريق وكيفية السير .. **والتثبيت** على الطريق ، و **إزالة** العقبات .. لتحقيق المُراد (الغاية) من الرسالة .

ف " الترتيل " ، كان من أجل **تلقي** الرسالة (عَلَىٰ مُكْثٍ) ليكون السير بها على بصيرة ؛ أي من أجل تلقي القرآن بشكل **تدريجي** ، **للعلم والعمل به** ، **وللسير به** خطوة بعد خطوة ، وحسب منهاج محدد وواضح

---

1 - تفسير أبو السعود . باختصار

وعلى بصيرة .. من نزول ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ .. ﴾ حتى نزول آخر آية ، لجعله حقيقة في الواقع الإنساني ، متمثلاً **بأمّة** قد أكملت دينها (عبوديتها) لله تبارك وتعالى :

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ : أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ ، **عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ، وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﴾ يوسف

فكان " **ترتيل** " نزول آيات الرسالة **بياناً لكيفية** تحقيق الغاية من الرسالة ، تماماً ، كما كان **نصّ الآيات** بياناً لتلك الكيفية ، فتحقيق **الغاية** من الرسالة ما كان إلا **بتلقي الآيات المُبيّنات مرتلة :**

﴿ هُوَ ٱلَّذِي **يُنَزِّلُ عَلَىٰ** عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ **لِّيُخۡرِجَكُم** مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩ ﴾ الحديد

﴿ .. **وَنَزَّلۡنَا** عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ **تِبۡيَٰنٗا** لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ النحل

﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ ﴾ الإسراء

لذلك لم يُنْزل الله جل وعلا القرآن على قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جملة واحدة ، فذلك لا يحقق الغاية من إنزاله ، في تقدير الله تبارك وتعالى وسننه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ **وَلَا يَأۡتُونَكَ** بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ الفرقان .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ ﴾ النمل

" وتصديره بحرفي التأكيد – إنّ ، ل – لإبراز كمال العناية بمضمون القرآن ، أي لتؤتّاه بطريق التلقية والتلقين . (مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) أي ، أيُّ حكيم وأيُّ عليم – وهذا معنى مجيئها نكرتين – وفي تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن ، وتنصيص على علو طبقته صلى الله عليه وسلم في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق ، فإن مَنْ تلقى العلوم والحِكَم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون عَلَما في **رصانة** العلم والحِكْمة . والجمع بينهما مع دخول العلم في الحِكْمة ، لعموم العلم ودلالة الحِكْمة على إتقان الفعل " [(1)] وأثر الحكمة واضح في تلقي رسول الله القرآنَ مرتلاً ..

هذا ، ويأخذ كل مؤمن حظّه من **رصانة** العلم والحِكْمة بقدر **تلقيه** القرآن على **المنهاج** الذي تلقاه عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كما حصل مع الجيل الأول من الأمّة ؛ جيل البناء ؛ جيل القدوة .. الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، فقد أخذوا من رصانة العلم والحِكْمة الحظ الوافر .

***

1 - أنظر تفسير أبو السعود .

رابعاً : بيان **ضوابط الترتيل** في تنزيل آيات الرسالة وتلقيها ، من أجل تحقيق الغاية منها :

عرفنا من النقطتين السابقتين واقع " الترتيل " ، وأنه الكيفية التي تلقى بها رسول الله القرآن مفرقاً على مكث . وعرفنا كذلك المراد والمقصد من " الترتيل " ، وأنه تحقيق الغاية من الرسالة ، وليكون في نفس الوقت بياناً وتعليماً لكيفية تحقيق تلك الغاية ..
وإتماماً للفهم ، ينبغي أن نعرف على أي أساس كان ذلك " الترتيل " ، و ما هي ضوابطه ؟ :

1– في نظرة مجملة لما حصل مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، نرى أنه ما أن نَزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ... ﴾ المدثر ، حتى قام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بما كلّفه به ربُّه تبارك وتعالى من **العبادة** : إيماناً ، وعملاً صالحاً ، ومبادأةً للناس بالإنذار (خطاب النذارة) ، وذلك :

- **بدعوتهم** إلى عبادة الله تعالى وحده والكفر بما دونه ، على أساس أن الله تعالى هو وحده الإله الحق ، صاحب الأمر النافذ في الكون والإنسان والحياة .. خلقاً وتقديراً واستمراراً ومصيراً .. كما ورد في الآيات الأولى من سورة العلق .
- **بيان المصير** في الدنيا والآخرة لمن اهتدى ولمن أبى [1] ..

وذلك بشكل " **بلاغ مبين** " ؛ أي بلاغاً **مُزيلاً** للجهالة **موجداً** للعلم ، **فرقاناً** بين الحق والباطل ، ليكون **هداية** لمن أراد الهداية ، **مُقيماً** للحجة على من أبى واستكبر [2] :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء

ومن أجاب دعوة الله تعالى ، انضمّ إلى الجماعة المسلمة ليُعلَّم ويُزكَّى ويَعبد الله تعالى ، ويحمل دعوته مع من آمن :

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ هود

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ الجمعة

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ المزمل

---

1 - للتفصيل أنظر بحث " مفاهيم ومصطلحات رسالية " - (خطاب النذارة) .
2 - وهذا هو " منهج الخطاب " . للتفصيل أنظر المرجع السابق ، (منهج الخطاب) .

.. إلخ

واستمروا جميعاً ، بقيادة الرّسول الكريم ، بالسير مستقيمين على ما أمرهم الله تعالى به ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – خطاباً وأفعالاً – في التعليم والتزكية والإعداد للجماعة المسلمة .. وفي مواجهة مَنْ رفض دعوة الله وأبى العبودية له تبارك وتعالى ، من المجتمع وملائه ، وقد أصروا على موقف الرفض حتى أصبح موقفاً نهائياً لهم .. ومن ثم ، جعلوا موقفهم هذا ، أصلاً وأساساً في مواجهة رسول الله والذين أجابوا دعوة الله تعالى واتبعوه . واجتهدوا – ممثلين بالملأ منهم – في إبطال أمر الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وإبعاد الناس عنه ، بعمل كل ما وسعهم من " **مكر** " و " **كيد** " [1] لتحقيق ذلك :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ التوبة

لكنّ الله عزّ وجلّ ، ما أرسل رسوله بالقرآن والدّين الحق إلا ليظهره على الدّين كله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة

فما كان من الله جلّ وعلا إلا أن حقق وعده ، **وحكم** بين الفريقين فجعل العزّة لأوليائه المؤمنين والذلّة على أعدائه الكافرين ، حيث كانت البداية بتهيئة " الأنصار " و عَقْد بيعة النصرة والمَنَعة .. ثم بالهجرة إلى المدينة المنورة وتمكين الجماعة المسلمة في تلك البقعة من الأرض ، فأصبح المسلمون – مهاجرين وأنصاراً – أمّة من دون الناس .. وبعد عام تقريباً ، كان " **يوم الفرقان** " بين الحق والباطل ، كان يوم بدر، يوم أنزل الله جلّ وعلا عذابه (البطشة الكبرى) على الكافرين – قتلاً وأسراً – بأيدي المؤمنين ..

ومن ثم استمرت الأمّة المسلمة الناشئة في سيرها قُدُماً ، بقيادة الرسول الكريم ، **لإكمال الدّين** (العبودية) لله وحده ؛ ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ .. ﴿٣﴾ ﴾ الزمر .. وذلك **بتطبيق** ما يُنزّل من الدّين ، أولاً بأول ، سواء في ما يتعلّق **بالمعالجات** لواقعها وتنظيم شؤونها الداخلية والخارجية ، و**حمل** دعوة الله للناس كافة بالجهاد في سبيل الله جلّ وعلا :

﴿ ٱلَّذِينَ **إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلْمَعْرُوفِ **وَنَهَوْاْ** عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران

أم بإزالة **العقبات** جميعها ، المادية منها والفكرية ، من داخل الأمّة وخارجها .. والتي تحُول دون تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع ، وإكمال الأمّة دينها (عبوديتها) لله تعالى ، تطبيقاً ودعوة :

1 - أنظر المرجع السابق ، (المكر والكيد في القرآن) .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

(فكان المشركون **إذا أحدثوا شيئاً** أحدث الله لهم **جواباً**) [1].

فتمّت الرسالة **وجوداً** في الواقع و**ظهوراً** على الدّين كله ، في جزيرة العرب . وفي حجة الوداع شهدت الأمّة لرسولها الكريم بتمام بلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، ونزل قول الله تبارك وتعالى يُقرر هذه الحقيقة :

﴿ ..**ٱلْيَوْمَ يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ .. ﴿٣﴾ ﴾ المائدة .. والحمد لله رب العالمين .

- - -

2– **وبالتدقيق** في ما حصل مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وقد أوردناه مجملاً ، نرى أن هناك ضابطين اثنين لترتيل آيات الرسالة ، ولتتابع حصول الأحداث :

الأول : **ضابط شرعيّ** [2] (تكليفيّ).

الثاني : **ضابط سُننيّ** [3] (قدريّ / تكوينيّ) .

الضابط الشرعيّ ؛ يتمثل فيما ينزّله الله تعالى من آيات القرآن الكريم – أولاً بأول – بما فيها من تكاليف وأوامر شرعيّة ؛ من إيمان وعمل صالح ودعوة (الأمر الشرعيّ) .. حيث قام رسولنا الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم بما كُلّف به – ابتداء – في أول سورة المدثر من **عبادة الله تعالى : إيمان ، وعمل صالح ، ومبادأة الناس بالإنذار** ، **بمخاطبتهم** بكلام الله لهم في رسالته : أنه لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير في الدنيا والآخرة (خطاب النذارة) ، كما **أمره** ربه وبالوصف العام الذي ذكرنا (منهج الخطاب) ، فبلّغهم ما نزّله الله تعالى من رسالته وبيّنه لهم . ومن ثم ، وبعد ذلك .. أصبح الناس من كلام الله تعالى وما فيه من الدلالة على الهدى والحق ، صنفين وعلى موقفين :

– مؤمنون مهتدون ، حالهم التصديق والاتباع ..

---

1 - أخرجه ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس .

2 - نسبة إلى شرع الله تعالى ، أي دينه . ولا يثبت إلا بالدليل الشرعي فقط .

3 - نسبة إلى سُنّة الله تعالى . والسنّة في اللغة لها أصل واحد وهو : "جريان الشيء واطراده " (معجم المقاييس) . وفي الإصطلاح هي : " طريقة الله - جلّ وعلا - وعادته الدائمة المطردة في إنفاذ إرادته ومشيئته في خلقه ، متمثلة في أمره : (إنما أمره إذا **أراد** شيئاً أن يقول له **كن** فيكون). فإن كان أمره - عزّ وجلّ - متعلق بالخلق والتقدير والقيوميّة ، فهذا هو الأمر القدريّ (التكويني)، فيكون بحسب **سنته القدرية** (التكوينية) في الآفاق والأنفس والأمم : (سنة الله التي قد خلت من قبل). وإن كان أمره - عزّ وجلّ - متعلق بالتكليف بالشريعة والدين ، فذاك الأمر الشرعيّ ، فيكون بحسب **سنته الشرعية**، أي طريقة عبادته (دينه) التي أرادها ورضيها من المكلفين من عباده ، فأوحاها إلى رسله وأنبيائه ليبيّنوها لهم : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم). ودليل إثبات **السنن القدرية** يكون إما شرعياً أو عقلياً بالتفكر في خلق الله في الآفاق والأنفس وأحوال الأمم . أنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - (القدر خيره وشره) .

- كافرون ضالون ، حالهم التكذيب والإعراض ..

﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ ﴾ النحل

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ ﴾ الشورى

هذا ، **وما اختاره** الناس من **مواقف** مما **بلغهم** من آيات الله عزّ وجلّ وما فيها من الدلالة على الحق المُبيْن (الأمر الشرعي) ، تُمثّل **الضابط السُّنني** (الأمر القدريّ) . فالقدرة على الاختيار أو حرية الإرادة، مثل سائر القدرات والخصائص الإنسانية ، لها سننها الربّانية التي تضبطها [1] .

والإنسان ، فرداً ومجتمعاً ، حتى يُشبع حاجاته المتنوعة ويكمل سيره في حياته ، لا بد له من اختيار ما يراه مناسباً من السنن والقوانين الضرورية له ، كمنهاج حياة وطريقة عيش (الضابط السننيّ)، ومن ثم يتحمّل هو وحده مسؤولية اختياره ، سواء كان مصيباً لاختياره السنن الهادية للحق ، أم مخطئاً لاختياره غيرها من السنن التي تؤدّي إلى غير الحق ، أي سنن الضلال :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ ﴾ الليل

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ .. ٢٩ ﴾ الكهف

- فالذين **اختاروا** اتباع **سنن الله** تعالى في الهداية ، اهتدوا وآمنوا واتبعوا الرسول وانضموا إلى الجماعة المسلمة .. زادهم الله جلّ وعلا بالقرآن هدى .

- والذين **اختاروا** اتباع **سنن الله** تعالى في الضلال ، كفروا واتبعوا الطاغوت .. فقد حقت عليهم

---

1 - ومنها ، أن أخطر آفات الإرادة التي تمنع الإنسان من السعي لتحقيق مراده ، الشك وما يترتب عليه من تردد . كما بيّن الله تعالى حقيقة موقف المنافقين في غزوة العسرة (تبوك) وكشف الدافع الحقيقي لإعتذارهم عن الخروج وعدم إرادتهم له في قوله تعالى : (لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {44} إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ {45} وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ {46}) التوبة . فقوله تعالى : (كَرِهَ اللّهُ .. وَقِيلَ اقْعُدُواْ) من سنة الله تعالى و أمره القدري في الإرادة عند الإنسان ، وهو : أن مَن لم تكتمل إرادته في أمر ما ، بسبب الشك والريب الذي يؤدي إلى التردد ، فهو عاجز عن تحقيق ذلك الأمر. ((يقول ابن تيمية : (..أنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضي السالم عن المعارض المقاوم .. وحيث لم يوجد فعل أصلاً فهو همّ ، وحديث النفس ليس إرادة جازمة ... الحب التام مع القدرة ، يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ، ضرورة)) كتاب (العمل : قدرة وإرادة) لـ جودت سعيد . وقد عرّف الكاتب العمل بأنه : حركة بقصد . فلا يعتبر كل فعل عملاً . ومن ثم فالعمل حتى يوجَد لا بد له من ركنين : قدرة وإرادة . وقد بيّن خصائص كل ركن منهما ، وبالأمثلة . هذا، والأبحاث الحديثة في "الإدارة" بمجالاتها المتنوعة ، و"صنع القرار" و" تطوير الذات" .. تتحرّك في هذا المجال ، مجال الإرادة والقدرة والفعل الإنساني .. وتكشف بعض قوانينه وسننه الضابطة له، للحصول على أعلى كفاءة ممكنة.

الضلالة [1] .. وإذا **أصروا** على موقفهم ذاك ، زادهم القرآن كفراً :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء

أي ، " ننزّل من القرآن – في كل مرة – ما هو في تقويم دين المؤمنين واستصلاح نفوسهم ، كالدواء الشافي للمرضى .. فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا في كل حين ، **بل عند تنزيله** موافقاً **لأحوالهم** الداعية إلى نزوله ..

(وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) . أي ، ولا يزيد القرآن الكافرين المكذبين به ، الواضعين الأشياء في غير مواضعها إلا هلاكا بكفرهم وتكذيبهم – مع كونه في نفسه شفاء من الأسقام – وذلك بسبب أنهم كلما **جددوا** الكفر والتكذيب بالآيات **النازلة تدريجياً** (على مكث) ازدادوا بذلك هلاكا ، بسبب عدم انتفاعهم بما فيه من الشفاء والهدى والنور . وإسناد الزيادة إلى القرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك بسوء صنيعهم ، باعتبار كونه سببا لذلك . وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك " [2] ..

كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ التوبة

وهكذا ، و بناءً على ذينك **الضابطين** استمرت الأحداث والمواقف **بالتتابع** والتوالي ، واستمر تلقي آيات الرسالة على الترتيل ، حتى تحققت الغاية :

الضابط الشرعيّ : متمثّلاً في **البلاغ المبين** لما **يُنزّل** من أمر الله الشرعي – إيمان وعمل صالح ودعوة – كمعالجات للواقع الإنساني .

الضابط السننيّ : متمثّلاً في ما **اختاره** الناس – المؤمنون أو الكافرون – من **مواقف** مما بلغهم من رسالة الله تعالى ؛ حسب **سنن** الله تعالى في الآفاق والأنفس والأمم .

- - -

1 - أنظر مثلاً الآيات التي جاء فيها : (إن الله لا يحب ..) (إن الله لا يهدي ..) أو الآيات التي ورد فيها بيان صفات وخصائص أهل الإيمان أو أهل الكفر أو أهل النفاق ..

2 - انظر (تفسير أبو السعود) .

3 – وبحسب الضابطين السابقين :

أصبح الناس **فريقين** مختلفين : فريق مهتدٍ عابدٍ لله جلّ وعلا متّبع لرسوله ، وآخر ضال مستكبر عن عبادة الله سبحانه وتعالى ، كاره لرسول الله معادٍ له ..

وأصبح " ترتيل تلقي " آيات الرسالة ، **والتتابع** والتوالي للأحداث والمواقف ، أيضاً في مسارين مختلفين ومتوازيين :

- ✓ **ترقّي** مَنْ يعبد الله تعالى – أفراداً وأمّة – في أطوار العبودية لله حتى إكمال الدّين لله عزّ وجلّ .. وهُم الذين اختاروا تحمّل المسؤولية أمام الله تبارك وتعالى عن الرسالة **تطبيقاً** في واقعهم ، **ودعوةً** للناس كافة حتى إكمال الدّين لله ، وتحقيق العبودية له وحده جلّ وعلا في الأرض ..
- ✓ **تطوّر** مواقف الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى – مجتمعاً أو أفراداً أو جماعات ، أتباعاً ومتبوعين – من رسالة الله وحَمَلتها .. وهم الذين اختاروا محادّة الله ورسوله ..

❖ **أما بالنسبة لترقي الذين آمنوا – أفراداً وأمّة – في العبودية لله تعالى :**

فهذا **الترقي** في العبودية لله حتى الإكمال ، له عوامل أربعة رئيسة مؤثّرة فيه :

- **تلاوة** آيات الله تعالى على الأمة ..
- **التعليم للكتاب** ، للأمّة وللأفراد ..
- **التعليم للحكمة** ، للأمّة وللأفراد ..
- **التزكية** ، للأمّة وللأفراد [1] ..

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ ﴾ الجمعة

أما من الناحية العملية : فإن التكليف بالأعمال والمعالجات كان حسب قاعدتين أو قانونين رئيسين :

- قاعدة " البيان عند وجوبه " ، فلا يُنزّل من الدّين إلا ما يجب أن يُنزّل – قدراً وشـــرعاً – وهو ما يلزم لمعالجة **واقع حاصـل** (المناط) في فترته ومرحلته .. ســواء تعلق بالمؤمنين أم بالكافرين أم بالعلاقة بينهما ..
- قاعدة " التكليف حسـب الوسـع " ، أي أن يكون في **اسـتطاعة** المؤمنين – أفراداً أو جماعة أو أمة – تطبيق تلك المعالجة وإنفاذها حال نزولها [2] . فأمر الله الشرعيّ إذا نُـزّل لا بد من أن **يَنـفُذ** في الواقع الإنساني مباشرة ودون تأخير ، كما هو **نافذ** أمره القدريّ ، لأنه لا إله إلا الله :

---

1 - انظر بحث " مفاهيم ومصطلحات رسالية " - (يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

2 - الضابط الأهم في حدّ الوسع ، هو عدم هلاك أو فناء ذات المكلّف أو كيانه ، فرداً كان أو جماعة أو أمة . وهو ما يسمّى بـ (الإكراه الملجيء) ودليله قوله تعالى :{..فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } البقرة173.

(وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨) [1] الأحزاب

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ **ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ** ١٠٢) المائدة

أي ، فأصبحوا بسببها كافرين ، حيث أُمروا بها فتركوها فهلكوا [2] .

وكان التكليف حسب القانونين السابقين في إطار **إعداد** و **تهيئة** المؤمنين لما سيُنزّل بعده ، سواء على مستوى الأفراد أم الأمّة ، أي في سياق الترقّي في أطوار العبودية ؛ تعليماً وتزكية .. حتى إكمال الدّين لله تعالى .. فكان يتنزّل من القرآن في **كل نوبة** ما تستدعي الحكمة نزوله حينئذ ، فيقع ذلك من المؤمنين – بسبب **موافقته** لأحوالهم الداعية إلى نزوله – موقع الدواء الشافي المصادف للآلام من المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ **شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ** لِّلۡمُؤۡمِنِينَ .. ٨٢ ﴾ الإسراء

ومثال ذلك ، ما ورد في الرواية عن عائشة رضي الله عنها في بيان سنة الله عزّ وجلّ وحكمته في **ترتيل** نزول **التكاليف** الشرعية (العبادة / الدّين) ، حيث كان أول ما نُزّل من القرآن الكريم ، الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثمّ نُزّل التشريع والأحكام المفصّلة لاحقاً .. حيث قالت :

(**أول** ما أُنزل من القرآن سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار ، **حتى** إذا **ثاب الناس** إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، **ولو نزل من أول الأمر** : لاتزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبداً ، **ولو نزل من أول الأمر** : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا نترك الخمر أبداً . **أُنزل** على النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وأنا **جارية ألعب** (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وهي من سورة القمر ، **وما نزلت** البقرة والنساء إلا وأنا عنده في **المدينة**) [3] .

ويؤيّد ذلك ما ثبت من قول بعض الصحابة الكرام في وصف ترتيب تلقيهم آيات القرآن الكريم :

(الأنعام145 ، النحل115){.. إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ..}النحل106. فالحفاظ على حياة المكلّف وذاته ووجوده مطلب شرعي ، ومقصد شرعي من أهم المقاصد الشرعية الخمس ، ولا فرق إن كان المكلّف شرعاً هو الفرد أو الجماعة أو الأمة .

1 - أنظر تفسير ابن كثير .

2 - انظر تفسير أبو السعود .

3 - رواه البخاري . وهناك تفصيل لهذه النقطة سيرد لاحقاً .

" بأنهم أوتوا الإيمان أولاً ثم أوتوا القرآن " .. بمعنى أنهم أول ما أخذوا عن رسول الله من القرآن ما فيه بيان حيثيات الإيمان بالله واليوم الآخر ، ووجوب الاستسلام والانقياد لأمر الله ورسوله (خطاب النذارة) .. ثم تبعه بيان الأحكام التفصيلية والتشريعات .. فهذا هو الخط العام في منهجية البناء والإعداد لما سيتنزّل لاحقاً من الدّين والعبودية لله .. ويؤيّد هذا قوله تعالى :

﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ..﴿١١﴾ ﴾ الرعد

فالأصل في عملية تغيير ما في واقع القوم وحالهم ، هو تغيير ما بأنفسهم أولاً ، من مفاهيم وقناعات في وجهة نظرهم للحياة وما بعد الحياة .. فهو أساس حالهم وواقعهم .

❖ **أما بالنسبة إلى الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى وتطـــوُّر مواقفهم ، فتفصيل** ما حصل فعلاً وواقعاً ، يبيّنه التالي :

- خطاب الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

فالآيتان تصفان واقع الحال الذي كان عليه الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مع الكافرين – بأشكالهم المختلفة – من حيث تبليغه الحق لهم .. ومن حيث موقفهم منه ، **من بداية البلاغ المبين** لأول ما نُزّل من الآيات ، **حتى آخر ما نُزّل وتحقيق الغاية** من الرسالة ، وذلك :

- ✓ بدلالة { وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا } أي القرآن كلّه ،
- ✓ ودلالة الفعل المضارع في { يَأۡتُونَكَ } بما يفيده من الاستمرار ،
- ✓ ودلالة المفرد النكرة { بِمَثَلٍ } بما يفيده من العموم ،
- ✓ ودلالة أسلوب النفي { لَا } والاستثناء { إِلَّا } بما يفيده من الحصر والديمومة .

أي ، **كلما** قام الذين كفروا – مشركين وأهل كتاب وغيرهم – بهذا الأمر : (يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ) أي ، أيّ مثل كموقف لهم من الحق الذي بلغهم ، **جئناك دائماً** – في آيات القرآن المنزلة على الترتيل – بالجواب الحق الدافع له (المعالجات) وبأحسن بيان : (جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا) ، لإزالة تلبيسهم على الحق ، وإقامة الحجة عليهم مرّة أخرى .. " فهُم محجوجون في كل أوان ، مدفوع قولهم بكل وجه ، وعلى كل حال " [(1)] .. كما في قوله تعالى : ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ..﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء

1 - انظر فتح القدير للشوكاني .

وعلى ذلك استمر التنزيل المرتّل للآيات حتى **تمام تلقي القرآن كاملاً** ، وتحقُق الغاية من إنزاله في الواقع الإنساني : (وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا) أي القرآن كلّه ..

فجاء خطاب الله تعالى – في الآيتين السابقتين – لرسوله الكريم مُبيّناً له ومُطمئناً له بمعيّته وتأييده الدائم المستمر له بالحق وبالحجة البالغة ، من خلال التنزيل المرتّل لآيات القرآن الحكيم .. في كل مرة – دون استثناء – يثير (ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) شبهات حول الحق الذي بلغهم ، ويلبسوه بالباطل ليصدوا عن سبيل الله .

- **ويبينه كذلك** ، ما ثبت عن ابن عباس ، رضي الله عنهما في وصف تنزيل آيات القرآن على قلب رسول الله مرتّلة ، **كمعالجات** للواقع الإنساني ، قوله :

  (**ونزّله** جبريل **بجواب** كلام العباد وأعمالهم) [1] .

  وفي رواية أخرى ، قوله :

  (فكان المشركون **إذا أحدثوا شيئاً** أحدث الله لهم **جواباً**) [2] .

وهكذا ، فكلّما **بلّغهم** رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ما **نُزّل** إليه من الحق من عند الله تعالى **وبيّنه** لهم (الأمر الشرعي) ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور .. أثاروا حوله الشبهات وألبسوه الباطل (الأمر القدري / السنن) ليصدوا عن سبيل الله جلّ وعلا . وكلما فعلوا ذلك ، نزّل الله تعالى لهم الجواب الشافي من آيات القرآن (الأمر الشرعي) ، فأزال تلبيسهم وأبطل شبهاتهم وأقام عليهم الحجة مرة أخرى .. وهكذا .. فكلما أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً ..

فموقف الكفّار كان من باب المجادلة بالباطل ، وقد اختار **الملأ منهم** موقف **الإصرار** على رفض رسالة الله تعالى ودعوته (الزيادة في الكفر) :

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ غافر

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ الجاثية

1 - رواه الطبراني والبزار .
2 - أخرجه ابن أبي حاتم .

فكان لا بد من كشف حقيقتهم وحقيقة موقفهم من الحق ، ليعلم أتباعُهم ذلك فلا يتّبعوهم .. وليَثْبُت الذين آمنوا على موقفهم ويصبروا حتى يأتي الله بأمره .

هذا ، وقد ذكر الله تعالى لنا الكثير من مواقف الذين كفروا تلك – على اختلاف أنواعهم – وذلك كأمثلة تطبيقية لسننه جلّ وعلا ، في كل نوع منهم .. وهذه نماذج منها :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا** بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الكهف

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ البقرة

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ **الْمُنَافِقُونَ** أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ التوبة

.. إلخ

وهكذا ، فالذين كفروا – بأشكالهم المختلفة – عندما لم يجيبوا داعي الله ، وأصروا على الرفض .. فما كان يظهر ويستجد من مواقفهم (**المناط**) ، كان الرسول يبيّن الموقف الشرعي منه (**المعالجة**) لبيان الحق وإحقاقه ولكشف الباطل ودمغه وإزهاقه .. حيث كان يتلو عليهم ما كان يتنزّل من آيات الله تعالى ، ويُبيّنها لهم ، ويستقيم عليها .. دون الخشية في الله لومة لائم ، مع الصبر على ذلك حتى يحكم الله جل وعلا بين أوليائه وبين أعدائه ، فيُتمّ نوره ويُظهر دينه على الدّين كله :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

﴿ **وَاتَّبِعْ** مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ **حَتَّىٰ** يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس .

- - -

- ويمكننا إجمال ما فصّلناه في النقاط الثلاث السابقة من بيان ضوابط ترتيل الآيات ، وتتابع أحداث السير ، بما يلي :

أولاً : إن أعمال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من البلاغ ، والبيان ، وتنزيل المعالجات – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً – على الواقع الإنساني (المناط) الذي كان فيه ، سواء فيما يتعلق بالمؤمنين أم بالكافرين أم بالعلاقة بينهما .. كان **يحكمها الوحي** (الأمر الشرعيّ) ، فكان رسول الله ملتزماً بما يوحَى إليه ومنضبطاً به ولا يخرج عنه البتّة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ يونس

وهذا هو " الضابط الشرعيّ " ؛ متمثّلاً في **تبليغ** ما **نُــزّل** من آيات الرسالة ، **والبيان** لما فيها من أمر الله تعالى كمعالجات للواقع ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً .

ثانياً : إن جميع مواقف الذين كفروا وردود أفعالهم واختياراتهم ، وباختلاف أنواعهم ودرجاتهم :

﴿ ..وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الكهف

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ آل عمران

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ البقرة

لم يكن يحكمها أمر الله **الشرعيّ** ؛ فهم كفّار ، بل كان يحكمها أمر الله تعالى **القدريّ** ومشيئته العامة ، متمثّلة في ما جعل الله سبحانه وتعالى في الأفراد والمجتمعات والرسل والرسالات ، من **خصائص وطبائع** ومن **سنن ضابطة لها**[1].. **فالقدرة على الاختيار** لدى الإنسان – مثل سائر قدراته – مخلوقة ومحدودة وليست مطلقة ، ولها سننها الإلهية الضابطة لها ..

وهذا هو " **الضـابط السـننيّ** " ؛ متمثّلاً في ما **يختاره** الناس – سواء المؤمنون أم الكافرون – من **مواقف** مما **بلغهم** من رسـالة الله تعالى ؛ الطاعة والاتباع أم الإباء والاستكبار .. فمواقفهم تلك محكومة **بالخاصيات**[2] **وبالسنن** التي قدّرها الله تعالى لكل مخلوق في السماوات والأرض (الأمر القدري) .

1 - سنذكر نماذج من تلك السنن في النقطة التالية .

2 - " الخاصية " هي ما خص الله تعالى به كل مخلوق من صفات وطبائع تميّزه عن غيره . فخاصيّة الشيء هي : ما يُعطيه الشيء نفسه وينتج عنه . مثل خاصية الإبصار في العين ، والإحراق في النار .. وكون القمر منيراً ليس من خاصيّاته لأنه وإن أعطى القمر نوراً إلا أنه لا ينتج عنه بل ينتج من نور الشمس والقمر يعكسه . فالقمر فيه خاصية عكس الضوء. والإنارة من خاصيّات النجوم ، وشمسنا واحدة منها . هذا ، وكل خاصية في أي مخلوق جعل الله تعالى لها سنناً (قوانين) تضبطها من حيث المقدار والوصف . ومصداق ذلك قوله تعالى : <=

ومسؤولية الإنسان تكمن في اختياره لأيٍ من تلك الخصائص والسنن ، الهدى أم الضلال :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ..﴾ الإنسان

<u>ثالثاً</u> : **إن توالي الأحداث وتتابع المواقف وتطوّرها** ، بين الجماعة المسلمة ومن ثم الأمّة المسلمة في جهة .. والذين كفروا باختلاف أنواعهم ودرجاتهم – مشركين ، منافقين ، أهل كتاب – في الجهة الأخرى. **واستمرار تلقّي آيات الرسالة مرتلة** لمعالجة تلك المواقف والأحداث وتطوّرها .. من البداية حتى تحقيق الغاية .. نقول إن كلا الأمرين : توالي الأحداث ، وترتيل نزول الرسالة ، كانا في مسارين متوازيين :

- ✓ **ترقي** من يعبد الله تعالى – أفراداً وجماعة وأمّة – في أطوار العبودية لله حتى إكمال الدّين لله عزّ وجلّ.
- ✓ **تطوّر** مواقف الذين كفروا – مجتمعاً وجماعات – من رسالة الله وحَمَلتها .. من التكذيب والإستهزاء ، إلى إيذاء المؤمنين .. حتى الفصل بين الفريقن ؛ بنصر المؤمنين وإنزال العذاب على الكافرين .

- - -

4 – زيادة في البيان والفهم لضوابط " الترتيل " نلقي بعض الضوء على النقطتين التاليتين :

<u>**النقطة الأولى** : السنن الإلهية في السير لإكمال الدّين لله جلّ وعلا :</u>

فكما بـــيّن الله جل وعلا لنا في رسالته الخاتمة **أمره الشرعي** ممثلاً بشريعته وديـــنه ، إيماناً وعملاً صـــالحاً ودعوةً ، كذلك بـــــيّن لنا الكثير من **أمره القدريّ** ، متمثلاً **بالخواص** التي جعل الله الخلق عليها **وبالسنن** التي تضبطها وتحكمها ، <u>لا سيّما تلك المتعلقة بالواقع الإنساني وبتغيـــيره في أبعاده المختلفة</u> ؛ الاجتماعية والفكرية والسـياسـية وغيرها .. أمّة ومجتمعاً وأفراداً .. المؤمنين منهم والكافرين .. حيث وردت السنن مفصلة باستفاضـة وشمول ، وعلى طول الطريق لإكمال الدّين لله جلّ وعلا .. وتكاد لا تجد سورة في القرآن تخلو من ذكرٍ لتلك الســنن أو الإشـــارة إليها .. وهذه نماذج وأمثلة من آيات الله تعالى ، تبيّن بعض سنن الله في السير لإكمال الدّين لله جلّ وعلا :

{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا <u>تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ</u> (8) } الرعد . فنقصان الأرحام بعدم حملها أو زيادتها عند حملها .. هذا من فعل الله تعالى وخلقه ، فكل شيء خلقه الله تعالى ، خلقه بمقدار . يعني جعل له سنة (قانون) تضبط خواصّه بالمقدار الذي أراده الله العزيز العليم . كما في قوله تعالى :{ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) } يس . ويؤيده قوله تعالى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) } القمر . أي إن ما خلقنا عليه كل مخلوق من خصائص وصفات وقدرات .. جعلناه بمقدار . { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) } الفرقان . أنظر (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل : معاني القضاء ، القدر ، الكتابة) - عبدالرحمن حبنكة الميداني . وانظر بحث (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - (والقدر خيره وشره) .

- ﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ..﴿١١﴾ ﴾ الرعد
- ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ فصلت
- ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ العنكبوت
- ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء
- ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال
- .. إلخ

أمَا وقد اختار **الذين كفروا** رفض الدعوة إلى **عبادة الله** وحده وترك ما دونه من الأنداد ، **فكانت** مواقفهم آخذة **بالتصعيد** (الزيادة بالكفر) .. وذلك حسب سنن الله تعالى ومشيئته العامة .. وضمن محطات بارزة (أطوار) .. كما حصل في مرحلة " ما قبل التمكين " : من الشك وعدم التصديق بالحق الذي جاء به رسول الله ، إلى تكذيبه ومجادلته بالباطل ، إلى الإيذاء النفسي والبدني واستضعاف الذين آمنوا .. بل **وتصعيد** الموقف إلى درجة إخراجه والذين آمنوا معه من قريتهم ، أو حتى قتلهم :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال

﴿ وَإِذْ **يَمْكُرُ بِكَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنفال

وكذلك ما حصل في مرحلة " ما بعد التمكين " وتكوين الأمّة المسلمة ، حيث أخذ الكفار من مشركين ومنافقين وأهل كتاب ، على عاتقهم العمل على إطفاء نور الله تعالى من خلال محاولة القضاء على كيان الأمّة المسلمة بالقتال وحبك المؤامرات وإشعال الفتن ، وإثارة الشبهات الفكرية .. الخ :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة

﴿ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب

وفي المقابل ، فإن الموقف الذي **كُلّف به** (الأمر الشرعيّ) رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن اتبعه من المؤمنين ، أفراداً وأمّة ؛ كان – بشكل أساس – **الاستمرار** على **عبادة** الله ؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً إلى الله ، بثبات ويقين .. **ومعالجة** ما كان **يظهر ويستجد من مواقف** القوم بالآيات المبيّنات لبيان الحق وإحقاقه ولكشف الباطل وإزهاقه .. بجرأة ودون أن تأخذهم في الله لومة لائم (**الزيادة في الإيمان**) ، **والصبر** على ذلك كله . وبقوا هكذا ، حتى حكم الله جلّ وعلا بين أوليائه وبين أعدائه ، وأتمّ نوره وأظهر دينه على الدّين كلّه (إكمال الدّين لله تعالى) :

﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الأنعام

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ آل عمران

فكانت هنالك معالجات **للواقع الإنســـاني** (المناط) في مرحلة ما قبل التمكين للمؤمنين ، أي مرحلة الاستضعاف .. وهنالك معالجات **للواقع الإنســاني** (المناط) في مرحلة ما بعد التمكين ووجود السلطان والقوة للمؤمنين على بقعة من الأرض ، أي مرحلة وجود الأمّة .

وبما سبق بيانه في موضوع السنن الضابطة للسير بالرسالة ، يتضح أن **تتابع حدوث الأعمال وتنزيل المعالجات أثناء السير** بالرسالة ، كان بحسب ما يتخذه الناس من مواقف **من الحق ، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً** . وأن الذي يحكم ويضبط تتابع المواقف وتطوّرها في العلاقة بين أهل الإيمان وأهل الكفر هو ما جعله الله في الأمم والمجتمعات من " **خاصيات** " و " **سنن** " ضابطة لها (الأمر القدريّ) ، وحسب ما كان **يختاره** الأقوام من تلك السنن ، سنن الهداية أو سنن الضلال .. أي بناء على **اختياراتهم ومواقفهم** في مراحل السير المختلفة .. كان تنزيل **المعالجات اللازمة** ، كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس رضي الله عنهما :

(**ونزّله** جبريل **بجواب** كلام **العباد** وأعمالهم) [1] .

(فكان **المشركون إذا أحدثوا شيئاً** أحدث الله لهم **جواباً**) [2] .

النقطة الثانية : أسلوب صياغة بعض الآيات القرآنية .

حيث ورد الكثير من الآيات القرآنية في أسلوب صياغتها **دلالة** على أن **تتابع** حدوث الأعمال أثناء السير كان بحسب **الضوابط** الشرعية والسننيّة ، ممثلة بما كان يتخذه الناس من مواقف من **الحق** ، **وقد بلغهم بلاغاً مبيناً** ، فإمّا التصديق والاتباع (الزيادة في الإيمان) أو التكذيب والضلال (الزيادة في الكفر) .. ومن أبرزها :

❖ الآيات التي وردت في صياغتها **جُمل شرطية** لبيان المعالجات اللازمة – شرعاً وقدراً – للمواقف والأحداث (المناط) الحاصلة **فعلاً** أو التي **يمكن** أن تحصل ، بناءً على **اختيار** المخاطبين ، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، أتباعاً أم متبوعين ، أفراداً أو مجتمعاً أو أمّة .. وما يحصل فعلاً من مناط في فترته ومرحلته ، يتم معالجته بالمعالجات الخاصة به :

1 - أخرجه الطبراني والبزار .
2 - أخرجه ابن أبي حاتم .

﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) **فَإِنْ عَصَوْكَ** فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) ﴾ الشعراء

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) **فَمَنْ حَاجَّكَ** فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ** أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) **فَإِن تَوَلَّوْا** فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) **قُلْ** يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ **فَإِن تَوَلَّوْا** فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ آل عمران

.. إلخ

❖ وكذلك ، الآيات التي ورد في صياغتها الحرف " **لو** " في بيان المعالجات اللازمة – شرعاً وقدراً – للمواقف والأحداث (المناط) التي لم تحصل وكان الأولى أنها حصلت . أو الحرف " **لولا** " في بيان المعالجات اللازمة – شرعاً وقدراً – للمواقف والأحداث (المناط) التي حصلت وكان الأولى أن لا تحصل .. وكل ذلك بناءً على **اختيار** المخاطبين لأيٍ من سنن الله تعالى في الهداية أم في الضلال ، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، أفراداً أو مجتمعاً أو أمّة ، أتباعاً أو متبوعين :

﴿ **وَلَوْ** أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ **آمَنُوا وَاتَّقَوْا** لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ **وَلَٰكِن** كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ الأعراف

﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ** أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن **رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا** مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ المائدة

﴿ **فَلَوْلَا** كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ **فَنَفَعَهَا** إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ **لَمَّا آمَنُوا** كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ يونس

.. إلخ

❖ وأيضاً ، الآيات التي ورد في صياغتها فعل الترجي " **لعل** " في بيان المعالجات اللازمة – شرعاً وقدراً – للمواقف والأحداث (المناط) .. وأن تحقيق تلك المعالجات متوقف على **اختيار** المخاطبين ، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، أفراداً و مجتمعاً و أمّة ، أتباعاً و متبوعين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ **لَعَلَّهُمْ** يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ طه

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ **لَّعَلَّهُمْ** يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ **لَّعَلَّهُمْ** يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزمر

.. إلخ

ولذلك ، ما كان الله تبارك وتعالى **ليرفع** المؤمنين **درجة** في تمكينهم في الأرض وترقيهم في العبودية لله (الزيادة في الإيمان) ، أثناء سيرهم نحو إكمال دينهم لله .. إلا لأنهم **أهل** ذلك قدراً وشرعاً :

﴿ .. إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى **ٱلْمُؤْمِنِينَ** وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ **أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الفتح

﴿ ۞ **لَّقَدْ رَضِىَ** ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ **فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ الفتح

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ **ٱلْمُؤْمِنِينَ** عَلَىٰ مَآ **أَنتُمْ عَلَيْهِ** حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ آل عمران

.. إلخ

وكذلك الأمر بالنسبة للكافرين ، ما كان الله تبارك وتعالى لينزلهم **دركة** في الذل والخزي والعذاب إلا لأنهم **استحقوا** ذلك ، قدراً وشرعاً ، بسبب إصرارهم على كفرهم (الزيادة في الكفر) :

﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا **يُغَيِّرُ** مَا بِقَوْمٍ **حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟** مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ .. ﴿١١﴾ ﴾ الرعد

﴿ .. كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ **فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ **ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ** فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن

قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأحقاف

﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ﴾ النساء

.. إلخ

وبما سبق بيانه تتضح ، وبشكل جليّ ، حقيقة أن **تتابع حدوث الأعمال** (موالاة الأعمال) **أثناء سير** الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنون معه ، في حملهم الرسالة لإكمال الدّين لله جلّ وعلا ، كان بحسب الضوابط الشرعية والضوابط السننيّة ، ممثلة بما كان **يتخذه** الناس من مواقف من الحق ، **وقد بلغهم** بلاغاً مبيناً .

- - -

5 – **هذا ؛ وما حصل مع الرّسول الخاتم** – في عمومه – حصل مع أنبياء الله ورسله في حملهم رسالات الله جل وعلا .. كما بيّنه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم .

فالإنسان هو الإنسان ، والحق هو الحق ، والسنن هي السنن .. حيث كان الأمر الشرعيّ **الأصل** لرسل الله هو عبادة الله والدعوة إلى عبادة الله مع بيان المصير (خطاب النذارة) ، و**الاستمرار** على ذلك :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ .. ﴾ الكهف

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ النحل

ثم إزالة ما يطرحه أقوامهم من عقبات فكرية ومادية في طريق دخول الناس في دين الله وترك دين الطاغوت .. فإن استجاب الناس تحققت الغاية المرادة وانتهى الأمر . وإن رفضوا الحق وأصرّوا على ذلك حتى جعلوه موقفاً نهائياً لهم ، فما على الرسل وأتباعهم المؤمنين إلا **الاستقامة** على أمر الله و**الصبر** على ذلك ، حتى يحكم الله تعالى بينهم وبين أعداء الله ، فينصر الله المؤمنين ويظهر دينه ويهلك المكذبين المستكبرين [1] .

والآيات التالية من " سورة إبراهيم " تُبيّن – بإجمال وشمول – مسيرة رسل الله ، عليهم الصلاة والسلام، الذين بُعثوا للبشرية بالهدى ودين الحق بعد أن أُهبط الإنسان إلى الأرض وباشَر " الخلافة " فيها .. وصولاً

1 - أنظر السور التي ورد فيها قصص الأنبياء مثل سور هود ، يونس ، الأعراف ، الشعراء .. الخ . أنظر كذلك سورة المؤمنون ، الآيات (23-53) ومنها قوله تعالى : (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ{42} مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{43} ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ{44}) .

إلى خاتمهم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم . ومن أبرز ما تنطق به هذه الآيات البيّنات ؛ أن هنالك أموراً جامعة أو مشتركة بين رسل الله تعالى في طبيعة سيرهم بالرسالات .. بالرغم من اختلاف الزمان والمكان أو المستوى العمراني والحضاري .. للشعوب والأمم (القرى) المختلفة والمتنوعة التي بُعثوا إليها . وما سبب وجود هذا الأمر المشترك إلا **سنن الله** الجارية التي لا تتغيّر ولا تتبدّل والتي تحكم **خصائص** الواقع الإنساني بكل أبعاده ومناحيه المتنوعة .. أفراداً وجماعةً ومجتمعاً ، وبوصفه الإنساني وبغضّ النظر عن الزمان ومكان ..

ومن أبرز تلك الأمور المشتركة التي وردت في الآيات :

– أن قول جميع الرسل لأقوامهم كان قولاً واحداً ، وأن قول أقوامهم لهم كان قولاً واحداً كذلك ..

– وأن تسلسل الأحداث والمواقف – أي تتابعها وموالاة بعضها البعض – وتطور العلاقة بين رسل الله والمؤمنين في جهة ، والمجتمع (القرية) والملأ الذين كفروا في الجهة الأخرى .. كان في أربعة أطوار رئيسة ، من بداية السير حتى النهاية وتحقيق الغاية ، وقد جاءت تلك الأطوار الأربعة على النحو التالي :

أ– بدءً **بتشكك** القوم ورفضهم للحق الذي بلّغهم إيّاه رسولهم بلاغاً مبيناً : بأنه لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير (خطاب النذارة) .. **والتهوين** من شأن الحق وأهله ..

ب– إلى **التكذيب** وإثارة الشبهات ..

ج– ثم **الإيذاء** النفسي والبدني لرسولهم والمؤمنين معه ، وبدْء الصراع معهم .. إلى أن تطوّر الأمر حتى وصل الأمر إلى خيارين – أمام المؤمنين – لا ثالث لهما : إما العودة في ملة القوم ، أو التخلص النهائي منهم بالإخراج من القرية (المجتمع) ، أو القتل ..

د– وأخيراً ، التهيئة **للفصل** بين الفريقين الخصمين ، وقد ثبت كل منهما على موقفه في موضوع الخصومة؛ عبادة الله تبارك وتعالى وحده باتباع أمره وطاعة رسوله .. والانتظار حتى يفصل الله جلّ وعلا بينهما، فيُظهر الحق وأهله ويُزهق الباطل وأهله ..

وإليك قول الله سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم ، الآيات (9 – 16) :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ :

أ– **جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ** فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ **وَقَالُوٓاْ** إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

ب- ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ** أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ **قَالُوا** إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)

ج- **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ** إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ** لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ

د- **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ** لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) **وَاسْتَفْتَحُوا** وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾ إبراهيم

فهذا **ترتيب** عام لأحداث سير رسل الله تعالى برسالاتهم في أقوامهم ، أخبرنا به الله تعالى . وقد كان حسب الضوابط الشرعية والضوابط السننيّة – كما بيّنا في ما مضى – والمواقف سجال بين الرسل وأتباعهم وبين أقوامهم ؛ فعل ورد فعل ، بحيث :

أ- تلخصّ **الموقف الشرعيّ** للرسل عليهم السلام (الضابط الشرعي) ، كما في الآيات (قَالَتْ رُسُلُهُمْ ..) ، في ما يلي :

- القيام على عبادة الله تعالى ، ومبادأة أقوامهم بالدعوة إلى عبادته بالآيات البيّنات وبيان المصير :
  (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) .. ﴿ .. قُمْ فَأَنذِرْ (٢) .. ﴾ المدثر .. (خطاب الإنذار) .
- ثم **إزالة** ما يطرحه أقوامهم من عقبات وشبهات في طريق دخول الناس في دين الله وترك دين الطاغوت:
  (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .. ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ الفرقان .
- **والاستمرار** على ذلك **والصبر** عليه ، حتى يحكم الله تعالى بينهم وبين أعداء الله و يتمّ الله نوره ويظهر دينه ويعلي كلمته : (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ) .. ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾ هود

ب- وأما **الأقوام** ، فقد تدرّج موقفهم **مُتصعّداً** زيادةً في الكفر ، بالأطوار الأساسية الثلاثة الأولى (الضابط السننيّ) : من الشك والإهمال ، إلى التكذيب والإيذاء ، إلى الإخراج .. حتى يأتي الله تعالى بالنصر من عنده ..

هذا ، ومن الواضح أن هذا **التصعيد** (الزيادة في الكفر) في مواقف الأقوام يحصل **في حالة** اختاروا **الإصرار** على رفض الحق ، والسير في سنن الضلال :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ الجاثية

لكن ، في أي لحظة ، وفي أي طور من **أطوار السير** – وقبل نزول "عذاب الاستئصال" اختار المجتمع وملاؤه أن يستجيبوا ويُخلصوا دينهم لله تعالى والسير في سنن الهداية .. تتحقق الغاية المرادة وينتهي الأمر :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ..﴿٩٨﴾ ﴾ يونس

أي : لو أن كل قرية من القرى آمنوا قبل نزول "عذاب الاستئصال" بهم ، لنفعهم إيمانهم .. لكنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن رأوا العذاب ، فلم ينفعهم إيمانهم [(1)] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف

أي : وما أرسلنا في قرية من نبي فكذَّبه أهلها إلاَّ أخذناهم بالفقر والجوع (عذاب التأديب) كي يخضعوا لِلَّهِ تَعَالَى ..

ثمَّ بدلنا مكان الشدةِ الرخاءَ ، حتى كثروا وسمنوا وكثرت أموالهم .. وقالوا كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره : قد أصاب آباءنا في الدَّهر مثل ما أصابنا ، وتلك عادة الدَّهر ولم يكن ما مسَّنا عقوبة من الله .. فلمَّا فسدوا على الأمرين جميعاً – الشدة والرخاء – أخذهم الله فجأةً من حيث لا يدرون (عذاب الاستئصال) ..

ولو أنَّ أهل تلك القرى – الذين كَذَّبوا وأُهلكوا – آمنوا بالله وحده واتقوا الشِّرك والمعاصي ، لوسّع الله عليهم الخير ويسّره لهم من كل جانب .. ولكن كذبوا الرسلَ فعاقبهم بالهلاك بسوء كسبهم ..

---

1 - أنظر تفسير الطبري ، ابن كثير .

والمقصود : إعلام النبيّ صلّى الله عليه وسلم بسنّة الله في المكذّبين ، وتهديد قريش بِعَذَابِ الاستئصال [1].

.. الخ

هذا ، وقد ذكر الله تعالى لنا أمثلة من الفريق المقابل ، من الذين دُعوا إلى الحق فآمنوا به واتبعوه قبل أن يصل الأمر بهم إلى إنزال العذاب المدمّر (الاستئصال) ، وحثّ الناس – حتى قيام الساعة – على الاقتداء بهم ، ومنهم : قوم يونس عليه السلام (سورة يونس) ، وملكة سبأ وقومها (سورة النمل) ، وامرأة فرعون (سورة التحريم).. وحتى النفر من الجن (سورة الجن) .. وغيرهم . وكذلك سحرة فرعون وقد آمنوا لمّا رأوا الآيات البيّنات ، فآثروا الموت في سبيل الله على الهلاك مع فرعون والخلود في عذاب الله الأليم (سورة طه) :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ **فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ** إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ **لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ** عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ يونس

فما أنزل الله سبحانه وتعالى الرسالات ، وما أرسل الرسل كافة ، عليهم الصلاة والسلام ، إلا رحمة للناس وهداية لهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ **إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ** وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ النساء

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف

.. إلخ

ومن هنا ، ففي أي طور من أطوار العلاقة بين أهل الإيمان وأهل الكفر أثناء السير لإكمال الدّين لله ؛ إذا آمنت القرية (المجتمع) وتحوّلت إلى أمّة تُخلص الدّين لله جلّ ذكره .. تحققت الغاية المرادة وانتهى الأمر .

وعليه ، فإن وصول الأمر بين المؤمنين والكافرين إلى أقصاه – حسب سنن الله تعالى في الدعوات – وهو إخراج المؤمنين وإنزال العذاب على الكافرين **ليس حتمياً** أن يقع دائماً ، في كل زمان مكان ..

1 - بالنسبة لقريش ،انطبقت هذه السنة عليهم كما ورد في سورة الدخان (9 - 16) ، ويبينها ما صح عن عبد الله بن مسعود عند البخاري 4821 ، ومسلم 2798 . أنظر تفسير الطبري والجلالين، زاد المسير، تفسير الرازي . وتفصيل ذلك سيكون في الجزء الرابع (التبيان لسور القرآن) ، بإذن الله .

فالأمر منوط ، ابتداءً ، بمشيئة الله سبحانه وتعالى متمثلة **بالخاصيات والسنن** التي تضبط سير الوجود كله، ومنه المجتمع الإنساني .. ثم **باختيارات** القوم لمواقفهم .

فهناك **السنن** التي قدّرها الله العزيز العليم لضبط **الخاصيات** التي جعلها لكل مخلوق في وجوده وسيره ليحقق مراد الله منه . وهناك **اختيارات** الناس لأيٍ من تلك **السّنن** للسير بحسبها في حياتهم ومواقفهم . فالخاصيات والسنن ، عامة وثابتة لا تتغير . فهي متعلقة بتقدير الله تعالى لخلقه وتنظيمه نظاماً دقيقاً :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ القمر

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى

أما ما يحصل **فعلاً وواقعاً** في حياة الناس فهو نتيجة **اختياراتهم** لأيٍ من تلك الخاصيات والسنن في **مواقفهم** من الحق **وحركتهم** في الحياة :

﴿ ..إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ الرعد

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم

هذا ، **وأغلب الرسل** الذين قصّ الله لنا من أخبارهم حصل معهم هذا الأمر ، أي التكذيب ثم الإخراج من القرية ، ومنهم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم :

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأعراف

- - -

6 – **ومجمل القول** في بيان ضوابط ترتيل نزول الآيات :

إنه عندما **بدأ** رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، السير الفعلي في حمل الرسالة لتحقيق الغاية منها ، كان **الأمر الشرعيّ** له بداية : أن يعبد الله جل وعلا ، وأن يدعو الناس إلى عبادته وحده ليدخلوا في دينه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ المدثر

مخاطباً لهم بالآيات البيّنات خطاب إنذار (قُمْ فَأَنذِرْ) ، ومبيّناً لهم ما فيها من الحق : أنه لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير .. بأقصى جهد في البيان والتوضيح لمراد الله تعالى .. وبأعلى درجة من الرحمة بالمخاطبين ، والحرص على هدايتهم :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ الكهف

عندها أصبحت القرية (قريش) أمام خيارين اثنين في موقفهم من الحق الذي دُعوا إليه – عبادة الله تعالى وحده ، والمصير الذي سيواجهونه – وقد بلغهم بلاغاً مبيناً :

– إما أن **يختاروا** إجابة دعوة الله عزّ وجلّ واتباع رسوله ، **والزيادة** في الإيمان حتى **إكمال** الدّين لله ، حينئذٍ تتحقق الغاية المرادة وينتهي الأمر ، فيفوزوا بخيري الدنيا والآخرة ، وينجوا من العذاب .. كما حصل مع قوم يونس عليه السلام وغيرهم ، وقد ضربهم الله تعالى مثلاً وحثّ الناس على الاقتداء بهم.

– وإما أن **يختاروا** اتباع الطاغوت (الملأ ، ودين الآباء ..)، **وتصعيد** موقفهم (الزيادة في الكفر) ، فيخسروا خسراناً مبيناً ، في الدنيا والآخرة – والعياذ بالله جلّ وعلا – :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ التوبة

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ الإسراء

أما وقد **اختاروا** الثانية ، عندها ، تطوّرت الأحداث حسب سنن الله تعالى في الرسالات والأمم والمجتمعات :

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ فصلت

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزخرف

.. إلخ

فكان ، حينئذٍ ، **الموقف الشرعيّ** الأساس للرسول والمؤمنين من المجتمع وملائه هو : **تنزيل المعالجات** من الوحي ، على ما كان يستَجدّ من وقائع وأحداث ومواقف ، وما يُثار من شبهات (المناط) .. لإظهار الحق وإزهاق الباطل :

﴿ **وَلَا يَأۡتُونَكَ** بِمَثَلٍ إِلَّا **جِئۡنَٰكَ** بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

(فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً **أحدث الله لهم جواباً**) [1] .

(ونزّله جبريل **بجواب** كلام العباد وأعمالهم) [2] .

دون أي كتمان للحق .. وأن لا تأخذهم في الله لومة لائم :

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الأعراف

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ المائدة

أما وقد **أصرّ المجتمع وملاؤه** على **تصعيد** موقفهم إلى منتهاه ، حسب سنن الله تعالى ، أي الإخراج، فقد استحقوا العذاب حينئذٍ .. فكان الموقف المطلوب من النبي الكريم ومن اتبعه من المؤمنين هو الاستمرار في الترقي في العبودية لله جلّ وعلا ، وذلك من خلال :

- ✓ **تنزيل المعالجات** من الوحي ، على ما كان يستَجدّ من وقائع وأحداث ومواقف ..
- ✓ **والاستقامة** على أمر الله تعالى ، **إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً** ..
- ✓ **والصبر** على ذلك كله ..

﴿ **وَٱتَّبِعۡ** مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ **وَٱصۡبِرۡ** حَتَّىٰ **يَحۡكُمَ** ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس

حتى يحين الوقت ليأمر الله تعالى رسوله ومن اتبعه من المؤمنين بالخروج والانفصال عن القوم الكافرين (الهجرة) ، تهيئةً وتوطئةً لحكمه – جلّ وعلا – النهائي ، بتمكين أوليائه في الأرض وإهلاك أعدائه بأيدي أوليائه ، كما هي سنته جل وعلا . وقد تحقق ذلك يوم **الفرقان** ، يوم معركة بدر :

---

1 - أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

2 - رواه الطبراني والبزار عن ابن عباس .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنفال

مع **التأكيد** على حقيقة أن الحرص على هداية الناس ، والرحمة بهم لإنقاذهم من النار.. هي الغاية المرادة في كل مرة كانت تُحمل فيها الدعوة إلى الناس ، وفي كل موقف ، وفي أي طور من أطوار السير .. فليس هناك إلا الحرص على أن يختار الناس الهدى وأن يخرجوا من الظلمات إلى النور .. ففي أي لحظة اختاروا الهدى ، فالإسلام يجُبّ ما قبله .. ومن ثم ، فعليهم أن يستمروا في عبادة الله عزّ وجلّ حتى **يكملوا** الدّين لله [1]..

أما وقد أبوا إلا الكفر وتصعيد موقفهم إلى منتهاه ، حينئذٍ فقد خسروا أنفسهم واستحقوا العذاب .. فيأتي الحكم والفصل من الله تبارك وتعالى ، بين أوليائه وأعدائه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ التوبة

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ الحشر

والحمد لله رب العالمين ..

# # #

[1] - كما في وصية رسول الله لعلي رضي الله عنه في غزوة خيبر قبل قتال يهود ، أن يدعوهم إلى الإسلام وما يجب عليهم في حق الله ، فقال له : (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النّعم) صحيح مسلم -4/1872.
أنظر (السيرة النبوية الصحيحة) د أكرم ضياء العمري - فتح خيبر .

د – و في ما يلي تلخيص لما ورد ذكره في هذا القسم من البحث :

1– إن تلقي آيات القرآن الكريم لم يكن إلا **ترتيلاً** ، فـ " **الترتيل** " هو الكيفية التي أرادها الله تعالى لتنزيل الرسالة الخاتمة على قلب رسوله الكريم من أجل تحقيق الغاية منها .

2– و " ترتيل " آيات القرآن ، يعني بالضرورة الشرعيّة " **ترتيل السُّنة** " قولاً وفعلاً وإقراراً ، بوصفها بياناً للقرآن . فالرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بوصفه رسولاً من الله جلّ وعلا ، مأمور **بتبليغ** و **بيان** الذي " نُزّل " إليه من الرسالة ، أولاً بأول :

﴿ .. وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل

فترتيل نزول القرآن ، في الحقيقة ، هو ترتيل نزول الدّين (العبودية) .

3– إن المُراد (الغاية) من " الترتيل " في تنزيل الآيات هو تلقي القرآن (الدّين أو العبادة) بمنهج محدد ، من حيث العلم والعمل به ومن حيث الحركة به ، خطوة بعد خطوة لجعله حقيقة في الواقع الإنساني حتى إكمال الدّين (العبودية) لله تبارك وتعالى ، فالترتيل في تنزيل الآيات إنما هو " ترتيل من أجل التلقي " : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ النمل

4 – وبتلقي القرآن " مُرتّلاً " كان **بيان** الطريق و خطوات السير ، وكان **التثبيت** على الطريق ، وكان **إزالة** العقبات عن الطريق .. لتحقيق الغاية المُرادة من الرسالة :

﴿ <u>هُوَ ٱلَّذِى **يُنَزِّلُ** عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ **لِّيُخْرِجَكُم** مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ</u> ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد

فتنزيل <u>آيات الرسالة</u> **مرتلة** ، فيه بيان لكيفية تحقيق الغاية من الرسالة ، تماماً كما أن نصّ آيات الرسالة فيها بياناً لتلك الكيفية :

﴿ .. <u>وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ **تِبْيَٰنًا** لِّكُلِّ شَىْءٍ</u> وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل

5– إن " ترتيل نزول آيات الرسالة " ، وتسلسل (موالاة) الأعمال حتى إكمال الدّين لله جل وعلا، كان لهما نوعين اثنين من **الضوابط** ، كما بيّنته النصوص :

<u>الأول</u> : <u>ضابط سُنَنيّ</u> .. (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ) .. { فكان المشركون <u>إذا **أحدثوا** شيئاً</u> .. } ..

أي : سنن الله تعالى القدرية في الرسالات والقرى والمجتمعات (الأمر القدري) ، ومنها سنن الهداية وسنن الضلال .. وحسب **اختيارات** القوم (القرية) لأيٍ من تلك السنن للسير بحسبها في مواقفهم وردود أفعالهم من الرسالة والرسول والمؤمنين ..

الثاني : ضابط شرعيّ .. (إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) .. { **أحدث** الله لهم **جواباً** }.. { ونزّله جبريل **بجواب** كلام العباد وأعمالهم } .. أي شريعة الله وسنته الشرعية (الأمر الشرعي) ..

ومن ذلك قاعدتان : الأولى ؛ " البيان عند وجوبه " . والأخرى ؛ " التكليف حسب الوسع " . بمعنى أنه لا يُنزّل من الدّين إلا ما يلزم – قدراً وشرعاً – أن يُنزّل ، وهو ما يلزم **لمعالجة واقع** (مناط) **حاصل** ، وفي **الاستطاعة** تطبيق تلك المعالجة وإنفاذها حال نزولها .. **إعداداً** وتهيئة لما سيُنزّل بعده .. وهكذا حتى إكمال الدّين لله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء

كما في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، الثابت :

{**اسكتوا عني ما سكت عنكم** ، فإنما هلك من هلك ممن كان قبلكم **بكثرة سؤالهم** ، واختلافهم على أنبيائهم}.

6– إن ما حصل مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في زمانه وواقعه الإنساني ، من حيث " **الترتيب (الترتيل) التفصيلي** لتنزيل الآيات " ، ومن حيث " **الترتيب التفصيلي** للأعمال " ؛ أي موالاة بعضها لبعض .. لم يحصلا كما حصلا مع الأنبياء والرسل السابقين ، عليهم السلام . وكذلك ، ليس شرطاً أن يحصلا مع المسلمين في كل زمان ومكان ، كما حصلا مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في زمانه وواقعه الإنساني ، فهما متوقّفان على طبيعة تفاصيل حياة الناس في المجتمع المعيّن ، ومن ثم على ردود أفعالهم ومواقفهم من الحق ، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً

والحمد لله رب العالمين ..

والآن إلى **القسم الثاني** من البحث في " **المنهج** " ..

القسم الثاني

بيان كيفية التأسي في رسول الله ، بما سبق بيانه من واقع تلقيه الرسالة وسيره بها ، بقصد تحقيق الغاية منها .

أ – تمهيد :

1 – كما هو **معلوم** فإن **المسلمين** ، أفراداً وأمّة ، **مكلّفون** بتحقيق الغاية من الرسالة (إكمال الدّين لله) **دائماً** ، حتى قيام الساعة . فرسول الله محمد – صلى الله عليه وآله وسلّم – هو الرسول الخاتم للأنبياء والرسل ، وأمته هي الأمّة الخاتمة للأمم حَمَلة الرسالات ، فهي وحدها المسؤولة عن الرسالة الخاتمة ؛ تطبيقاً وحملاً للعالمين ، وإلا كانت في خسران مبين :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ **لَفِي خُسْرٍ** ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر

﴿ .. وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ محمد

ومعلوم أيضاً، أن المسلمين مكلّفون بالاقتداء بالرّسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلّم في كيفية عبوديتهم لله تعالى، وحملهم الرسالة والسير بها لتحقيق الغاية منها والمحافظة عليها، بوصفهم أتباعاً له :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي : أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ **أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف

2 – وقد تبيّن معنا – في ما سبق من البحث – كون أن رسالة الله تعالى **هدى** للناس ، يأتي من أمرين :

– من **نصّ الآيات البيّنات** ، وما فيها من دلالة على الأعمال (المعالجات) ؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة.

– من **ترتيل الآيات** ، أي تلقيها مفرّقة ، كماً وكيفاً ، وحسب الضوابط الشرعية والسننيّة ليكون السير ؛ علماً وعملاً ، بحسبها :

﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ **تِبْيَانًا** لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل

﴿ هُوَ الَّذِي **يُنَزِّلُ** عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ **لِّيُخْرِجَكُم** مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد

فتنزيل **الآيات البيّنات** على قلب رسول الله **مرتّلة** ، أي مفرقة وحسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة .. كان من أجل البيان الواضح (التبيان) لكيفية إكمال العبودية لله .. أي هداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .. (تحقيق الغاية من الرسالة) .

وعليه ؛ فالأصل في **فهم** كيف يُقتدى بالرسول في تلقي القرآن والسير به حسب " المنهاج " ، أن يُنظر إلى الأمر من جانبين اثنين :

الأول : من حيث **ترتيل تلقي** الآيات ، وما يعقبه من **ترتيب** للأعمال (المعالجات) .

الثاني : من حيث **الأعمال (المعالجات)** نفسها ، وكيفية تنفيذها .

# # #

ب – كيفية التأسي في رسول الله **بتلقي الرسالة والسير بها لتحقيق الغاية منها :**

الجانب الأول : من حيث " الترتيل " في تلقي الآيات و " ترتيب " الأعمال .

نذكّر بأن **الترتيل** في الحقيقة : هو تنسيق وتنظيم للمفرّق بشكل حسن ليحقق الغاية المرادة ..

وعند النظر في **ترتيل الآيات القرآنية** ، نجد أن الله سبحانه وتعالى قد **جعل** لآيات الرسالة **ترتيلين** اثنين لا غير ، كما أشرنا :

1 – " ترتيل التلقي الأول " ، وحدث في زمن الرّسول الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حيث كان التلقي للآيات **مفرقاً** على مكث مقصود بحسب الضوابط الشرعية والسننية ، بقصد تحقيق غاية الرسالة .

2 – " الترتيل حسـب التسـوير " ، و به جعل الله القرآن **جملة** واحدة ، حيث أُمر رسـول الله بجعل كل **مجموعة محددة** من الآيات في **سـورة معينة** ، وبترتيب **مقصـود** فيها ، و**بغض النظر** عن " **ترتيل التلقي** الأول " ..

ف " التسوير " ترتيلٌ لآيات القرآن ، أي تأليف وتنضيد وتنسيق مقصود لها .

ولا بد من فهم واقع كلا الترتيلين ، ثُمّ بيان الموقف الشرعيّ من كلٍ منهما ، حتى نعلم كيف يكون التأسي في الرسول الكريم ، صلى الله عليه وآله وسلّم ، من حيث " ترتيل تلقي الآيات " ، ثُمّ " ترتيب الأعمال " بقصد تحقيق الغاية من الرسالة :

أولا : " **ترتيل التلقي الأول** " لآي الرسالة الخاتمة ؛ بيان حقيقته ، والموقف الشرعي منه .

- عند النظر في " **ترتيل** التلقي الأول " زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم ، وقد بيّنا طبيعته وضوابطه في القسم السابق ، نجد ما يلي :

✓ أنه حصل عملياً على شكل **ترتيب تفصيلي** معين ، وهو ما كان بحسب **تتابع** وموالاة مواقف الناس – المؤمنين والكافرين – مما بلغهم من الرسالة ، كما بـــيّنا في القسم الأول ، سواء في سياق ترقي الذين آمنوا في عبوديتهم لله وحتى الإكمال ، أم في ســـياق تطور مواقف الذين كفروا ، بأنواعهم المختلفة .

✓ أن " **ترتيل التلقي الأول** " للآيات ، هو نفسه ترتيل (ترتيب) تـــنزيل المعالجات والأحكام ، خطاباً وأعمالاً .. والذي كان متلازماً ومتزامناً مع " **ترتيب الأعمال** " وتتابعها أثناء الســير بالرســالة .. من نزول ﴿ .. قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ .. ﴾ المدثر ، وقيام الرسول الكريم بـ " الإنذار " وحتى تحقيق الغاية ..

ومن ثَمّ ، فإن ما يُقال في " **ترتيل التلقي الأول** " والحكم عليه ، ينطبق تماماً على " **ترتيب** (موالاة) **الأعمال** " أثناء السير بالرسالة .

✓ وبما أن كلاً من " **ترتيل** التلقي الأول " و " **ترتيب** الأعمال " أثناء السير كانا بحسب **سنن الله** تعالى ، وبحسب **اختيارات** الناس لأيٍ من تلك السنن .. فهما من **فعل الله** جلّ وعلا وحسب أمره القدريّ في الوجود ، أي حسب ما قدّر الله تعالى فيه من خاصيات وسّنن ضابطة لها .. فهُما من شأن الله عزّ وجلّ وحده ولا يستطيعهما أحد من خلقه .

✓ ومن هنا ، **فالترتيب التفصيلي** لكلٍ من " التلقي الأول " و " الأعمال أثناء السير " لا يمكن أن يكون **من أمر الله الشرعيّ** ، أي من العبادة .. إنما كان **الشكل العملي** لـ " التلقي المرتل للآيات " والمناسب للواقع الإنساني زمن الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وحسب الضوابط الشرعية والسننيّة الثابتة أثناء سيره لتحقيق الغاية من الرسالة .

- **والنتيجة السابقة ، تؤيدها الحقائق التالية** :

1 – أنه لا يوجد نص من الوحي – قرآناً أو سنةً – فيه **تكليف** للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **بتلقي** آيات القرآن الكريم حسب **ترتيب معيّن والسير بها** بحسب **ذلك الترتيب** .. فهذا أمر لا يستطيعه الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بل هو مستحيل في حقه ، فلا يُكلّف به ، وذلك :

– لأنّ الله تعالى **لم** يُنزّل **آيات** القرآن **جملة واحدة** على قلب الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حتى **يُكلّفه بترتيبها** ترتيباً معيناً ، ابتداءاً ، ثُم يأمره بأخْذها وتلقيها **بحسب** ذلك الترتيب .

– لأنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **لا يعلم الغيب** حتى يعلم كيف سيكون **ترتيب** حدوث الوقائع والأحداث **بالتفصيل** ، ولا كيف سيكون الترتيل **المفصّل** لتلقي آيات القرآن الكريم **لمعالجة** تلك الأحداث:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ الأعراف

فالرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لا **يعلم** الغيب ، بل **يُخبِر** بالغيب بما أطلعه الله تعالى .

– وأنّ الله عزّ وجلّ **لم يكن ليُطْلع** الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أو مَن هو دونه ، على الغيب بهذا **الشكل المفصّل** ، فذلك ليس من سنة الله تعالى في هذا الأمر :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ ﴾ آل عمران

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩ ﴾ الأحقاف

فلم يحصل أن كَلّف (تَعبّد) الله سبحانه وتعالى الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **بترتيب آيات القرآن الكريم** – ابتداءً قبل السير – حسب ترتيب (ترتيل) **معيّن** ، حتى **يُكلّفه** أو يتعبّده بتلقي **الآيات** وأخْذها و**السير بها** بحسب ذلك الترتيب .

2 – أنه لم ترد لاحقاً – أثناء السير أو بعد انتهائه – نصوص من الوحي فيها تكليف **بحفظ** " **ترتيل** التلقي الأول " أو حفظ " **ترتيب** الأعمال " أثناء السير كما حصل من البداية حتى تحقيق الغاية ، لا إجمالاً ولا تفصيلاً .. **فلم يثبت** عن الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه بالنسبة لهذين الترتيبين **أنه أمَر** بحفظهما ونقلهما ، أو **نهى** عن عدم معرفتهما ، فهما ليسا من الأمور التي **طلب** الشّرع العلم بها أو **نهى** عن الجهل بها .. ((فالروايات التي جاءت في هذا المجال – ترتيب نزول آيات القرآن – لم ترد إلا عن الصحابة الذين شاهدوا مكان الوحي وعرفوا زمانه ، أو التابعين الذين سمعوا وصف ذلك وتفصيله من الصحابة . أما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يرد عنه شيء من هذا القبيل ، لأنه عليه السلام ، كما يقول القاضي أبو بكر الباقلاّني في " الانتصار" : { لم يُؤمَر به ، ولم يجعل الله علْم ذلك من فرائض الأمّة })) [(1)].

وهذا بخلاف الموقف من **ترتيب** (موالاة) **أعمال** بعض العبادات الأخرى ، كالصلاة والحج ، مثلاً :

1 - (مباحث في علوم القرآن) - صبحي الصالح .

✓ فقد جاءت نصوص متعلقة بترتيب الأعمال، وقد **عيّنته وحدّدته** أنه من البيان **لخطاب سابق**، وهو وجوب الصلاة ووجوب الحج، في مثل قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: { **صلّوا كما رأيتموني أصلي** } [1]

وقد صلى الرسول – على مرأى المسلمين – حيث قام بأفعال مخصوصة على هيئات مخصوصة **وبترتيب** معين .

وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حجة الوداع : { **ولتأخذوا عني مناسككم** } [2] ، وقد قام الرسول بأفعال مخصوصة في زمان ومكان مخصوصين **وبترتيب** معين .

✓ وقد **حُفظ ترتيب** أعمال الصلاة **وترتيب** أعمال الحج **بالتفصيل** ، ونحن **متعبَّدون** بهما .

وهذا أمر لم يحصل بالنسبة لـ " **ترتيل** التلقي الأول " و " **ترتيب** الأعمال " أثناء السير .

3 – أن كلاً من " **ترتيل** التلقي الأول " و " **ترتيب** الأعمال " ، **لم يُحفظا** بتمامها وتفصيلهما كما حصلا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم أثناء السير من البداية حتى تحقُق الغاية .. و**عدم حفظهما دليل قطعي** على أنهما **ليسا مما تعبَّدنا الله** جلّ وعلا به وإلاّ **حُفظا مع الوحي** .. فلا يمكن فقدان شيء مما تعبّدنا الله جلّ وعلا به من الدّين ، فهو محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى ، حيث تكفّل الله **بنفسه** سبحانه ، حفْظ القرآن الكريم – آياته وسوره – بوصفه **ذكْراً** وتذكرة :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ الحجر

والقرآن لا يكون ذكراً وفيه العبرة والتذكرة إلا ببيانه ، مما يقتضي حفظ ذلك البيان كما حُفظ القرآن نفسه ، سواء فيما يتعلق بالفكر أم بالعمل ؛ مثل أعمال الصلاة وأعمال الحج وترتيبهما [3].

فعدم حفظ " **ترتيل** التلقي الأول " لآيات الرسالة ، و " **ترتيب** الأعمال " في سير الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لتحقيقه غاية الرسالة ، **دليل قطعي** على أن ذينك الترتيبين **ليسا من** " **البيان** " **الذي تعبدنا الله** جلّ وعلا به ، وإلاّ **حُفظا مع الوحي** ..

4 – أن ما **فُقد** من " **ترتيل** التلقي الأول " و " **ترتيب** الأعمال " ، فهو من أحد حالين :

✓ إما أنه **لم تصلنا** عنه أخبار ، فيكون قد **فُقد واندَرَس** ، ولم يعد بالإمكان العلم به بالتفصيل الذي حصل مع الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ..

1 - البخاري .

2 - صحيح الجامع الصغير .

3 - ((إنما قال " الذكر" عِوض " القرآن " ، ليدل على أن الحفظ متعلق بالمعنى واللفظ معاً)) مقدمة كتاب (نظام القرآن) - الفراهي الهندي .

✓ وإما أنه **وصلتنا** عنه أخبار ، ولكن لم **تثبت** نسبتها إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أي لم يثبت كونها من الوحي ..

وفي كلا الحالين ، لا يُمكن أن نُكلّف بهما .

وكذلك الأمر، مع الجزء الذي **وصلنا** وثبتت نسبته إلى رسول الله ، أي الجزء الذي **حُفظ** من " **ترتيل التلقي** الأول " للآيات ومن " **ترتيب الأعمال** " .. سواء الذي دلّت عليه الروايات **الثابتة** من السنة والسيرة منطوقاً أو مفهوماً ، أم ما أمكن الوصول إليه بدراسة آيات القرآن المجيد وسوره وتدبرها .. فالقول فيه **ليس مختلفاً** ، فالحكم السابق على " **ترتيب الأعمال** " أنه لم يكن **من أمر الله الشرعيّ** ، كان حكماً عليه **ككلّ** بوصفه ترتيباً للأعمال كما حصل مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أثناء سيره بالرسالة ، من البداية حتى تحقيق الغاية ، وبغض النظر عن كونه محفوظاً أم غير محفوظ . **فالبعض** الذي حُفظ من **ترتيب** الأعمال أثناء السير يأخذ حكم **الكلّ** ، فيُقال فيه ما قيل فيه : من أنه لم يكن **من أمر الله الشرعيّ** ، أي ليس من العبادة ، إنما هو من أمر الله القدريّ .. فهو من **شأن الله عزّ وجلّ وحده** ، ولا يستطيعه أحد من الخلق . فلم يكلِّف الله تعالى به أحداً .. لهذا نجد أنه كما **لم ترد** أدلة شرعية متعلّقة **بالتكليف بحفظ** " **ترتيل** التلقي الأول " أو " **ترتيب** الأعمال " بكماله وتمامه ، نجد كذلك أنه **لم ترد** أدلة شرعية تدل على أن الله تعالى تعبّدنا بما **حُفظ** من **ترتيب** الأعمال أو جعَله **بياناً** لخطاب سابق .

5 – إن **واقعَ مَهمّة** الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **وتحديد مسؤولياته** ، كما وردا في القرآن الكريم ، **دليل آخر** على أن **تتابع حدوث الأعمال** أثناء السير لا يمكن أن يكون تكليفاً شرعياً ، بل كان بحسب سنن الله تعالى وبما اتخذه الناس من **مواقف** من الحق ، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً .. حيث أن مَهمّة الرسول الأولى والأساس – بوصفه رسولاً – هي البلاغ والبيان ، وهو **غير مسؤول** عن مواقف الناس من الحق ، ولا عن تتابع حدوثها .. وقد بَلَّغهم إيّاه بيّناً واضحاً لا لبس فيه :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ النور

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا **وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** ﴿١١٩﴾ ﴾ البقرة

فهو غير مسؤول عن **هدايتهم** ؛ بمعنى **توفيقهم لاتباع للحق** :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴿٢٧٢﴾ ﴾ البقرة

إنما مسؤوليته محصورة في **هدايتهم** ؛ بمعنى **دلالتهم على الحق** بشكل بيّن لا لبس فيه (البلاغ والبيان):

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى

فتوفيق الناس لاتباع الحق ، من شأن الله تعالى وحده ، فهو الذي **خلق** الهداية **وقدّر لها سننها** ، والتي **يجب** على **مَنْ أراد** الهداية من الناس ، أن يعلمها وأن يتبعها ، وإلا **لن** يهتدي أبداً :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التكوير [1]

ومواقف الناس من الحق – وقد بلغهم بيّناً واضحاً – تكون نتيجةً لما **اختاره** الناس أنفسُهم للسير عليه من **سنن** الله تعالى التي خلقها وقدرها للهدى والضلال ، فإن اختاروا سنن الهداية وسلكوا سبيلها اهتدوا، وإن اختاروا سنن الضلال وسلكوا سبيله ، ضلوا :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ الأعراف

ولما كان اختيار الناس للهدى أو للضلال ، بإرادتهم و بقدرتهم هم أنفسهم ، فهم وحدهم يتحمّلون **مسؤولية** وعاقبة اختيارهم ، بعد البلاغ والبيان :

---

1 - { **وَمَا** تَشَاءُونَ **إِلَّا** أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } التكوير . عام في كل ما يشاؤه الإنسان ويريده ؛ ابتداء من تحريك إحدى أصابعه ، حتى الصعود إلى الفضاء . فلا يمكن أن تنفذ إرادة الإنسان في الواقع (تحقيق ما يريد) إلا حسب ما قدّره الله تعالى في الأشياء والموجودات وفي نفس الإنسان، من طبائع وخصائص وسنن حاكمة لها (والتي تمثّل مشيئة الله فيها) . وقديماً قالت العرب حكمة : (إنك لا تجني من الشوك العنب) . فمن أراد أن يجني عنباً عليه أن يزرع الشجرة التي من شأنها أن تثمر عنباً ، وأن يرعاها حسب حاجاتها والظروف العامة المحيطة بها .. يعني حسب ما قدّر الله جلّ وعلا في الأشياء والموجودات من طبائع وسنن . فهذه هي مشيئة الله جلّ وعلا . فالإنسان مخلوق لله محكوم لأمر الله القدري ، أي محكوم للخصائص والسنن التي جعلها الله فيه وجعله عليها . وكما هي كل المخلوقات ، فلا يمكن لأي كائن الخروج عن ما قدّر الله فيه من خصائص وسنن ضابطة لها ، بأي حال من الأحوال فهو مقهور بها ومقهور عليها . إلّا أن الله تعالى ميّز الإنسان بالعقل والإدراك ، وأعطاه القدرة على التصرف بالموجودات .. والتي هي من أهم خصائصه الإنسانية ومقومات كونه خليفة في الأرض .. فجعله الله قادراً على مغالبة أقدار الله بأقدار الله . فيستطيع أن يغالب قدر الله في الظلمة والعتمة ، بما قدّره الله في النور من خصائص وسنن . فعندما يضيء الإنسان شمعة يقهر الظلام . وهكذا الداء والدواء.. والحر والبرد..الخ . فيستطيع الإنسان أن ينتفع بالموجودات ويسخّرها لما يريد ، لكنّه محكوم لطبائعها وسننها ، أي مشيئة الله فيها . فالله عزّ وجل هو وحده القادر على كل شيء، والفعّال لما يريد .. أما الإنسان فإرادته وفاعليّته محكومة لقدر الله ومشيئته . فأقصى ما يستطيعه الإنسان هو أن يختار بين البدائل المتاحة أمامه من السنن والخاصيات ، فيُغالب قدَراً لله بقدَرٍ آخر . وهذه منزلة وجودية راقية خصّه الله تعالى بها ، وهي سبب ارتقائه . ذلك أن الإنسان كلما زاد علمه بطبائع الأشياء وإدراكه لسننها الحاكمة لها (يعني مشيئة الله فيها ، وتقديره لها) كلما زادت فاعليّته في الوجود ، وارتفع مستوى إنتفاعه بالموجودات. وما شهدته الإنسانية عبر القرون من التقدّم في العلوم التطبيقية والأمور التقنية ، وما تشهده الآن خير دليل على ذلك . أنظر بحث (والقدر خيره وشره) من الجزء السادس (مفاهيم ومصطلحات رسالية) . أنظر (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل : معاني : القضاء ، القدر ، الكتابة) - عبدالرحمن حبنكة الميداني . أنظر (نظام الإسلام - العقيدة والعبادة) - محمد المبارك.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ الإسراء

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس

.. إلخ

فكل فرد بلغه الحق بيّناً واضحاً ، أصبح مسؤولاً أمام الله عزّ وجلّ وقد قامت الحجة عليه .. أمّا رسول الله فالذي كُلّف به – بشكل أساس – هو بلاغ الحق وبيانه .. وبعد ذلك ، فإن **مواقف** الناس من الحق وردود أفعالهم ، **وتتابع** حدوثها .. ليس لرسول الله سلطان عليها ولا قدرة :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الفرقان

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ الزمر

ومن ثَمّ ، لا يجوز أن يكون الرّسول مسؤولاً عن مواقف الناس من الحق ، ولا عن تتابع حدوث تلك المواقف .. فلا تكليف للنفس إلا بما يدخل في نطاق قدرتها من الأعمال ، من أقوال باللسان وأفعال بالقلب أو بالجوارح :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ المؤمنون

فالرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، غير مسؤول عن مواقف الناس واختياراتهم ، ولا عن تتابع حدوث تلك المواقف .. وقد قام – أحسن القيام – بما كُلّف به من البلاغ والبيان والاستقامة على ما أمره الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ **بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ** عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ البقرة

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ** فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ المائدة

وعليه ، فحقيقة مهمة رسول الله ومسؤوليته ، أنه بعد أن يَظْهَر له **موقف** الناس من الحق وقد بلغهم بلاغاً مبيناً ، سواء كان موقفهم الإيمان والاتباع أم الكفر والإعراض ، فهو **مكلّف** أن يقوم – من جهته – بتقديم **الجواب الشرعيّ** وأن يتخذ الموقف الشرعيّ (تنزيل المعالجات) المناسب لموقفهم ذاك (المناط) ، الحاصل فعلاً .. والمعالجات في خطوطها العامة هي :

– تزكية وتعليم من آمن ..

– وإعادة إقامة الحجة على مَنْ أبى ، بكشف زيفه وبيان فساد دعواه وبطلان موقفه ..

– والصبر على ذلك كله .. حتى إكمال الدّين لله تعالى :

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الأعراف

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء

فإذا كان عند رسول الله وحي من الله تعالى في تلك المعالجات عمل به ، وإلا انتظر حتى يأتيه الوحي – قرآناً أو سنة – من عند الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس

﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

وهذا هو معنى وحقيقة قول ابن عباس رضي الله عنهما :

(**ونزّله** جبريل **بجواب** كلام العباد وأعمالهم)[1] .

(فكان المشركون **إذا أحدثوا شيئاً** أحدث الله لهم **جواباً**)[2] .

هذا ، و بيان **الطبيعة السُّننيّة** لمواقف الناس ، و بيان **حقيقة مهمة** الرسول ومسؤولياته .. كانا حجر الزاوية في خطاب الله تعالى لرسوله الكريم في تخفيف شدة وقْع تكذيب القوم على نفسه ، وفي تثبيته ومن معه .. بأنه غير مسؤول عنها .. و أن كل فرد وكل مجتمع (قرية) يتحمّل **المسؤولية** عن موقفه ، كما جاء في آيات كثيرة ، نذكر منها :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ الشعراء

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يونس

﴿ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ النساء

.. إلخ

1 - رواه الطبراني والبزار .
2 - أخرجه ابن أبي حاتم .

وكذلك ، وعلى نفس **الأساس** ، كان **عتاب** الله جلّ وعلا لرسوله الكريم ، صلّى الله عليه وآله وسلّم في سورة عبس ، لتركه المسلم الذي يريد أن يتزكّى ، واهتمامه بأحد كبار قريش – وقد استغنى بالباطل عن الحق – طمعاً في إيمانه فيؤمن الناس من بعده .. مُبيّناً له أن **مهمّته** في الناس محصورة في البلاغ والبيان وأنه ليس مسؤولاً عن قبولهم أو رفضهم للحق .. وأمّا مَنْ استجاب فالموقف تُجاهه ؛ التعليم والتزكية ، كما بيّنه الله تعالى في الآيات (1–10) من سورة عبس ..

وأما مَنْ تولى مستغنياً مستكبراً ، فالموقف منه – حينئذ – ما بيّنه الله تعالى في الآيات (11–42) .

وإجمالاً لما سبق بيانه في " ترتيل التلقي الأول " :

1– أصبح من الحق البيّنَ : أن ترتيب وتتابع حدوث (موالاة) كلٍ من الأعمال أثناء سير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والتلقي للآيات ، لم يكُن بناءً على تكليفٍ شرعيّ من الله تعالى (الأمر الشرعي) ، فهما ليسا من العبادة . ومن ثَمّ ، فلا يشملهما الأمر في مثل قول الله تبارك وتعالى :

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ هود

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية

بل كانا بحسب ما كان يتخذه الناس من مواقف من الحق ، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً .. (الأمر القدري) .. فقد حصلا استجابة لما كان يستجد من أحداث ومواقف حسب سنن الله تعالى في تفاعل " فكرة الرسالة " و "خطاب النذارة " في المجتمع آنذاك وموقفه منهما ، بقصد معالجته حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيه : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

فالذي يضبط ويحكم تتابع الأحداث والمواقف (المناط) وتطورها في العلاقة بين الجماعة المسلمة أو الأمّة المسلمة وقيادتها من جهة ، والذين كفروا باختلاف أنواعهم ودرجاتهم من جهة أخرى ، وعلى طول مراحل السير حتى تحقيق الغاية .. الذي يضبط ذلك كله هو سنن الله تعالى في الأمم والمجتمعات ، وحسب ما يختاره الأقوام من تلك السنن ، سنن الهداية أو سنن الضلال ..

و سنن الله تعالى ، واختيارات الناس ، من شأن الله تعالى وحده – خلقاً وتقديراً – .. ومن ثَمّ ، فليس لرسول الله فيها قدرة وليس له عليها سلطان ، فلا يمكن أن يتحمّل مسؤوليتها وأن يُكلّف بها .. أمّا ما كُلّف به من البلاغ والبيان فقد قام به أحسن القيام ، صلّى الله عليه وآله وسلّم :

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ النور

2– إن ما حصل مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في زمانه وواقعه الإنساني أثناء سيره لتحقيق الغاية من الرسالة ، بشكله وترتيبه المفصّل ، **لا يلزم** أن يحصل مع المسلمين دائماً ، في كل زمان مكان .. فالأمر منوط ، ابتداءً ، بمشيئة الله سبحانه وتعالى ممثلة **بالخصائص وبالسنن** التي تضبط سير الوجود كله ، ومنه المجتمع الإنساني ، ثُمّ **باختيارات** القوم المُعَيّنين لمواقفهم من الحق وقد بلغهم بيّناً واضحاً .. فهناك **السنن** التي قدّرها الله العزيز العليم لضبط **خواص** الخلق في وجودهم وسيرهم ليحقق كل مخلوق مراد الله منه . وهناك **اختيارات** الناس – في أي زمان أو مكان – لأيٍ من تلك الخواصّ والسّنن للسير بحسبها في سيرهم ومواقفهم .. فالخواصّ والسّنن ، دائمة لا تتبدّل فهي متعلقة بتقدير الله لخلقه وتنظيمهم بنظام دقيق ، وبقيّوميّته – جلّ جلاله – عليهم .. أمّا ما يحصل فعلاً وواقعاً في حياة الناس المُعَيّنين ، فهو نتيجة **اختياراتهم** لمواقفهم من الحق وحركتهم في الحياة .. وهو خاص ومتغير حسب الواقع الإنساني المُعيّن في زمانه ومكانه : ﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ..﴿١١﴾ ﴾ الرعد

﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم

فالترتيب **التفصيلي** للأحداث كما حصل في الواقع الإنساني زمن الرسول ، مرتبط بمواقف الناس في حينه من الرسالة والرسول .. لكنّه ، وبوصفه الإنساني ، فإن له خواصّ وسننَ دائمة تحكمه ، وبغض النظر عن الزمان والمكان .

3– وعليه ، فلا يُنظر إلى ما حُفظ من " **ترتيب الأعمال** " التي قام بها رسول الله أثناء سيره لتحقيق الغاية من الرسالة ، نظرة **تشريعية** للوصول لأحكام شرعيّة ، فهو ليس من **البيان الشرعي** في كيفية تحقيق الغاية من الرسالة ، فلا يُقتدى برسول الله في ما حصل معه من **ترتيب** أو موالاة للأعمال أثناء السير .. بل هو من **البيان السنني** (الحكمة) .. فتكون النظرة إلى " **ترتيب** الأعمال " **نظرة سُننيّة** لفهم سنن الله تعالى الثابتة والضابطة **لطبيعة حركة** حمل الرسالات في الأمم والمجتمعات – باعتبار أن الواقع الإنساني زمن النزول ، حالة إنسانية ممثِّلة للسنن الربانية الدائمة الجريان – للتعلم والاقتباس من نور الحكمة النبوية في التعامل مع الواقع الإنساني بقصد معالجته لتحقيق الغاية من الرسالة فيه ، فيكون بياناً وفهماً للواقع الإنساني (المناط) لمن سار على درب الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم واقتفى أثره حتى قيام الساعة ، حتى يتمكّن من معالجة واقعه بما يلزمه من " معالجات شرعية " .

فحقيقة " ترتيل التلقي الأول " أنه كان التطبيق العملي **لكيفية تنزيل الرسالة** حسب " المنهاج " على واقع إنساني معيّن – زمن الرسول الخاتم – بقصد معالجته لتحقيق الغاية منها فيه . فاصبح بذلك ، تعليماً لنا في **كيفية تنزيل المعالجات الشرعية على المناط المعيّن** بعد " **تحقيق المناط** " [1].. فلكل واقع أو

1 - (المناط) هو : ما أناط ، أي علّق ، الشارع الحكم عليه . فهو الواقع الذي جيء بالحكم له ، فالحكم متعلق به . و (تحقيق المناط) هو : إجراء يسبق تنزيل الحكم الشرعي على الواقع (المناط) المعين . ومفاده ؛ النظر في ذلك المناط للتحقق من أنه هو الذي جيء بالحكم الشرعي - الذي عُرف دليله- له وينطبق عليه ، أي يتعلّق به . أنظر (الواضح في أصول الفقه) لـ محمد حسين عبدالله .

مناط حُكمه ومعالجته الشرعية الخاصّة به ، ولا يُقاس مناط على آخر في حُكمه إلا بـ " **علّة شرعية** " [1] تجمع بينهما . وما كان منها له نفس العلة أخذ نفس الحكم والمعالجة .

لذلك كانت القاعدة الأصولية المعتمدة في **فهم** مراد الله تعالى في **الرسالة الخاتمة** هي : { العبرة بعموم اللفظ (النصّ) لا بخصوص السبب } . فالعبرة بالمعالجات الشرعية بوصفها **معالجات للإنسان** كإنسان حتى قيام الساعة ، وليست العبرة **بالحالة الإنسانية** المعيّنة التي بسببها نزلت المعالجات (أسباب النزول) ، بل هي بمثابة أمثلة ونماذج ..

إذن ، فالأصل في النظرة إلى **الترتيب التفصيلي** لتتابع أحداث سير رسول الله بالرسالة في ذلك الواقع الإنساني المعيّن ، أن تكون نظرة سُننيّة لأخذ العبرة وفهم الحكمة ، لأنه بوصفه الإنساني له سنن ثابتة تحكمه وبغض النظر عن الزمان والمكان ..

وعلى أساس ديمومة السنن التي تحكم الواقع الإنساني ، تحققت العبرة للرسول وللمؤمنين ، بقصص الأنبياء والرسل السابقين الوارد ذكرها في القرآن الكريم ..

وعلى الأساس نفسه تتحقق **العبرة دائماً** ، في زماننا وفي كل زمان ومكان ، بقصص الأنبياء والمرسلين السابقين ، وبسيرة خاتمهم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ يوسف

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ هود

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ص

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ .. ﴾ القلم

فـ " **ترتيل** التلقي الأول " للآيات ، **وتتابع** أحداث سير الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بحسبه في واقعه الإنساني – بزمانه ومكانه وأشخاصه – يعتبر من باب تعليمنا " الحكمة " في التعامل مع **الواقع الإنساني** ، بقصد معالجته بالرسالة حتى تحقيق الغاية ، وذلك من خلال **التطبيق العملي والواقعي** على حالة إنسانية **معينة** أو واقع إنساني معين [2] ، وهو الواقع الذي شاء الله تعالى أن يبعث فيه خاتم أنبيائه ورسله محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ، برسالته الخاتمة رحمة للعالمين :

---

1 - (العلة الشرعية) هي : الأمر الباعث على التشريع ، أي الأمر الذي شُرّع الحكم من أجله . فعلة تحريم الخمر هي الإسكار أي كونها مُسْكرة . أنظر المرجع السابق

2 - وستزداد هذه النقطة إيضاحاً وتفصيلاً - بإذن الله - عند بيان حقيقة " التسوير " والموقف الشرعي منه .

﴿ ..ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ..﴿١٢٤﴾ ﴾ الأنعام .

وبعد ، فهذا هو فهمنا للموقف الشرعيّ من " **ترتيل** التلقي الأول " لآيات الرسالة ، ومن **ترتيب** (موالاة) الأعمال والأحداث أثناء السير بالرسالة ، الذَين حصلا عملياً مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، في واقعه الإنساني ، من البداية حتى تحققت الغاية من الرسالة .. فكلاهما ليسا من " البيان الشرعي " في كيفية تحقيق الغاية من الرسالة ، فلا يُقتدى بالرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيهما.. بل هما من البيان السننيّ (الحكمة) .

***

ثانياً : " الترتيل حسب التسوير " لآي الرسالة الخاتمة ؛ بيان حقيقته ، والموقف الشرعي منه .

❖ – **حقيقة** " الترتيل حسب التسوير " :

" **التسوير** " هو : تأليف وتنضيد وتنظيم معيّن (ترتيل) مقصـود للآيات . بحسبه جعل الله القرآن جملة واحدة ، وذلك بتضمين **مجموعة محددة** من الآيات في **سورة معينة** ، **وبترتيب** مقصود فيها .

هذا ، ومن النظرة العميقة في " التسوير " نجد ما يلي :

1- **أن " التسوير " هو وحده الترتيل الشرعي ، والمُتعبَّد به تلاوة ودلالة** . ولم نُتعبَّد بترتيل آخر لا قبله ولا بعده :

• فــ " التسوير " ترتيل توقيفي ، فقد كان بتكليف من الله تعالى لرسوله الكريم ، حيث **وُضعت** الآيات التي كانت تُـنـزَّل في موضعها في سورتها ، كما أمر الله تعالى .. ((حيث ورد في كتب السّنة أحاديث ثابتة عديدة تصوّر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يملّي القرآن على كُتّــاب الوحي **ويوقّـــفهم** على ترتيب الآيات ، كما أخرج أحمد بإسـناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسلّم إذ شَخَص ببصره ثم صـوّبه ثم قال : { **أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضـعَ من هذه السـورة** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ النحل ، إلى آخرها }))[1] .

فالقرآن المجيد ليس مجموع الآيات (النَّص) فقط ، بل هو آيات الله تعالى مرتبة ترتيباً معيّناً (التسوير) ، **هذا هو القرآن** ؛ الآيات مرتبة (مرتلة) في سور ، **وكلّه وحي** من عند الله تعالى ، نصاً وتسويراً ، فلا يجوز **تغيير كلمة** أو حرف من أيّ آية (النَّص) ، وكذلك لا يجوز **تغيير ترتيب** أيّ آية ونقلها من موضعها الذي وضعها الله جلّ وعلا فيه (التسوير) ، سواء في السورة نفسها ، أم إلى أي سورة أخرى موجودة أو **استحداث** سورة جديدة لم تكن موجودة أصلاً .. إلخ ، فالقرآن كله – نصّ آياته و ترتيلها في سور – وحي من الله جلّ وعلا .. ونحن متعبَّدون به كلّه من حيث **تلاوته** ومن حيث **دلالته** :

وتعبُّدنا **بالنص** تلاوة و دلالة :

فهو معروف ؛ وهو أن **تلاوة** آيات القرآن الكريم عبادة نتقرّب بها إلى الله تعالى .. **وفَهْمَ دلالتها** وتطبيق ما جاء فيها من معانٍ ؛ إيمان وعمل صالح ودعوة .. عبادة أيضاً .

1 - أنظر (مباحث في علوم القرآن) - صبحي الصالح .

<u>وأما تعبُّدنا بـ " **التسوير** " تلاوة و دلالة</u> :

فتلاوةً : هو الالتزام – أثناء تلاوة القرآن الكريم – <u>بترتيب الآيات في السورة الواحدة</u> ، فلا يجوز قراءة الآيات بترتيب منكوس ، مثلاً .

وقد ، كانت " السورة " هي الأصل في طريقةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه في المداومة على قراءة القرآن العظيم وترتيله ، وهو ما يُعرف بـ " تحزيب القرآن " .. وهو جَعْل القرآن على أحزابٍ – أي أجزاءٍ – كل حزبٍ يشتملُ على عددٍ من السورِ التامّةِ تُقرأ وِرْداً متصلاً في مدةٍ معلومةٍ [1].

<u>وتعبُّدنا بـ " التسوير " **دلالة**</u> ؛ فالمراد به التالي : ما دام أن الله تعالى قد جمع آيات محددة في سورة واحدة وبترتيل مقصود فيها ، فهذا أمرٌ يعطي تلك الآيات دلالة شرعية زائدة على دلالتها كآيات متفرقة .. فكما أن للفظة دلالتها ، وللجملة أو التركيب له دلالة زائدة على دلالة اللفظة ، فإن للسورة كوحدة واحدة دلالتها أيضاً ، وفيها زيادة على دلالة الآية المفردة أو مجموعة الآيات .

فالبحث والنظر في السورة كوحدة واحدة .. إنما هو بحث في <u>**واقع** الدليل الشرعيّ</u> وسياقه وطبيعته التي جعله الله تعالى عليها لبيان مراده .. فهو بحث شرعيّ ، ويتحقق بالتفكّر العميق في **السورة** و **آياتها** بحسب القواعد والأصول اللغوية والشرعية المعتبرة . فلا بد من تدبّر السورة من القرآن – بوصفها سورة – لاستخراج ما تدل عليه :

✓ يقول الله جلّ وعلا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء

فالهدى متحقق في القرآن **كله** ؛ <u>نصَّ الآيات ، وكونها مرتلة في سور</u> ، فهذا هو القرآن .. آيات مرتلة في سور .. فكما أن الآيات – الواحدة أو المجموعة – فيها هداية ودلالة للتي هي أقوم .. فإن كون الآيات تشكّل سورة واحدة ، فيها – أيضاً – هداية ودلالة للتي هي أقوم . لأن الدلالة على الهدى متحققة في القرآن **كله** .

✓ يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ الزخرف

أي : فتمسك يا محمد <u>**بما يأمرك به هذا القرآن**</u> الذي **أوحاه** إليك ربك [2].. <u>والقرآن هو الآيات مرتلة في سور</u> ، وكلّه وحي من الله تعالى . وفَهْم ما **يأمر** به القرآن ، يقتضي تدبّر القرآن **ألفاظه وآياته وسوره** .

1 - كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم ، (عن أوس بن حذيفة ، أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : { إنّه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه } . قال أوس : سألت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - : كيف تحزّبون القرآن ؟ فقالوا: ثلاثٌ ، وخمسٌ ، وسبعٌ ، وتسعٌ ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزبُ المفصَّل وحده) . وهذا الحديث - ونظائره - جعلهُ أهلُ العلم أصلاً في "تحزيب القرآن" و"تجزئة المصاحف" . وبوّبَ الإمام أبو داود في سننه : "بابُ تحزيب القرآن". أنظر (تحزيب القرآن) مقالة لـــ ماجد البلوشي - ملتقى أهل التفسير. هذا ، وطريقة تجزيء وتحزيب المصاحف المعروفة الآن مخالفة لهذه الواردة في الرواية السابقة .

2 - أنظر تفسير الطبري .

فتدبّر السورة – بوصفها سورة – من تدبّر القرآن ، لأنها من القرآن . فكما جعل الله الآية المُعيّنة مركبة من ألفاظ محدّدة ، فكذلك جعل السورة المُعيّنة مركبة من آيات محدّدة . والأمر بالاستمساك بما يأمر به القرآن يشمل بما يدل عليه القرآن كله ، الألفاظ والآيات والسورة ، فكلّها وحي من الله تعالى .

✓ يقول الله جلّ وعلا : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء

هنا يَلْفِت الله تبارك وتعالى انتباهنا – في إطار الحث على تدبّر القرآن الكريم – إلى حقيقة أن الهدى متحقق في القرآن **كله** ، ليس **نصّ الآيات** فقط ، بل وفي كونها **مرتـــلة** في سور كذلك ، فهذا هو القرآن . فالتدبر هنا ، تـدبّـر للقرآن سواء على مستوى السورة من القرآن بوصفها كلاً مركباً من آيات ، أم على مستوى الآية بوصفها كلاً مركباً من كلمات ..

أما في قوله تعالى : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص

فهذا حث على تدبّر آيات القرآن الكريم بوصفها آيات ، سواء كانت متفرّقة أم مجتمعة ..

فمن الواضح من الآيتين السابقتين ، أن تدبّـــر القرآن : الآيات وكونها مرتّلة في سورة ، دائرته أوسع وأشمل من تدبّـر الآيات دون ملاحظة كونها تشكّل سورة واحدة .. الأمر الذي يدل على أن تدبّـر السورة من القرآن – بوصـــفها كلاً مركباً من آيات – يعطي تلك الآيات دلالات وأبعاداً أخرى زائدة على تدبّر الآيات فقط ، متفرقة أو مجموعة .

- **أما وجه دلالة** " **التسوير** " ، أي كون السورة كلاً مركباً من آيات :

فالأصل فيه أنه في سياق وإطار **تحقيق الغاية من القرآن** ، فما أنزل الله عزّ وجلّ القرآن إلا لتحقيق الغاية منه ؛ إكمال الدّين لله ، وما جعل الله تعالى القرآن الحكيم هكذا في كامل خصـــائصـــه وتكوينه وتركيبه – نصّاً وتسويراً – إلا لتحقيق الغاية منه :

﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ إبراهيم

((جعَل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور ، على طريق الاستعارة ، واللام في (لتخرج) **للغرض والغاية** . والتعريف في (الناس) للجنس . والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم يخرج كل الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع ، مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور)) [1] .

---

1 - فتح القدير للشوكاني .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد

أي ، ((لقد أرسلنا رسلنا بالمفصَّلات من البيان والدلائل ، وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع ، والميزان بالعدل .. **ليعمل الناس** بينهم بالعدل)) [1] .

فكل ما في القرآن سواء من حيث المحتوى أم من حيث الأسلوب ؛ من حيث الأفكار والأحكام والحقائق ، أم من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير .. فكل ذلك ، إنما كان لتحقيق الغاية من القرآن الكريم ؛ هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء [2]

و" التسوير " من أهم خصائص القرآن ، وتدبّره جزء من تدبّر القرآن المأمورين به ، فعند النظر في القرآن لفهم **كيفية** تحقيق الغاية منه كرسالة خاتمة (المنهاج) ، يلزم ملاحظة هذا الترتيل للآيات (التسوير) وتدبّره لمعرفة دلالته الشرعيّة عليها ، تماما كما تُلاحظ الآيات المفردة وألفاظها ودلالتها الشرعيّة :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء

فالأصل في وجه دلالة " التسوير " ، أنه في سياق وإطار تحقيق الغاية من القرآن .. **ومن ثم** ، فلا بد من فهم **دلالته** على تحقيق الغاية من الرسالة .

– – –

2– أن " التسوير " دليل على أن القرآن كلام الله ؛ و به كان التحدي :

فلا يجد المتدبّر لكتاب الله وآياته إلا نسجاً مُحكماً عجيباً ، وجميلاً .. وانسجاماً مطلقاً ، وبشكل باهر لدرجة الشعور بالهيبة .. وأيضاً ، الشعور بعدم القدرة على أن يأتي بمثله .. وذلك في القرآن كله بكامل خصائصه وتكوينه وتركيبه ، من ألفاظ وكلمات مختارة في آياتها .. وآيات موضوعة في سياقها وسورتها .. وعلى جميع المستويات ؛ دلالة وبلاغة ونظْماً .. وفي جميع المجالات فكراً وتشريعاً [3] :

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء

﴿ .. وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت

---

1 - تفسير الطبري .

2 - فمن سنن الله المسلَّم بها في الموجودات : أن **الغاية المرادة** من شيء ما أو المُهمّة التي سيؤديها ، هي التي تحكم تصميمه وتركيبه من حيث شكله ومضمونه ، حتى يمكن أن **تتحقق** الغاية منه **ويؤدي** تلك المَهمّة . وهذا واضحٌ وبَدَهيٌ في كل الموجودات والأمور والأشياء والأدوات والوسائل والأساليب .. المادية منها والفكرية .. بلا استثناء . فهذا الأمر من مقتضيات العلم والحكمة ، وأن كل شيء موجود لحكمة .

3 - وهذا أحد مجاليّ التدبّر المأمورين به ، وأما المجال الثاني فهو مجال زيادة الهدى إيماناً وعملاً .. كما في آيتي سورة محمّد ، وسورة ص . أنظر (تبيان سور القرآن) ص 77 . للتفصيل في موضوع أوجه إعجاز القرآن ، يمكن العودة إلى كتاب (لا يأتون بمثله) ـ محمد قطب .

لذلك ، عندما تحدى الله جلّ وعلا ، الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو ببعضه أو بجزء منه ، لم يكن المقصود بأن يأتوا **بمثل آياته أو بعض آياته** هكذا بشكل عام ، بل تحداهم بأن يأتوا بمثله كاملاً بكامل خصائصه ، أو أن يأتوا بجزء منه الممثل له ولخصائصه ألا وهو **السورة** .. وإن كانت السورة مكونة من بضع آيات ، إلا أن كون تلك **الآيات** تشكل **سورة واحدة** فهذا أمر آخر ، وبه كان التحدي :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا **بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ يونس

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا **بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ** مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ هود

﴿ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء

فكل سورة من سور القرآن ، وإن صغرت ، لها شخصيتها المستقلة ولها بناؤها الخاص[1] .. ((فالسورة ليست بكَمّها ، بل لها كَيْف هو الأساس في جعلها سورة وليس هو الكَمْ . فلم يكن التحدي بآيات ، ولو بمائة آية ، بل كان التحدي بالسورة)) [2] . وذلك " الكيف " للسورة ، أعطاها – أيضاً – مكانتها الخاصة في النسيج القرآني الكامل المتكامل .. وبذلك كان التحدي بالقرآن كله ..

فالتحدي بأن يأتوا بسورة واحدة على الأقل – بغض النظر عن عدد آياتها – لها بناؤها وكَيْفها الخاص ، وتكون – كذلك – **منسجمة** مع الكل ، مع هذا النسيج القرآني البديع **المتكامل** في جميع المجالات ، وعلى جميع المستويات [3] ..

ومما يشير إلى الأهمية البالغة والمؤثرة لـ " التسوير " ، تسميةُ المجموعة المحددة من الآيات المعيّنة بهذا الاسم " السورة " ، فهو الاسم الأليق بها ((لدلالته **على العلو الارتفاع** .. قال النابغة الذبياني :

الم ترَ أنَّ الله أعْطاك سُورَةً   ترى كل مُلْكٍ دونها يتذبذبُ .

أي أعطاك منزلة قصرت عنها منازل الملوك .. فالسورة منزلة رفيعة ، أو مرتبة عالية جداً ، توازي أعلى مراتب الدولة وهي راسخة في موضعها .

وسُمي السُوْر سُوْراً ، لارتفاعه وقوته . لذلك غلب على ظني أن **سورة** القرآن سميت بهذا الاسم **لعلوها ورسوخها**)) [4] .. فلا يُعلى عليها ، ولا يمكن نقضها .

---

1 - انظر مدخل لدراسة القرآن الكريم لـ د. عبد الله درّاز . و الظلال لـ سيد قطب . ومقدمة "نظام القرآن" لـ الفراهي .

2 - (الهدى المنهاجي في سور القرآن الكريم). د الشاهد البوشيخي . محاضرة تسجيل مرئي .. بتصرّف يسير .

3 - انظر- مثلاً - جانب الترابط العددي بين الألفاظ والآيات والسور في القرآن الكريم ، وحسب ترتيبها في المصحف . كأبحاث عبدالله إبراهيم جلغوم ، أو غيره من الباحثين .

4 - (شيء من اللغة) مقالة لـ د. جميل ولويل ، صحيفة الرأي الأردنية . وأيضاً انظر معجم المقاييس لابن فارس .

هذا ، وما جعل الله تعالى القرآن الحكيم في كامل خصائصه وتكوينه وتركيبه هكذا .. **إلا لتحقيق الغاية منه** ، فيكون حقيقة حية في الواقع الإنساني :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ **لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ..﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد

– – –

3– **أن " التسوير " هو الترتيل النهائي لآيات الرسالة الخاتمة ، والمحفوظة بحسبه :**

إن الله بنفسه – سبحانه – قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم جملة واحدة ، مرتلاً بحسب " التسوير " ، بوصفه **ذكراً** وتذكرة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا **الذِّكْرَ** وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر

(**نَزَّلْنَا**الذِّكْرَ) : أي مفرقاً مرتلاً . فالمعنى : حافظون لما **نزّلناه** مفرقاً من الذكر على قلب رسول الله ، أولاً بأول . فإذا ما تمّ نزوله حفظناه تاماً كاملاً .. فالحفظ لازم لما نُزّل وأصبح بين يدي الناس من آيات القرآن لكي لا يُضيعوها ، سواء نصّها وترتيلها أم دلالتها ومعناها .. لذلك لم يقل : (.. **أنزلنا** الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) أي جملة واحدة ، وهي كيفية تنزيله إلى السماء الدنيا .. لأنه في هذه الحالة ليس مظنة ضياع أو فقدان حتى يحتاج إلى حفظ ، بل هو محفوظ فعلاً . فانتبه إلى دقة التعبير القرآني .

فحَفِظ الله جلّ وعلا آياته مرتلة في سوَرٍ ، أي بحسب " التسوير "، فأصبحت **هذا** القرآن الكريم .. الذي هو رسالة الله الخاتمة للعالمين .

و (الذِّكْرَ) : هو **القرآن** ، أي الآيات مرتلة في سور ، مضافًا إليه **البيان** الذي يحقق له وصف الذكر ، فالقرآن لا يكون ذِكْراً وفيه التذكرة والعبرة إلا ببيانه . مما يقتضي حفظ ذلك البيان كما حُفظ القرآن نفسه .

– – –

4– **أن " التسوير " هو الترتيل الأصل ، الذي لا يُعرف القرآن إلا به في جميع وجوداته** ؛ في " **أُم الكتاب** " ، وفي **السماء الدنيا** ، وبين **أيدي الناس** .

فـ " التسوير " ليس فقط هو الترتيل النهائي لآيات القرآن المجيد ، بل هو " **الترتيل الأصل** " لها ، وذلك :

– أن **هذا** القرآن كما هو بين أيدينا الآن بآياته وسوره ، إنما كان **بجعل الله** جلّ وعلا له كذلك ، **بآياته وسوره** ولغته.. وسائر خصائصه ، وهو **نفسه القرآن الحكيم** بآياته وسوره.. المحفوظ في أم الكتاب :

﴿ حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴿٤﴾ ﴾ الزخرف

– وأن **هذا** القرآن الكريم كما هو بين أيدنا الآن بآياته وسوره ، هو الذي أنزله الله عزّ وجلّ إلى السماء الدنيا **جملة واحدة** ، ليلة القدر في رمضان :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ ﴾ القدر

– وأن هذا القرآن الكريم كما هو بين أيدنا الآن بآياته وسوره ، هو نفسه الذي **نزّله** الله عزّ وجلّ **على قلب** رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، **ولكن** ، مفرقاً ومرتلاً على ترتيل آخر (ترتيل التلقي الأول) غير الترتيل الأصل (التسوير) ، وذلك – كما أسلفنا – كمعالجات لما كان يستجد من أحداث ومواقف ، ليكون بحسب ذلك **العلم والعمل** و**الحركة** به ، لجعله حقيقة في الواقع الإنساني حينئذ حتى **إكمال الدّين** (العبودية) **لله** تبارك وتعالى :

﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ **وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا** ١٠٦ ﴾ الإسراء

لكنّ **الله** عزّ وجلّ ، **أعاد ترتيب آيات القرآن الكريم** إلى " الترتيل الأصل " (التسوير) الذي هو عليه في أم الكتاب ، والذي هو عليه يوم أُنزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، بأن **كلّف** الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بوضع وترتيب آياته **بحسبه** ، لتصبح مرتّلة جملة واحدة على ترتيلها الأصل ، وحَفِظها سبحانه وتعالى بحسب ذلك " الترتيل الأصل " (التسوير) **كرسالة خاتمة** إلى البشرية جمعاء حتى قيام الساعة ، كما هو القرآن بين أيدنا الآن بآياته وسوره وبجميع خصائصه :

كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس قوله : (**نزل القرآن كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى **السماء الدنيا** ، فكان الله إذا أراد أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله منه حتى جمعه**) [1] .

– – –

❖ – **الموقف الشرعي** من ترتيل الآيات حسب " التسوير " :

إن " التسوير" هو الترتيل (الترتيب) الوحيد الثابت لآيات الرسالة في وجوداتها كلها : في اللوح المحفوظ ، وفي السماء الدنيا ، وبين أيدي الناس .

وهو الترتيل الوحيد التوقيفيّ والشرعيّ الذي **تعبّدنا** الله جلّ وعلا به **تلاوة ودلالة** ، ولم يتعبّدنا بترتيل آخر لا قبله ولا بعده .. فتسوير الآيات له دلالة شرعية ، كما لنصّ الآيات دلالة شرعية .. فقد كان بتكليف من الله تعالى لرسوله الكريم ، حيث وُضعت الآيات التي كانت تُنزَّل مفرّقة في موضعها في سورتها ، كما أمر الله تعالى .

1 - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور .

والأصل في وجه دلالة " التسوير " ، أنه في إطار تحقيق الغاية من القرآن ، فهو من الأدلة الشرعية على" **المنهاج** " ، أي ، على " **الكيفية الشرعية** " الثابتة لتلقي الرسالة الخاتمة بقصد تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني ، في كل زمان ومكان ، من لدن رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حتى يرث الله جل وعلا السماوات والأرض. فلا بد من تدبّر " التسوير " واستخراج تلك الدلالات على " المنهاج " [1].

***

- ونود – هنا – أن نلقي بعض الضوء على طبيعة العلاقة بين " **ترتيل التلقي الأول** " و **الترتيل الأصل** (التسوير) لآيات القرآن الكريم :

1– إن " **ترتيل** التلقي الأول " لآيات الرسالة ، ليس منهاجاً آخر غير **منهاج** الرسالة الخاتمة الثابت **المتعبّد به** ، والذي من أدلته " التسوير " .. ولا أنه كان منهاجاً آخر إلا أنه قد نُسخ . فهو لا هذا ولا ذاك؛ ذلك أن النّسخ لا يكون إلا في الأحكام الشرعيّة .. و " **ترتيل** التلقي الأول " – كما أسلفنا – ليس حكماً شرعياً تعبّدنا به الله سبحانه وتعالى حتى يجوز عليه النسخ .. إنما هو ، في حقيقته ، التطبيق العملي **للعبادة** (المنهاج) على الواقع الإنساني زمن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم – قريش ، عرب الجزيرة ، مكة ، المدينة .. – مع ما **لزم** من أساليب ووسائل (الحكمة) ، الأمر الذي شكّل وحدد **خطوات سير** رسول الله ومن تبعه ، في ذلك الواقع .. حتى تحقيق **الغاية من الرسالة** فيه .

فـ " **ترتيل التلقي** الأول " ، في حقيقته ، هو " **المنهاج** " مطبقاً على واقعٍ معين .. فكان هو الترتيب **المناسب** – شرعاً وقدراً – لمعالجة الواقع الإنساني **حينئذٍ** ، بمكانه وزمانه وبأشخاصه وبتتابع أحداثه ووقائعه .. وعلى أتمّ وجه وأحسن صورة حتى أدق التفاصيل .. إلى أن أصبحت كلمة الله هي العليا فيه .. وقد تكفّل الله عزّ وجلّ بـ " **ترتيل تلقي** " الآيات بنفسه سبحانه وتعالى ، ولم يكله لأحد من الخلق ، فهو من شأن الله تعالى وحده .. **فلم يتعبّدنا به ، و لم يحفظه** .

2– وفي المقابل ، فقد **كلّف** الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، **بإعادة ترتيب** آيات الرسالة الخاتمة ، **لجعْلها جملة واحدة** حسب **ترتيلها** الأصل الواحد الثابت ألا وهو " التسوير " ، والذي فيه دلالة على **منهاج** الرسالة الخاتمة **الثابت** ، **الذي تعبّدنا** الله به ، والصالح للسير بحسبه في كل زمان ومكان ، من لدن رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى يرث الله – جل وعلا – السماوات والأرض .

1 - نكتفي بتقرير هذا الأصل هنا ، أما كيفية الإستدلال بالسورة على " المنهاج " ، سنبحثه بالتفصيل في القسم الثالث والأخير من هذا البحث ، بإذن الله تعالى .

ومن ثَمّ ، فإن حفظ آيات الرسالة الخاتمة بحسب " التسوير " – كما هي بين أيدينا الآن – إنما هو حفظ للرسالة بكامل خصائصها من الهداية للحق وإقامة الحجة .. وحفظ لمنهاجها أيضاً ، لتبقى فيها القابلية لتحقيق الغاية منها متى أُريد بها ذلك ، حتى قيام الساعة .

3– أن يكون " ترتيل التلقي الأول " هو **التطبيق العمليّ** لتلك **الكيفية الشرعية** على واقع إنساني معين .. فهذا يضمن أمرين معاً :

الأول : **بيان** " **الكيفية الشرعية** " (المنهاج) **تصوّراً و فهماً** ، أي من حيث هي **كيفية ثابتة** بغضّ النظر عن الزمان والمكان .. و " التسوير " دليل عليها .

الثاني : **بيان طريقة تنزيل** تلك **الكيفية الشرعية** الثابتة على الواقع الإنساني ، من خلال تطبيقها على واقع إنسانيّ معيّن . فـ " ترتيل التلقي الأول " كان فيه **البيان** الواضح والتطبيق العملي المفصّل (التبيان) لكيفية تلقي الرسالة – وهي جملة واحدة حسب ترتيلها الأصل – والتعامل معها كطريقة عملية يُسار عليها من أجل تحقيق الغاية منها ، وبحسب الضوابط الشرعية والسننيّة ؛ أي كمنهاج .. ليكون ذلك **البيان العمليّ** تعليماً للمسلمين وهدى ومنارة للسائرين على " منهاج النبوة " في أي زمان ومكان حتى قيام الساعة .. فهو تعليم لنا **لكيفية تنزيل المعالجات** – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة ، خطاباً وأفعالاً – على الواقع الإنساني **المعيّن** ، وحسب " المنهاج " ..
وفي اصطلاح علم أصول الفقه ، فهو : **تعليمٌ لكيفية تنزيل المعالجات الشرعية على المناط بعد تحقيقه** .

ولذلك كانت القاعدة الأصولية المعتمدة في فهم كلام الله تعالى هي : { العبرة بعموم اللفظ (النص) وليس بخصوص السبب } . فالعبرة بالعبادة ، وليس بما يلزم العبادة من أساليب ووسائل للقيام بها في الواقع المعيّن . أي أن العبرة بكيفية معالجة الإنسان كإنسان ، وليس بمعالجة الحالة الإنسانية المعيّنة . بمعنى أن العبرة بـ " **المنهاج** " والذي من أدلته " التسوير " ؛ الترتيل الأصل ، وليست العبرة بـ " ترتيل التلقي الأول " لآيات القران المجيد ، ولا **بالترتيب التفصيلي** لخطوات سير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، المناسبة لواقعه آنذاك .

4– لهذا ، فإن ما ذُكر في القران الكريم من أسماء بعض الأشخاص أو الأماكن أو الأحداث .. المتعلقة بالواقع الذي نزل فيه القرآن أو بالزمان الذي قبله .. لم يُذكر للمعرفة التاريخية المجردة ، بل هو **لتوثيقٍ سننيّ منهاجيّ** ، فما ورد ذكره من ذلك الواقع الإنساني من أشخاص وأماكن وأحداث .. يُعتبر **أمثلة تطبيقية** لسنن الله الثابتة في الإنسان ، أفراداً وأمماً ومجتمعات .. وبياناً لكيفية معالجتها بدين الله تعالى لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى (إخلاص الدين لله) ، بغض النظر عن الزمان والمكان [1] .. فالقرآن الكريم هو رسالة الله تبارك وتعالى الخاتمة للإنسانية كافة .

1 - ومزيد من التفصيل لهذه الحقيقة في ما يلي من البحث ، بإذن الله تعالى .

5- إن **تلقي** القرآن بـ " **ترتيل** التلقي الأول " كان هو المُناسب مُناسبة تامة مُطلقة لتلك الأحوال والظروف والوقائع والأحداث التي حصلت ، بجميع ملابساتها ، لعلاجها العلاج الأمثل بالقرآن ، وحسب " **المنهاج** " لتحقيق الغاية منه حينئذٍ .. وذلك كلّه كان من تقدير الله ، عالم الغيب والشهادة ، خالق الوجود ومُقدِّر سُننه ، خالق الإنسان والعليم بما تُوسوس به نفسه وهو اللطيف الخبير ، فـ ((سبحان الله الذي **أنزل** القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، **ونزّله** على حسب المصالح منجماً)) [1] :

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ النمل .

ومن هنا جاءت قمَّة الكفاءة في المُعالجة وأقصى القوّة في التأثير ، وذلك لا يكون إلاّ حين نُزِّل القرآن أول مرّة من لدن الحكيم العليم ، على قلب رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم .. وإذا أُضيف إلى ذلك الطّاقة القُصوى في البيان والتنفيذ ، ببيان وتنفيذ رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لِمَا نُزّل من القرآن .. وبوجود القُدوة البشريّة الفذّة ، والأسوة الحسنة الكاملة في شخص الرّسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم .. نستطيع أنْ نُدرك – إلى حدّ كبير – كيف وصل ذلك الجيل الأول من الأمة ؛ جيل البناء ؛ جيل القدوة .. إلى تلك **القمّة السامقة** في مراتب العُبوديّة لله عزّ وجلّ .

ونحن **الآن** بدورنا ، كلّما اقتربنا من تلك الظروف وتلك الأجواء التي نُزّل فيها القرآن الكريم أول مرّة ، من العلم به والعمل به والسير به من أجل تحقيق الغاية منه ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور .. وشاهدنا القرآن عن كثب وهو يُعالج الحالات والظروف الإنسانية .. قوي شعورنا وإدراكنا بأنّ القرآن حيّ غضٌّ وكأنّه **يتنزّل الآن من جديد** ..

فيكون بذلك القرآن الكريم قد عاد – مرة أخرى – لتأدية **دَوْره الطبيعيّ** ، شرعاً وقدراً ، في **قيادة** " الجماعة المسلمة " ثُمّ " الأمّة المسلمة " ، **وتوجيهها** في عبادة الله وحمل الدعوة إليه حتى تحقيق الغاية منه والمحافظة عليها ..

أي أنّه كلّما كان إدراكنا **للمنهاج** وإحساسنا به أقوى أثناء السَيْر لإكمال الدّين لله تعالى على بصيرة ، كلّما كانت قدرتنا على تنزيل المعالجات وحسب " المنهاج " على الواقع أدقّ وأكفأ ، فنحصل على قوّة أعلى في المُعالجة والتأثير ..

وكلّما سرنا في ظلال " منهاج النبوة " كلّما تنسّمنا عبير وعبق النبوة .. واستروحنا أجواء نزول الوحي .. وعشنا أجواءً روحية راقية سامية ، باتباعنا خطى حبيبنا رسول الله .. وكأننا نسير خلفه مباشرة .. وحين نتلو الآيات .. نشعر ، وكأننا نسمعها من فم رسول الله الزكي الطاهر ، وقد نُزّلت عليه الآن غضةً طريةً .. حديثةَ عهدٍ بربّها .

1 - الراغب الأصفهاني ؛ مقدمة التفسير .

وبعيشنا تلك الأجواء وباسترواحنا لتلك النسائم .. عندها ، وعندها فقط .. قد نستشعر ، من بعيد ، مقدار حب وشوق الصحابة الكرام لرسول الله ، وقد شاهدوه وصحبوه .. وقد نتصوّر ، بعض آلام الفراق الذي ذاقوه عند وفاته وانقطاع نزول الوحي من السماء .

هذا .. والحمد لله رب العالمين .

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية **المجال الأول** ، من بيان :

كيف يكون التأسي في رسول الله **بتلقي الرسالة والسير بها ، بقصد تحقيق الغاية منها** ..

والمتعلق بـ " **الترتيل** " في **تلقي** آيات رسالة الله الخاتمة ، **وترتيب** القيام بأعمال السير ..

ويليه ، **المجال الثاني** ، والمتعلق **بالأعمال** نفسها وكيفية تنفيذها..

***

المجال الثاني : من حيث **الأعمال** نفسها وكيفية تنفيذها .. أي " **المعالجات** " التي قام بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أثناء السير ، أقوالاً وأفعالاً ..

وتتحدد معالم هذا المجال وأبعاده ، من خلال مناقشة النقاط التالية :

1 – المعالجات أثناء السير هي **الدّين نفسه** ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة :

– فهي مجموع ما دلّت عليه **آيات الكتاب** من إيمان وعمل صالح ودعوة ، فكراً وعملاً ، **مع ما قام به** الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم من قول وفعل وإقرار في **تطبيقها** في واقعه ، أو على واقعه ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد

– وهي التي **كُلّف** رسول الله تعالى **باتباعها** والاستقامة عليها ، فقد كانت الآيات تُنزّل عليه فيقوم بالبلاغ **تلاوة** ، **والبيان** لما جاء فيها من **معالجات** بتنفيذها في واقعه ، **والاستقامة** عليها ، أولاً بأول .. حتى تحققت الغاية من الرسالة :

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ هود

– وهي " **الحق** " الذي أوتيه رسول الله و" **التفسير الأحسن** " في كشف زيف الطاغوت وباطله ، وتثبيت الحق وأهله :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

وفي الجملة ، فإن **المعالجات** أو **الأعمال** أثناء السير هي **الدّين نفسه** ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً ، خطاباً وأفعالاً ، وقد **نفّذها رسول الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم **في واقعه** ، على **مكث** ، وحسب " ترتيل التلقي الأول " ، **كمعالجات للواقع الإنساني** (المناط) .. حتى إكمال الدّين لله عزّ وجلّ .

ومن ثَمّ ، فليس هنالك **أعمالاً شرعية مخصوصة** ، مرتبة ترتيباً معيّناً لسير الرسول بالرسالة ، تطبيقاً ودعوة ، بقصد تحقيق الغاية منها ، كما هو الحال في بعض العبادات الأخرى كالصلاة والحج مثلاً .. فالأعمال والمعالجات أثناء السير حسب " المنهاج " ؛ هي **الدّين** نفسه ، هي **عبادة** الله تعالى ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً .. وتُنزّل على الواقع الإنساني كمعالجات له .. ويكون التنزيل على **مكث** ؛ حسب " المنهاج " لجعلها حقيقة واقعة حتى إكمال الدّين (العبودية) لله . ومن هنا ، فـ " **المنهاج** " إنما هو بحثٌ في **الأولويات** ؛ في بيان كيفية تلقي الرسالة (الدّين) أولاً بأول .. على مكث ؛ مرتلة كماً وكيفاً ، للسير والحركة بها تطبيقاً ودعوة في الواقع الإنساني بقصد تحقيق الغاية منها ؛ إكمال الدّين لله ..

وبتعبير آخر ، " **المنهاج** " هو بيان **لكيفية** تنزيل **الدّين** – إيمان وعمل صالح ودعوة – **كمعالجات** للواقع الإنساني (المناط) **بقصد** جعل عبودية الناس ، أفراداً ومجتمعاً ، وفي جميع مجالات الحياة ، خالصةً لله سبحانه وتعالى ، والمحافظة عليها كذلك ..

ويمكن القول ، أيضاً : ((إن " **المنهاج** " هو " الوجه العملي للقرآن و بيانه ، مربوطاً بالزمان .. فهو الدّين المنظوم في الزمان ، فما في الوحيَيْن – القرآن والسنة – يمثل الإسلام كموضوع ومحتوى ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة .. وذلك عرضٌ للإسلام في الصورة التي انتهى إليها . أما " المنهاج " فهو يعرض ذلك نفسه، ولكن بطريقة تنمو وتتطوّر .. فكل ما قاله وفعله وطبّقه صلى الله عليه وآله وسلم بين نزول قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ العلق ، وبين نزول : ﴿ ..ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ .. ﴿٣﴾ ﴾ المائدة . أي بين لحظة بدء بعثة رسول الله إلى اقتراب آخر نزولٍ للوحي .. في تلك الفترة .. قال وفعل وطبّق كل ما نجده في الدّين ، لكن عبر زمان وعبر ظروف بعينها تطوَّر خلالها تطوُّراً حتى تحققت الغاية ، فقد كان رسول الله يعمل جاهداً على إحلال القرآن الذي كان يتنزّل على مكث ، ليجعله واقعا في الحياة التي كانت إذّاك تتشكل بالقرآن)) .

2 – وأن تلك **المعالجات للواقع الإنساني** كان يُعمل بها ضمن **مجالين رئيسين** أثناء السير :

- ✓ **تعليم وتزكية** وإعداد الجماعة المسلمة ثُم الأمّة المسلمة .. حتى إكمال الدّين لله جلّ وعلا .
- ✓ **مواجهة** ما كان يستجدّ من عقبات فكرية ومادية ، ومواقف مكر وكيد .. من الذين كفروا بأشكالهم وأنواعهم المختلفة ، أثناء السير لإكمال الدّين لله تبارك وتعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الصف

بل هما في الحقيقة ، أمر واحد ذو بعدين : بناء و هدم ؛ **بناءُ** كيان الأمّة المسلمة الخاتمة وإعدادها للمهمة التي وجدت من أجلها .. والتي بُعث الرسول الخاتم وأُنزلت الرسالة الخاتمة لتحقيقها ؛ ألا وهي إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض وتعبيد الناس لله تعالى وحده حتى قيام الساعة .. فتكون أمّة وسطاً شاهدة على الناس ، مستمرة في أداء مهمة الرسول الخاتم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ..
وفي نفس الوقت ، **هدمُ** وإزالة جميع العوائق التي تحول دون تحقيق تلك الغاية ؛ سواء المادية منها متمثلة بالكيانات التي تعبد الطاغوت ، أم الفكرية متمثلة بالشبهات والضلالات ، أم النفسية متمثلة بالشهوات .

3 – وكأصل عام ، فإن **الأدلة الشرعيّة** التي ينصبّ عليها البحث لتُستنبط منها **المعالجات** ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة ، خطاباً وأفعالاً .. هي :

- ✓ **آيات** القرآن المجيد ، **وسوره** .
- ✓ **الثابت والصحيح** من أفعال الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وأقواله ومواقفه (السنّة) في **بيان** ما دلت عليه الآيات والسور من معالجات ، أثناء حمله الرسالة – تطبيقاً ودعوة – لتحقيق الغاية منها.

وأما **ما لم يُحفظ** من أفعال الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وأقواله ومواقفه – سواء لم يصلنا أم وصلنا ولم تثبت نسبته لرسول الله – فلا يُعتبر دليلاً شرعيّاً ولا تُؤخذ منه عبادة . فلا تُعرف عبادة الله عزّ وجلّ – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – إلا بالدليل الشرعيّ ، أي بالوحي ؛ قرآناً وسنّة وما دلّا عليه من إجماع وقياس .

ومن جانب آخر ، فإن **عدم حفظ** ما لم يُحفظ من أفعال الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وأقواله ومواقفه ، **دليل قطعي** على أنه ليس فيه دلالة على العبادة ، وإلا حُفظ مع الدّين . فلا يمكن أن يُفقد شيء من الدّين (العبادة) ، فهو محفوظ بحفظ الله جلّ وعلا له .. فقد تكفّل الله تبارك وتعالى بنفسه حفظ القرآن الكريم – آياته وسوره – بوصفه **ذكراً** وتذكرة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر

والقرآن لا يكون ذكراً وفيه التذكرة والعبرة **إلا ببيانه** :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النحل

مما يقتضي **حِفْظ ذلك البيان** كما حُفظ القرآن نفسه ، **والسنّة** من بيان القرآن مما يعني أنّها **محفوظة** أيضاً [1]..

فكما حفظ الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بما أمر به النبيّ من ترتيبٍ وجمعٍ للآيات في السور ، وكتابةٍ لها. وبما حُفظ في الصدور **وتناقلته** أجيال المسلمين جيلاً بعد جيل **متواتراً** . وبما هَدى إليه الصحابة

1 - و " اللسان العربي " شرط في بيان القرآن : { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ **بِلِسَانِكَ** لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }(الدخان 58) . لهذا فأغلب ما سنقوله لاحقاً حول حفظ السنّة النبويّة يمكن أن يُقال عن " اللسان العربي " ، لأن الأصل في ثبوته هو النقل بالرواية عن العرب الأقحاح ، وحتى نهاية القرن الثالث الهجري ، وليس بالعقل ولا بالقياس . هذا ، والقرآن الكريم هو أهم أسباب حفظ اللغة العربية وبقائها . بالإضافة إلى أن اللغة العربية - بتقدير الله تعالى وحكمته - فيها من الخصائص والمقومات الذاتية ما يضمن استمرار بقائها وعدم فنائها. ومن أهمها : وجود قواعد ووسائل قياس وضبط لعلوم اللغة الأساس مثل علم الصرف أو الإشتقاق ، وعلم النحو أو الإعراب . و من أهم تلك الخصائص الحيوية أيضاً : وجود ما يُعرف بـ "الدلالة المحورية " للكلمة أو المفردة العربية ، بمعنى أنه رغم تعدد مشتقات اللفظة الواحدة ومن ثم تعدد معانيها ، فإن هنالك معنى واحداً أو معنيين تتمحور حوله دلالة كل المشتقات . وكتاب "معجم المقاييس" لإبن فارس قائم على بيان هذا الأمر. هذا ، وما حُفظ و ثَبُت من السنة النبوية ومن اللسان العربي ، فيه البيان للقرآن .. ولكن ، في إطار بيان القرآن لنفسه ، فبيان القرآن للقرآن هو الأصل وهو المرجع . وذلك ، بما جعل الله تعالى في القرآن الحكيم - المحفوظ نصّه ورسمه وترتيبه - من خصائص تجعل فيه الإمكان والقدرة على بيانه لنفسه وضبطه لدلالة ألفاظه. ومن أهم أدوات بيان القرآن لنفسه : الآيات المحكمات ؛ فهنّ أم الكتاب ، أي أصله وأسّه ، فيُردّ إليها غيرها. وأيضاً أداة "الإصطلاح" : وهي أن القرآن قد أعطى بعض ألفاظه معنى خاصاً زائداً على معناه في اللغة. وهي دائرة أخص وأضيق من دائرة اللغة لفهم دلالة الكلمة . وهو ما يُعرف بـ " عادة القرآن " في استعمال الكلمة المعينة أو " العرف القرآني " للمفردة العربية . وهناك تفصيل لهذه النقطة فيما يلي من البحث .

الكرام من جمعٍ ونسخٍ للسور في المصحف .. **كذلك** حفظ الله تعالى السّنة من **النقص** ، وحفظها من **الزيادة** بوصفها بياناً للقرآن ، وإن لم يكن **التواتر** شرطاً في ذلك ، كما دلّت على ذلك النصوص .. وما عليه جمهور علماء المسلمين [1] :

وأما حفظ السنّة من النقص ؛ فلا يمكن – بالقطع – أن يُفقد شيء مما قام به رسول الله من أعمال ، قولاً كان أو فعلاً أو إقراراً ، وفيه **بيانٌ** لشيء من القرآن (السّنة) .. و**بيان** لجزء من هذا الدّين الخاتم الذي تعبّدنا الله عزّ وجلّ به ، سواء بيان حكم من أحكامه أم فكر من أفكاره .. ذلك أن **فقدان** شيء من **بيان** القرآن **يتعارض** مع أصول شرعية يقينية قطعية ، منها :

- ✓ الغاية من بعث الرسول بالرسالة ، ألا وهي **إكمال الدّين** لله تعالى ، أي جعل عبودية الناس خالصةً لله . وفقدان جزء من الدّين يعني حصول نقص فيه ، مما يعني **عدم** إمكانية الوقوف على حكم شرعي أو معالجة شرعية لأمر ما أو حادثة معينة (مناط) مما يستجد من وقائع وأحوال في الحياة الإنسانية حتى قيام الساعة .. وعندها ، يُحكم فيها بغير دين الله جلّ وعلا وشريعته ، فيُعبد إله آخر غير الله – تعالى وتنزّه عن الشريك – في تلك الحادثة التي ليس لها حكم في دين الله تعالى .. وحينئذٍ ، فلا تكون عبودية الأمة كاملةً لله ، ولا يكون الدّين خالصاً لله . وعليه فلا يمكن أن يُفقد أي جزء من دين الله عزّ وجلّ .
- ✓ " البلاغ المبين " للرسالة ، فحتى **يفهم** المخاطَب مراد الله تعالى من كلامه ، يجب **بيان** مراد الله عزّ وجل لعموم المخاطبين من الناس . ولهذا بعث الله تعالى كل نبيّ ورسول **بلسان** قومه ليبيّن لهم :

﴿ .. وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل

والبيان الواجب ، له مجالين رئيسين :

– إقامة " الحجة الرسالية " على من أبى واستكبر :

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ... ﴿١٦٣﴾ ... رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ **لِئَلَّا** يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ **حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ** ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء

– بيان التشريعات والمعالجات الشرعية لمن آمن ، حتى يستقيم على أمر الله :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية

1 - أنظر مثلاً (حجيّة السنة) - د عبد الغني عبد الخالق .

ففي ما سبق – وغيره – **دليل قطعي** على أنه لا يمكن أن يُفقد جزء من دين الله تعالى ؛ القرآن وبيانه من السنة أو اللسان [1]..

وعليه ، فإن **ما لم يُحفظ** من الروايات التي فيها ذكر لأعمال أمر بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أو نهى عنها ، سواء فُقدت فلم تصلنا أم وصلتنا ولم تثبت نسبتها لرسول الله – عند أيٍ من علماء الحديث ولا بأي درجة من درجات الثبوت – **لا يجوز** أن يُستَدل بها على العبادة ، لأنها **ليست من الوحي.**

وأما حفظ السنّة من الزيادة ؛ فقد **قيّض** الله تعالى لها وفي مختلف العصور علماء جهابذة ، وفّقهم – بلطفه وكرمه – لإزالة ما ليس منها عنها ، وهداهم – برحمته وفضله – لتقعيد القواعد ووضع الضوابط العقلية منها والشرعية ، بما يضمن ذلك سواء من حيث السند أم المتن .. وقبل ذلك وبعده ، بما أنزل الله في القرآن الحكيم من آيات بيّنات ، وبما جعل فيه من آيات محكمات هن أم الكتاب .

ويَحسُن هنا ؛ في ختام هذه النقطة ، أن نشير إلى أنه لا تعارض بين حقيقة كون { أن السنّة محفوظة من الزيادة والنقصان } وبين القول : { أنه لا يُشترط القطعية في ثبوت السنّة } ، من حيث أن هذا القول مدعاة إلى الخلاف في تحديد ما هو من السنّة وما ليس منها ، مما يعني أن السنّة معرضة للزيادة أو للنقصان .. والحقيقة أنه لا تعارض بينهما ، وذلك :

- ✓ لأن العبرة **بمجموع** ما ثبت من السنّة عند **جميع** العلماء ، و بغض النظر عن درجة الثبوت ، وليس بما ثبت عند بعض العلماء ولم يثبت عند البعض الآخر، فما فات بعض العلماء استدركه آخرون [2].
- ✓ لأن الشرع – وله القول الفصل – قد أجاز عدم اشتراط القطعية في ثبوت السنّة كما يُفهم من عموم الأدلة ، فيما هو مبحوث في كتب الأصول .. وهذا من رحمة الله بالناس . لذلك فإن المسْلم يتعبّد الله تعالى بما **ترجّح** عنده من الأدلة الشرعية ظنية الثبوت ، وبما **ترجّح** عنده من فهم ودراية لتلك النصوص، إن كانت ظنية الدلالة .
- ✓ بالإضافة إلى أن عددَ ما اختُلف في ثبوته بين العلماء من مجموع السنّة ، قياساً إلى ما هو مُتفق على ثبوته منها – بغض النظر عن درجة الثبوت – يُعتبر قليلاً جداً .

هذا ، وعلى ما سبق من البيان – وكأصل عام – فإن الأدلة الشرعيّة التي ينصبّ عليه البحث لاستنباط المعالجات ، هي :

– **آيات** القرآن المجيد ، **وسوره** .

– **الثابت** من **السنّة** ، بما فيها من البيان .

1- أنظر (الرسالة) للإمام الشافعي ، وتعليق المحقق أحمد شاكر- رحمهما الله - (ص 42 – 44 / من الجملة 138- 145).

2 - أنظر المرجع السابق .

4 – وسنتعرّض – الآن – لبعض **الضوابط والأصول** في فهم الأدلة الشرعية ، وبما يسمح به المقام . وسنتكلّم بداية عمّا له علاقة في **السنّة** النبويّة ، وسنؤجل الكلام عن ضوابط فهم **القرآن الكريم** إلى القسم الثالث من البحث ، بإذن الله تعالى :

- أما **السنّة** : فهي كل ما صدر عن رسول الله من قول أو فعل أو إقرار [1] :

✓ و **أقوال** الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، تفهم حسب الضوابط والأصول المعتمدة في أصول الفقه في فهم دلالة القول والكلام ، اللغوية منها والشرعية .. من منطوق ومفهوم وعام وخاص ومطلق ومقيّد .. الخ . و نُحيل القارئ الكريم ، للاطلاع على تلك الأصول والضوابط إلى مظانّها من كتب أصول الفقه المعتبرة .

✓ و **إقرارات** الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم .. نرجو – كذلك – العودة إلى كتب أصول الفقه المعتبرة ، للاطلاع على ما يتعلق بها من قواعد وأصول .

✓ أمّا **الأفعال** التي قام بها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في **تطبيق** ما دلت عليه الآيات والسور من معالجات ، سنخصها بشيء من البيان :

الأصل العام في فهم **دلالة أفعال** رسول الله ، هو ما يلي :

إن **قيام** الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **بتطبيق** ما دلّت عليه الآيات من الأعمال أثناء السير في واقعه ، لا يعني ذلك **وجوب القيام بكل** الأفعال التي قام بها أثناء التطبيق ، بل يعني **وجوب الاقتداء والتأسي** فيه صلّى الله عليه وآله وسلّم بها ، **وبحسب حكمها** إن كان على الإباحة أو الندب أو الفرض . ذلك أن رسول الله لا يفعل حراماً ولا مكروهاً ، فكونه التزم أفعالاً وقام بها أثناء التطبيق فإنه يدل على **طلب** القيام بها **مجرّد الطلب** . ولا بد من قرينة تُعيّن درجة الطلب ، أي كونه على الوجوب أو الندب أو الإباحة . هذا في الأفعال التي **لم تأت بياناً لخطاب سابق** . وأما الأفعال التي **جاءت بياناً لخطاب سابق** فإنها تتبع المبيَّن في حكمه ؛ الوجوب أو الندب أو الإباحة [2] :

– ومن الأمثلة على الأفعال التي **لم تأت بياناً لخطاب سابق** ؛ الأفعال التي تكون فرعاً لـ فعلٍ أصل قد جاء له دليل عام . حيث إن من الأحكام الشرعيّة ما جاءت متعلقة بأفعال إنسانية مركّبة من أفعال فرعية ، وجاء دليل الفعل الأصل عاماً . عندها ينجرّ الدليل العام على جميع فروعه ، ويحتاج تحريم الفعل الذي هو فرع ، إلى دليل يحرمه حتى يخرج عن حكم أصله ويأخذ حكماً جديدا . ففي هذه الحالة تكون الأفعال الفرعية له إنما هي **وسائل وأساليب** لتحقيق الفعل الأصل ، أي الفعل الذي جاء الحكم الشرعيّ له، أي الذي جاء خطاب الشارع متعلقاً به (المناط) .

---

1 - أنظر تعريف السنة عند العلماء في كتاب (حجيّة السنة) - د عبد الغني عبد الخالق .

2 - للتفصيل : انظر (أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية) - محمد سليمان الأشقر جـ 1 . أنظر (الشخصية الإسلامية) جـ 3 ، ص 84 - 103 .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ الشعراء

حيث أنذر الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قريشاً كلّها وبشكل قوي ولافت للانتباه (الخطاب) ، وقام بأفعال وأقوال **يعتادونها** عند وقوع أمر عظيم وخطير ، مثل : الصعود على الصفا أو مكان عالي ، والمناداة بأعلى صوته ، وبألفاظ التحذير والتنبيه .. على بطون قريش ، فعمّ وخص .. كما جاء في الروايات المتعددة الثابتة [1] .

فالفعل الأصل : إنذار عموم قريش وبشكل قوي ولافت للانتباه . (الآية)

أما الأفعال الفرعية : الصعود على الصفا أو مكان عالٍ ، والمناداة بأعلى الصوت .. هذه لا يُنظر إليها **كأفعال** تحتاج إلى دليل شرعي خاص بها للحكم عليها ، لأن خطاب الشارع (الآية) **لم يأتِ متعلقاً بها** ، بل جاء متعلقاً بالفعل **الأصل** (أنذِر) ، فهي مما لزم لتطبيق الفعل الأصل حسب وصفه في الواقع المعيّن، فهي من **الأساليب والوسائل** للقيام **بالفعل الأصل** في الواقع المعيّن وحسب صفته المطلوبة ، فيجري عليها دليل أصلها ولا تحتاج لغيره .

إذن ، فالأفعال الفرعية هنا ليست مما يُبحث فيها عن الحكم الشرعيّ ، بل تدخل في **الأشياء** التي جاء النص **عاما** بإباحتها ولم يرد دليل **خاص** بحرمتها ، **فتبقى مباحة** . لذلك لا تدخل **مناط الحكم** الشرعيّ، وهو الموضوع الذي جاء الحكم الشرعيّ لمعالجته ، ولا هي محل انطباق الحكم الشرعيّ عليها [2] .

– ومن الأمثلة على الأفعال التي **جاءت بياناً لخطاب سابق** ، وتتبع المبيَّن في الوجوب أو الندب أو الإباحة : الأفعال التي تكون فرعاً لفعل أصل ، جاء دليل الفعل الأصل **خاصا بالقيام به** ولا يشمل كل فعل من أفعاله الفرعية . ومن ذلك الصلاة ، (وكذلك الحج) ففي هذه الحالة فإن اعتبار أي فعل أنه من أفعال الصلاة (أو الحج) لابد له من **دليل خاص** به ، لأن دليل الفعل الأصل لم يأت **عاماً** ، بل جاء خاصا بالقيام به ، فجاءت أدلة أخرى **لبيان** أفعاله الفرعية ، فقال رّسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : { صلّوا كما رأيتموني أصلي } [3] .. { لتأخذوا عني مناسككم } [4] .

لذلك عند النظر في أفعال الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أثناء السير لتحقيق غاية الرسالة ، أي الأفعال التي قام بها في تنفيذ ما جاءت به آيات القرآن الحكيم من معالجات في واقعه ، لابد من دراستها لمعرفة ما إذا كانت بياناً لخطاب سابق ، فتأخذ حينئذ حكم المبيّن .. وإذا لم تكن فينظر فيها لمعرفة درجة الطلب ، فيُقام بها حسب دلالتها ..

---

1 - انظر صحيح السيرة ، و صحيح أسباب النزول لـ ابراهيم العلي .
2 - أنظر " الشخصية الإسلامية " جـ 3 .
3 - صحيح البخاري .
4 - صحيح الجامع الصغير .

وعلى هذا الأساس يمكننا التفريق بين الأفعال التي يجب فيها الاقتداء بالرسول ، وبين التي لا يجب .. والأفعال التي يجب فيها الاقتداء ، يمكننا معرفة ما إذا كانت على الفرض أم على الندب أم الإباحة ..

بمعنى أنه عند النظر في أفعال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أثناء السير ، يجب أن يُفرّق **دائماً** بين ما هو من " **المنهاج** " (العبادة) ، وبين **ما يلزم لتطبيق** " المنهاج " في واقع معين ، أي من الأساليب والوسائل [1] .

هذا ، وفي ما سبق من البحث ، قد بيّنا أن ما قام به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من أعمال **أثناء السير** ، إنما جاءت كمعالجات لما كان **يُستجد** من **أحداث ووقائع** (المناط) أثناء السير لإكمال الدّين لله تبارك وتعالى . وأن كل معالجة منها كانت تأتي لمناطها المتعلقة به ، وقد قام بها رسول الله ونفذها كمعالجة لذلك المناط المعين ، سواء كان في عبودية المسلمين لله جلّ وعلا من تعليم وتزكية ، وتدرّج في مراتب العبودية ؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة ، جماعة وأمّة .. أم في تفاعل " فكرة الرسالة " في المجتمع الجاهلي وموقفه منها ..
فهذا هو واقع الأمر وهو ما حصل فعلياً مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في سيره . وهذه هي طبيعة المعالجات الشرعيّة ، فهي أحكام على وقائع ، ولكل واقع (مناط) حكمه الخاص به ، ولا يُقاس عليه غيره في نفس الحكم إلا لعلة شرعيّة مشتركة بينهما .

لذلك لاحظ التعريف الجامع المانع للحكم الشرعيّ الذي اتفق عليه علماء الأصول ، بأنه :
((خطاب الشارع المتعلّق بأفعال العباد ، إقتضاء أو تخييراً أو وضعاً)) [2] .. فلكل **فعل** من أفعال الإنسان له حكمه الشرعيّ الخاص به ، وأيضا لكل شيء من الأشياء المتعلقة بتلك الأفعال حكمه الشرعي الخاص به .. فالدّين (العبادة) إنما جاء لمعالجة الواقع الإنساني (المناط) بكافة علاقاته ومجالاته وأبعاده المتنوعة ؛ الفردية والمجتمعية ..

وعليه ، فيكون النظر في ما قام به الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم من أعمال في تنفيذ المعالجات على مناطاتها ، حسب التالي :

- أن كل معالجة (معالجات) جاءت لمناطها الخاص بها ،
- وحسب ما كان يُستجد من أحداث ومواقف (مناط) أثناء السير لإكمال الدّين لله تبارك وتعالى .
- ومن ثم يُنظر في دلالة تلك الأعمال المعينة :

✓ فإن كانت بياناً لخطاب سابق ، فتأخذ حينئذ حكم المبيّن (مثل أفعال الصلاة و الحج) .

---

1 - انظر (أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية) - محمد سليمان الأشقر . أنظر (الشخصية الإسلامية) جـ 3 ، ص 40 – 43 .
2 - انظر ، مثلا : " السيل الجرار" للإمام الشوكاني و " الواضح في أصول الفقه " .

✓ وإذا لم تأت بياناً لخطاب سابق ، فلا بد من قرينة تُعيّن درجة الطلب ، للقيام بالأعمال حسب حكمها إن كان مندوباً أو فرضاً أو مباحاً ، فنتأسّى في الرسول الكريم بها ، حسب حكمها إن كان على الفرض أو الندب أو الإباحة .

ومن الأفعال التي يكون التأسي في رسول الله بها على الإباحة (التخيير) :

– كأن تكون ممّا يلزم القيام به لتنزيل المعالجة على المناط المعيّن ، وحسب وصفها الشرعيّ ، في الواقع الإنساني المعيّن ، وهو ما يُعرف بـ الأساليب والوسائل . مثل تنفيذ رسول الله لقوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ الشعراء .. كما أسلفنا . ومثل تعيينه **الحبشة** للهجرة إليها .. وكذلك **الطائف** لدعوة أهلها وطلبه الحماية منهم ، ليستمر في بلاغ رسالة ربه ..

– أو التي جاء النص أنها على الإباحة .. مثل عموم الأكل والشرب و المشي والسفر ..

– أو التي ثبت أنها ليست من الوحي ، بل من رأي الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم وتجربته ، في مثل تأبير النخل ، واختيار مكان الجيش في غزوة بدر الكبرى .. وغيرها .

ومن الأفعال ما يخرج من دائرة التأسي :

– كأن تكون مما خص الله به رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم من أحكام ..

– أو أن تكون من أفعاله أو صفاته الجبلّيّة الخَلْقية [1] ..

والمقصود من ذكر ما سبق من التأصيل ؛ هو **بيان ضرورة العلم** بالضوابط التي يكون على أساسها التفريق بين ما هو من " **المنهاج** " (العبادة) ، وبين **ما يلزم لتطبيق** " **المنهاج** " في واقع معين – أي الأساليب والوسائل – عند النظر في الروايات الثابتة عن رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلّم في وصف أعماله أثناء سيره لتحقيق الغاية من الرسالة ، لأن العبرة بعموم اللفظ (النص) لا بخصوص السبب .. أي أنه ، لا بد من التفريق بين ما يجب الاقتداء فيه بالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وبين ما لا يجب. والأفعال التي يجب فيها الاقتداء لا بد من بيان حكمها إن كان على الفرض أو الندب أو الإباحة ..

هذا ، ونقرر هنا ، أن **الأمر الجامع في ضبط** هذا التفريق وبيانه في " **المنهاج** " ، هو " **التسوير** " .. كما سنبيّنه في القسم الثالث من هذا البحث ، بإذن الله .. ذلك أن القرآن هو الأصل في حركة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وسيره بالرسالة ، كما أسلفنا .

# # #

1 - وما سبق ، له تفصيله وأدلته في مظانـه من كتب علم أصول الفقه ، أنظر (أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية) - محمد سليمان الأشقر .

ج – خلاصة الجولة السابقة التي قمنا بها في كِلا المجالين ؛ " الترتيل " و " المعالجات " :

وفي ختام الجولة السابقة التي قمنا بها لفهم كيف يكون الاقتداء برسولنا الكريم في تلقي آيات رسالة الله الخاتمة حتى تحقيق الغاية منها ، سواء في " **الترتيل** " أم في " **المعالجات** " ، يمكن **إجمال** القول بأن الاقتداء به – عليه وآله الصلاة والسلام – يكون في ما يلي :

1 – **الالتزام بالمعالجات** الشرعيّة (الأمر الشرعي) [1] ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً ، خطاباً وأعمالاً ، وحسب **حكمها** إن كان على الفرض أو الندب أو الإباحة ..

وفي **كيفية** تطبيقها على الوقائع والأحداث (المناط) **المتعلقة** بها ، **حين حصولها** ، وحال حدوثها..

كما بيّنها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. من البداية حتى تحقيق الغاية .

سواء كانت في إطار **عملية تعليمٍ وتزكيةٍ** وإعدادٍ للجماعة المسلمة ، ثم الأمّة المسلمة .. أم في إطار **عملية مواجهة** لما كان يستجدّ من عقبات فكرية ومادية ، ومن شهوات وشبهات ، أو مواقف المكر والكيد .. من الذين كفروا بأشكالهم وأنواعهم المختلفة ..

2– وأما **التتابع** (الموالاة) **والترتيب المفصل** للأعمال الذي حصل مع رسول الله أثناء السير ، فلا يدخل في دائرة الاقتداء ، لأنه ترتيب **سننيّ** وليس ترتيباً **شرعياً** ، فهو متوقف على طبيعة الواقع الإنساني (المجتمع) آنذاك ، وعلى ردة فعله من الحق وأهله .. وقد بلغه الحق بلاغاً مبيناً ..

ومن هنا ، فليس هنالك **ترتيب مفصّل** لأعمال السير بالرسالة ، لا **شرعيّ** ملزم ، ولا **سننيّ** واجب الحدوث .

والحمد لله رب العالمين ..

والآن إلى القسم الثالث – والأخير – من هذا البحث ..

[1] ـ المعالجات الشرعية هي : ما يُفهم من دلالة الدليل الشرعي حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً ، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة . فهي أعم من الحكم الشرعي المتعلق بأفعال العباد ، ومتضمنة له ، فهي تتعلق بالفكر أيضاً ؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو ، أم بالحكم على وجوده من عدمه ، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا ، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي .

القسم الثالث

كيفية الاستدلال بــ " التسوير " على " المنهاج " .

أ – تمهيد :

عرفنا أنه لا بد من أن ينصبّ البحث على النصوص الشرعيّة من القرآن والسنّة ، لفهم ما دلّت عليه من **منهاج** ومن **معالجات** ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة ، خطاباً وأفعالاً .. وذلك حسب الأصول والقواعد اللغوية والفقهية المعتمدة والمعتبرة في أصول الفقه ، والتي لها أدلتها من اللغة والشرع . وقد تناولنا بعضها في ما يلزم في ضبط فهم أفعال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

إلا أنه عند التعامل مع القرآن المجيد لفهم دلالة آياته على **الكيفية الشرعيّة** الثابتة لتلقيه من أجل تحقيق الغاية منه ، أي على " المنهاج " .. هنالك **ضابط** لا بد من مراعاته ، ألا وهو " التسوير " . وهو **ضابط أصل** ، حيث تبيّن لنا – في ما سبق من البحث – أنّ النظر إلى السورة كوحدة واحدة يعطي آياتها دلالة زائدة عن دلالتها كآيات فقط ، مفردة أو مجموعة . وأنّ فهْم دلالة " **السورة** " على " المنهاج " **لازم** كفهْم دلالة **ألفاظها وآياتها** ، سواء بسواء ..

ذلك أن " التسوير " هو **الترتيل الشرعيّ** والوحيد الذي **كُلّف** به الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فهو **وحي** من الله جلّ وعلا . وقد **تعبّدنا** به الله جلّ وعلا ، **ولم يتعبّدنا** بترتيل آخر لا قبله ولا بعده .. وأمرنا بالتمسك به ، تلاوة و دلالة : ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ الزخرف .

- أما التمسّك بترتيب الآيات في السورة أثناء التلاوة .. فمعروف ..
- أما الأمر بالتمسّك (الإلتزام) بدلالة السورة فهذا يعني أنّ النظر إلى السورة كوحدة واحدة يعطي آياتها دلالة زائدة عن دلالتها كآيات فقط .. ويؤيّد ذلك :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء ، فالحث على تدبّر القرآن عام يشمل القرآن كلّه ؛ سواء تدبّر آياته – فرادى آية آية أو مجموعة آيات – أم سورة كاملة . فالقرآن المجيد ليس مجموع الآيات فقط ، بل هو آيات الله تعالى ، ومرتبة ترتيباً معيّناً (التسوير) ، هذا هو القرآن . لذلك فإن **تدبّر** " السورة " كوحدة واحدة وفهم دلالتها على " المنهاج " ، جزء من تدبّر القرآن ، وله من الأهمية مثل أهمية **تدبّر** الآية أو الآيات ، سواء بسواء .. فكلاهما من القرآن .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء ، يؤكّد حقيقة أن القرآن فيه الهداية للأحسن والأعدل . فالدلالة على الهدى متحققة في القرآن **كله** ؛ آياته ، وسوره .. فهذا هو القرآن؛ آيات مرتلة في سور .. فكما أن الآيات – الواحدة أو المجموعة – فيها دلالة للتي هي أقوم .. فإن السورة الواحدة ، فيها – أيضاً – دلالة للتي هي أقوم .

وعليه ، فإن البحث والنظر في **تسوير** الآيات القرآنية ، أي النظر إلى السورة كوحدة واحدة .. إنما هو بحث في **واقع** الدليل الشرعيّ وسياقه وطبيعته التي جعله الله تعالى عليها لبيان مراده .. فهو بحث شرعيّ ، ويتحقق بالتفكّر العميق في **السورة** و **آياتها** بحسب القواعد والأصول اللغوية والشرعية المعتبرة، وفي ضوء " فكرة الرسالة " و " غايتها "، وضوء " الآيات المحكمات " .. لسبر [1] غور السورة واستكشاف خصائصها التي **جعلها** الله تعالى عليها ، لنكون أقدر على فهم **مراد الله** تبارك وتعالى من كلامه .

وسنشرع الآن في بيان هذا الأمر .. قدر المستطاع .. ولكن ، وقبل ذلك ، لا بد من إيضاح نقطتين متعلقتين بـ " التسوير " ، وهما :

النقطة الأولى ؛ " التسوير" هو من الأدلة على " المنهاج " ، وليس " ترتيب السور" في المصحف :

الكلام في ما سبق حول " **ترتيل آيات** الرسالة " .. المقصود به هو " التسوير " فقط ، أي جعل **آيات معينة مرتلة في سورة واحدة** ، دون ترتيب **السور في المصحف** . فترتيب **السور في المصحف** لا يُستدل به على موضوع هذا البحث : كيفية تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة (المنهاج) . ذلك أن اعتبار ترتيب **السور في المصحف** أمر توقيفي (من الوحي) أم لا ، قد اختلف علماء المسلمين فيه لعدم وجود **نَص شرعي** صريح بذلك ، إنما هي إشارات وإيماءات .. و أقوى ما يُقال فيه : أنه تم بإجماعٍ من الصحابة رضي الله عنهم ، وإجماعهم دليل شرعي أو يكشف عن دليل شرعي ، كما هو وارد في أصول الفقه .. وعلى أية حال ، فعند النظر في الروايات الواردة في ذلك ، نجد أن الدافع **الوحيد** لفعل الصحابة والغاية منه إنما هو الحفاظ على القرآن الكريم من الضياع ، **وليس أمراً آخر** ..

وقد كانت البداية بعد مقتل عدد كبير من الصحابة حَفَظة القرآن الكريم ، في حروب الردة في خلافة أبي بكر ، فخاف كبار الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – **على آي القرآن وسوره من الضياع** ، فعمدوا إلى **جمع سور القرآن** كلّها – **المرتبة آياتها سابقاً** بنصّ الوحي – في **صُحُف مجموعة** مع بعضها البعض ، بعد أن كانت متفرقة .. محافظةً عليها من الضياع .

هذا ، وبعد توسّع الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان رضي الله عنه ، ودخول خلق كثير من غير الناطقين باللغة العربية في دين الله جل وعلا ، ظهر خلاف شديد في قراءة آي القرآن الكريم بين المسلمين في الأمصار ، **فخاف الصحابة على آي القرآن وسوره من التغيير والضياع** ، فعمدوا رضي الله عنهم ، إلى **تلك الصُحُف** من عهد أبي بكر ، وجعلوا منها **مصحفاً** واحداً إماماً ، واتخذوا من ذلك المصحف الإمام نُسَخاً لتكون أمهات وأصولاً يُرجع إليها ، وأتلفوا كلَّ ما سواها ، رفعاً للخلاف وتوحيداً للأمّة المسلمة.

وكان **ترتيب السور في المصحف** – بشكل أساس – على حسب طول السورة وعدد آياتها ، فكانت :

---

1 - السبر : هو تتبع جزيئات الموضوع للوصول إلى تصور صحيح لكامل عناصر ذلك الموضوع أو معظمها . (آيات عتاب المصطفى) - عويد المطرفي .

السبع الطوال ، والمئون ، والمثاني ، والمفصّل [1] ..

فترتيب السور في المصحف – وإن كان توقيفياً – فهو **خاص** بالحِفاظ على آي و سور القرآن الكريم من الضياع ، فهذا هو موضوعه والغاية منه .. لذلك لا يُستدل **بترتيب السور في المصحف** على **طريقة التلقي** للرسالة والسير بها لتحقيق الغاية منها (المنهاج) ، فهو واقع (مناط) آخر يختلف عن واقع (مناط) حفظ آي القرآن من الضياع ، فلا يُستدل على **المناط المعيّن** إلّا بالأدلة ذات العلاقة به ، **وترتيب السور في المصحف** دلالته متعلقة **بحفظ** القرآن من الضياع وأنه لا يزال – وسيبقى – محفوظاً بحفظ الله جلّ وعلا ، سواء نصه أم تسويره أم منهاجه [2]، ولا علاقة له **ببيان** " المنهاج " فلا يُستدل به عليه .

النقطة الثانية ؛ "التسوير" له دلالة (دلالات) أخرى غير مجرد الحفظ للآيات :

إن **حفظ الآيات** ، مُجرّد الحفظ ، ليس وحده المقصود من ترتيل الآيات في سور (التسوير) ، كما هو الحال من ترتيب السور في المصحف .. ف الله تبارك وتعالى عندما حفظ آيات رسالته الخاتمة ، حفظها بأن جعل لها ترتيباً معيّناً ومقصوداً ، وبغض النظر عن ترتيب وتسلسل التلقي الأول ، وذلك ؛ بجعل عدد محدد من الآيات ضمن مجموعة واحدة منسجمة ، هي " السورة " ، وهذا هو " التسوير " . فهو حفظ للآيات ولكن بترتيب مقصود وضمن نسق معين ، أي ترتيل معين ، و به كان التحدي ، **ونحن متعبَّدون به تلاوةً ودلالةً** .. وهذا أمر له **دلالة (دلالات) أخرى** إضافية غير **مجرّد الحفظ** .

أما وأنه لم يرد دليل **يخصص دلالة** ترتيب الآيات في سور ، في **الحفظ فقط** (كما هو الحال في **ترتيب السور في المصحف** الذي نصّت مروياته على أن موضوعه والغاية منه هو **فقط الحفاظ** على آي وسور القرآن الكريم من الضياع) فما دام الحال كذلك فإن الأمر مفتوح أمام المسلمين في مختلف العصور ، لـ سبر غور " التسوير " وتدبّره لاستكشاف ما يمكن استكشافه مما يدل عليه :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾الإسراء

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾النساء

وعلى هذا ، قلنا – كما بيّنا سابقاً – أن ترتيل الآيات في سور (التسوير) ، من الأدلة على طريقة تلقي الرسالة الخاتمة والسير بها لتحقيق الغاية منها (المنهاج) ، وأنّ فهْم دلالة **السورة الواحدة** على " المنهاج " ، **لازم** كفهْم دلالة الألفاظ و **الآيات** فيها ، سواء بسواء ..

# # #

1 - أنظر كتب علوم القرآن .

2 - انظر مثلاً أبحاث الترابط العددي بين الآيات والسور حسب ترتيبها في المصحف ؛ مثل أبحاث عبدالله جلغوم .

ب – خطوات فهم دلالة "التسوير" على " المنهاج " :

فلتعلم **أن فهم دلالة** السورة على " **المنهاج** " ، يمرّ في ثلاث خطوات :

الخطوة الأولى :

النظر في دلالة الألفاظ والكلمات [1] ، والجمل ، والتراكيب .. الواردة في آيات السورة الواحدة .. لغة وشرعاً.. وهذا هو الحد الأدنى من العلم اللازم للنظر في النصوص الشرعيّة .

***

الخطوة الثانية :

النظر إلى **السورة الواحدة** على أنّ لها **سياقاً واحداً** [2] ، تُفهم في إطاره **دلالة** الألفاظ والجمل والآيات التي وردت فيها ، فالسورة مترابطة ومتماسكة بحيث تُعتبر " **وحدة منهاجية** " واحدة ، وتشكّل **جزءاً** من " المنهاج " **الكامل** للسير بالرسالة لتحقيق الغاية منها، وهذا هو " **الفهم المنهاجي** " للسورة .

ويتحقق ذلك من خلال النظر إلى السورة وما يرد فيها من **مواضيع** الدّين (العبادة) ، من إيمان وعمل صالح ودعوة ، وما يُستخدم من **وسائل** العرض **وأساليب** البيان والتأثير .. النظر إليها وتلقيها **كمعالجات** لما **يواجهه** حَمَلة الرسالة أثناء **السير العملي** بالرسالة حتى تحقيق الغاية منها . وهذا هو المقصود من التسوير – **أصالة** – وليس المقصود منه أن يكون للسورة " **وحدة موضوعية** " ، فالدّين لم يُعرض في سور القرآن الكريم **مبوباً** حسب **الموضوع** ، مثل أسلوب التأليف البشري للكتب ، كما في كتب الفقه وغيرها ، وهذا ظاهر . وإليك شيء من التفصيل في ما يلي من النقاط :

1. بالرغم مما قد يرد في آيات السورة الواحدة من **تنوّع** في **المواضيع** والأفكار ، **وتنوع في وسائل** العرض والتأثير ، **وأساليب** البيان والتعبير .. إلا أنها **ينتظمها** أمر واحد ، **وتنسجم** فيما بينها وتتسق حتى تلتقي فيه كأمر جامع (إطار) لها ، وهو : كونها **معالجات** لـ " مناط السورة " ، وهو **: حالة** أو **موقف**

1 - ومن المراجع المهمة في هذا الباب :
- الأبحاث التي تبيّن "الدلالة المحورية" للكلمة ، وأبرزها (معجم المقاييس) لإبن فارس. وكتاب : (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل .
- الأبحاث التي تبيّن معاني مفردات القرآن، وأهمها مفردات الراغب، ومفردات الفراهي وأبحاثه الأخرى في هذا السياق.
- الأبحاث التي في إطار "الدراسة المصطلحية" لكلمات القرآن الكريم، فالمصطلح القرآني هو : "اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة التي له في اللسان العربي ، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة" .

2 - الأصل في معنى السياق هو : الغرض الذي سيق لأجله الكلام . وفي الإصطلاح هو : الغرض الذي ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية (المقامية). أنظر (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة . وقد يُعبّر عنه بـ " مقصد السورة " .

مما يواجهه المؤمنون – جماعة أو أمّة – في عملية تعليمهم وتزكيتهم ومواجهتهم للعقبات .. أثناء **سيرهم** لتحقيق الغاية من الرسالة . فيُعتبر ما يواجهه المؤمنون أثناء السير هو " **المناط** "[1] الذي جاءت السور بمجموعها لمواجهته ومعالجته . وجاءت كل سورة **كوحدة واحدة** لمعالجة ما يخصها من تلك المواقف والحالات ، ألا وهو " مناط السورة " ..

فيُفهم ذلك التنوع في الموضوع والأسلوب الوارد في السورة ، في **إطار** كونه بيان **لمعالجة** مناطها . بمعنى أن **بيان معالجات** " **مناط السورة** " هو " **مقصد السورة** " .. فكل ما ورد في السورة ، سواء من حيث **الموضوع** أم من حيث **وسائل** العرض **وأساليب** البيان ، إنما جاء **ليحقق** " مقصد السورة " .

إذن ، ففي السورة أمران ؛ الأول : ما ورد فيها من أفكار ومواضيع وأحكام ، وأساليب بيان وتأثير .. وهو ما يمكن أن نسميه " **محتوى السورة** " موضوعاً وأسلوباً . والآخر : كون هذا المحتوى ، مسوقاً من أجل **غرض** معين وتحقيق **مقصد** بعينه ، هو " مقصد السورة " ، أي **الغرض** الذي من أجله ورد هذا الجزء من الموضوع المعين ، وبهذا الأسلوب المعين ، في هذه السورة بعينها .. ألا وهو بيان المعالجة (المعالجات) لـ " مناط السورة " .

فلا بد من التمييز – عند النظر في السورة – بين " **محتوى السورة** " من حيث الموضوع ووسائل العرض وأساليب البيان ، وبين **الغرض** (القصد) الذي من أجله جاء هذا المحتوى في هذه السورة ؛ فهو جاء **كمعالجة** (معالجات) لـ " مناط السورة " .

وعليه ، فإن ما يُعرف بـ " **الوحدة الموضوعية** " للسورة ، وهو أن ما ورد في السورة يتمحور حول موضوع واحد .. لا يصلح أن يكون هو " **مقصد السورة** " أو " **سياق السورة** " . فما هو إلا بحث في " **محتوى السورة** " من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب .. وهو شكل من أشكال الأسلوب القرآني الذي كان فيه التحدي .. فهو من الوسائل الموصلة إلى " مقصد السورة " ، والذي يؤدي بدوره في النهاية إلى تحقيق الغاية من الرسالة كلها ..

فليس المقصود بالأصالة من " **التسوير** " ، أي من جمع آيات محددة في سورة معينة .. أن يكون لتلك السورة " **وحدة موضوعية** " .. بل الأصل في ذلك أن يكون في إطار تحقيق الغاية من الرسالة ، بأن تشكّل السورة جزءً من " **المنهاج** " **الكامل** للسير من أجل جعل الرسالة حقيقة حية في الواقع الإنساني وتحقيق العبودية لله في الأرض ، عن طريق إيجاد الأمّة المسلمة القادرة على تحمّل مسؤولية الرسالة الخاتمة والقيام بأعبائها ، تطبيقاً ودعوة .. وهذا هو " **الفهم المنهاجي** " للسورة [2] .

1 - المناط : هو ما أناط ، أي علّق ، الشارع الحكم عليه ، أي المسألة التي ينطبق عليها الحكم الشرعي . (الواضح في أصول الفقه) لـ محمد حسين عبدالله . فمناط الحكم الشرعي هو الشيء الذي جيء بالحكم له ، فالحكم متعلق به .

2 - وفي النقاط التالية من البحث بيان أكثر لمعالم هذا " الفهم المنهاجي " ، بإذن الله تعالى وهو الهادي سواء السبيل .

2. لذلك ، عند فهم دلالة السورة على " المنهاج " ، **لا بد** من معرفة وتحديد " مناط السورة "، **أي** معرفة **الحالة** أو **الموقف** من السير الذي جاءت السورة لمعالجته ..

ومن أجل ذلك ينبغي أولاً : فهم طبيعة السير في الرسالة لإكمال الدّين لله ، بمعرفة **سننه** التي تحكمه ، وفهم مراحله وخطواته [1] . وثانياً : التدقيق في السورة نفسها ، **موضوعاً** و **وسائل عرض و أساليب بيان** .. لمعرفة ما ورد فيها من دلالات أو إشارات إلى الطور أو المرحلة من السير ، أو الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي جاءت تعالجه .. ومن القرائن المهمة في ذلك ، الروايات الثابتة التي فيها دلالة أو إشارة إلى زمن نزول السورة .

3. و مما قد **يرد** في **السورة الواحدة** من أفكار ومواضيع أو من وسائل العرض وأساليب التعبير.. ويكون ذا أثر مباشر في معرفة الطور وتحديد **المناط** أو فهم **المعالجة** ، وعلى طول خط السير ، سواء في ما قبل التمكين (في مكة) ، أم بعد التمكين (في المدينة) .. ما يلي :

- ✓ القصة ، أو الحلقة المعروضة منها، من حيث صياغتها والفكرة التي أبرزتها لمعرفة مقصدها والحكمة منها، أو الأمر البارز فيها، فقد يكون هو المناط أو يُرشد إليه أو إلى معالجته .. فالقصة أو الحلقة منها ، لم يرد ذكرها إلا لأن حالةً أو موقفاً أو شخصاً ، مما ذُكر فيها ، له شبيه أو مثْل في الواقع الإنساني زمن الرّسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أي حين نزول الآيات التي ذُكرت فيها تلك القصة أو الحلقة منها .. لذلك لا تجد تكراراً للقصص في السوَر المختلفة ، بل إن كل سورة تناولت القصص **بالشكل والمحتوى** الذي يحقق معالجة الحالة أو الموقف (المناط) الذي هي بصدد معالجته حال حدوثه في طوره ومرحلته من السير .

- ✓ أسماء الله تعالى الحسنى ، وآثارها في الآفاق والأنفس .. وأيُّها البارز ذكرها.. أو التي تكرّر ذكرها.. فما ذُكر منها في السورة إنما جاء ليحقق معالجة مناطها .. ((وإذا تأمّلت ختْمَ الآيات بأسماء الله جل وعلا ، وجدت كلامه مُختَتَماً بذكر الاسم الذي يقتضيه ذلك المقام ، حتى كأنه ذُكر دليلاً عليه وموجباً له)) [2] ، من حيث أن الله جلّ وعلا هو وحده **الإلـه** الحق ، **صاحب الأمر** النافذ في الوجود **قدراً و شرعاً** ..

قدراً ؛ في سياق الخلق والتقدير ، أو الرحمة أو العذاب ، أو القوة والسلطان والتدبير والقوامة .. وبيان **سنن الله** تعالى في ذلك كله ..

وشرعاً ؛ في سياق بيان الأفكار والأحكام والمعالجات الشرعيّة التي تَعبّد الله جل وعلا بها المسلمين – أفراداً وأمة ومجتمعاً – في تنظيم جميع شؤون حياتهم وعلاقاتهم بأنفسهم وبغيرهم ..

1 - وقد بيّنا بعضاً منها في القسم الأول ، وسنفصّل أكثر في هذا القسم .
2 - أنظر (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر) - ابن القيم .

- ✓ نوع الجزاء – الثواب والعقاب – وطبيعته ووصفه .. ومواضع التفصيل فيه أو الإجمال والإشارة .. سواء في الدنيا أم في الآخرة .. حيث يأتي منسجماً ومتناسباً – في حكم الله تعالى – مع العمل أو الموقف الحاصل فعلاً (المناط) المراد معالجته .. فالجزاء من جنس العمل .. لذلك نجد التنوع البديع الفريد ، في السور المختلفة في عرض أهوال يوم القيامة ، و مواقف الحساب ، ومشاهد النعيم والعذاب في الجنة والنار.. تبعاً لاختلاف الحالة أو الموقف من الواقع الإنساني (المناط) المراد معالجته . وكذلك الأمر بالنسبة للجزاء في الدنيا ، في ما ذكره الله تعالى في عقابه أو ثوابه للأمم السابقة ؛ من آمن منهم ومن كفر ، أفراداً أو جماعات ، قرى (مجتمعات) أو أمماً .
- ✓ الأوصاف أو الصفات التي تُطلق على المخاطَبين ، سواء كانوا من المؤمنين وحسب ترقيهم في مقامات العبودية وحتى إكمالهم الدّين لله جل وعلا .. أم من الكافرين وحسب تطوّر شدة عدائهم لله ولرسوله والمؤمنين ، وبأشكالهم المختلفة من مشركين ومنافقين و أهل كتاب ؛ يهوداً ونصارى .. وكذلك أسلوب الخطاب ودرجته وشدته .. حيث يمكن اعتبار أن كل صفة وردت أو وصف ذُكِر، إنما هو تحديد لمقام أو تعيين لمرتبة بيّنة لها صفاتها وخصائصها التي تميزها عن غيرها في " **العرف القرآنيّ** "[1] ، مثل: المتقين ، المحسنين ، المخبتين ، حزب الله .. في وصف المؤمنين .

  وأيضاً، مثل : المجرمين ، الظالمين ، الفاسقين ، المفسدين ، حزب الشيطان.. في وصف الكافرين.

  وكذلك الأمر في وصف العلاقة وتطوّرها بين الفريقين ، مثل : خصمان ، المشاقّة ، المحادّة ، العداوة، البغضاء ، الموالاة ، البراءة ، الإعراض ، النأي ، التولّي .. الخ .
- ✓ الألفاظ التي تكررت في السورة ، أو الألفاظ التي تفرّدت بها ، كإشارة لأمر أو فكرة معينة قد تكون هي المناط أو تُرشد إليه أو إلى معالجته ..
- ✓ مواضع الاستفاضة أو الإجمال ، التركيز أو الإشارة إلى الأفكار والمواضيع ..
- ✓ الآيات الأولى من السورة ، في عدد من السور ، تأتي كمدخل عام لها أو كخط عريض .. والآيات الأخيرة كخاتمة لها أو تلخيص ، أو كموقف (فكر أو عمل) مطلوب الآن ، يُراد بيانه لتنفيذه ..
- ✓ القَسَم ، وجواب القسَم كأسلوب تأكيد وبيان .. فقد يكون موضوعه هو المناط أو يُرشد إليه أو إلى معالجته ..
- ✓ الثابت والصحيح من روايات أسباب النزول ، للسورة أو لبعض آياتها .. أو ما ثبت من روايات في إطار تطبيق ما ورد في السورة من معالجات – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً – على الحدث (المناط) الحاصل ..

---

1 - "العرف القرآني" : هو أن يُضفي القرآن الكريم على الكلمة دلالة إضافيةً أو معنى خاصاً ، زائداً على معناها في لسان العرب، سواء في القاموس أم في العرف. ويأتي في مقابل " العرف اللغوي " . وهو ضرب من الإصطلاح القرآني . [والمصطلح القرآني هو : ذلك اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة له في اللسان العربي ، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة] . د الشاهد البوشيخي نقلاً عن بحث لـ د محمد البوزي (الدراسة المصطلحية وموقعها في مناهج التجديد في تفسير القرآن الكريم) .

4. هذا ، و**المناطات** (الحالات أو المواقف) **تختلف** اعتماداً على أطوار السير وخطواته ومرحلته، فيما قبل التمكين أو بعد التمكين . وكذلك تختلف الجهة من المؤمنين المكلَّفة بالمعالجات ؛ بوصفهم أفراداً أم جماعة أم أمّة مسلمة . لذلك ، فإنه تبعاً لاختلاف **المناط** ، **والمرحلة** التي وُجد فيها، واختلاف **المكلّف** .. تختلف **المعالجات** ، ويختلف **التنوّع** في الموضوع والأسلوب من سورة إلى أخرى ، الأمر الذي يجعل لكل سورة خصوصيتها وطابعها الخاص بها في ما تتناوله من مواضيع الدّين (العبادة) .. وكل ما جاء في **موضوع** السورة **وأسلوبها** إنما جاء ليحقق المعالجة لمناطها .. **فمعالجة المناط** هي مقصد السورة وسياقها .

5. هذا ، وبالرغم من اختلاف **المناط** واختلاف **المعالجات** من سورة إلى أخرى ، إلا أن جميع السور منضبطة **بمنهج واحد** وعلى **أساس فكري واحد** في بيان المعالجات ، حيث أن حقيقة " **لا إله إلا الله** " بوصفها " فكرة الرسالة " ، جاءت هي الأساس الفكري لكل أمور **الدّين** أو **العبادة** (الإيمان ، العمل الصالح ، الدعوة) ، في التلقي والتعلّم والفهم ، والتطبيق والحمل ، والخطاب والسير [1] .. فهي تشكّل زاوية النظر **الوحيدة** إليها .

و الفكرة الأساس وما بُني عليها من أفكار وما انبثق عنها من أحكام ، لا يرد ذكرها – في الأعم الأغلب – في السورة الواحدة إلا مرتبطةً ومقرونةً بالجزاء والمصير في الدنيا والآخرة ، صراحة أو ضمناً تفصيلاً أو إجمالاً .. مع تنويع في الأسلوب من سورة إلى أخرى في تناول الفكرة الأساس وما بُني عليها من أفكار و ما انبثق عنها من أحكام ، أو ما يترتب على ذلك من جزاء ومصير .. وما ذلك إلا **لمعالجة** الحالة أو الموقف (المناط) الحاصل أثناء السير ، والذي تتناوله السورة الواحدة وتواجهه .. مما يجعل لكل سورة ذلك الطابع الخاص بها في تناول مواضيع الدّين (العبادة) المتنوعة ، فكراً وعملاً ، والتي لا تخرج عن أحد المواضيع الرئيسة ، أو أحد الأصناف الكبرى التالية : **الإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلى عبادة الله** الإله الحق وحمل رسالته للعالمين ، **مع ذكر الجزاء والمصير** .. كما بيّنتها سورة العصر :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا .. الَّذِينَ :

ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ العصر .

1 - للتفصيل انظر بحث " فكرة الرسالة " .

وإليك شيء من التفصيل في بيان كيف أن " **لا إله إلا اللـــــه** " بوصفها " فكرة الرسالة " ، هي الأساس الفكري لكل أمور **الدّين** أو **العبادة** [1] ، و زاوية النظر **الوحيدة** في التلقي والتعليم والتطبيق والســـير ، وذلك من خلال تناول الحقائق والمفاهيم التالية :

❖ **بيان** أن " **لا إله إلا الله** " **هي الحقيقة اليقينية الكبرى في الوجود** .. وذلك بمشـــاهدة آثارها في الآفاق والأنفس كآيات بيّنات دالة عليها ، وفي مجاليها الإثنين :

المجال الأول : وموضوعه ؛ أن الله عز وجلّ هو وحده **المعبود الحق** في الوجود كله ، بمعنى أنه وحده صاحب **الأمر القدريّ** (التكويني) النافذ في الخلق جميعهم ، فلا يملك أي كائن أن يخرج عن أمر الله .. خلقاً وتسوية ، تقديراً وهداية ، قيّومية واستمراراً ، مصيراً وجزاءً . ومشاهدة ذلك من خلال النظر والتفكّر في مخلوقات الله عزّ وجلّ المُحسّة والمبثوثة في الآفاق ، والنظر والتفكر في الأنفس ، **ومُشاهدتها** كبراهين واضحة وآيات دّالة على هذه الحقيقة .. حيث أن مشيئة الله جلّ وعلا العامة ، **ممثلة** بما **قدّره** الله تبارك وتعالى في كل مخلوق من **خاصيات وطبائع** ، ومن **سنن ضابطة** لها ، هي التي تَسير بحسبها جميع المخلوقات ، فلا يحدث في الوجود حدث ، ولا يتحرك ساكن أو يسكن متحرك.. إلا بمشيئته – عزّ وجلّ – ومن بعد **إذنه القدريّ** ؛ أي ، إلا بحسب ما قدّره الله في الخلق من خاصيات ومن سنن ضابطة لها .. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وهذه حقيقة يقينية مشاهدة ملموسة [2] :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التكوير

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ البقرة

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى

فلا يخرج أي مخلوق في الوجود كله ، صغيراً كان أو كبيراً ، حياً أو جماداً ، عاقلاً وغير عاقل .. عن مشيئة الله العامة وأمره القدري : خلقاً وتسوية ، تقديراً وهداية ، قياماً واستمراراً ، جزاءً ومصيراً .. فهو سائر بحسب ما **قدّر** الله تعالى فيه من **الخاصيات** ومن **السنن** التي تضبطها .. بما في ذلك الإنسان ، إلا

---

1 - لذلك كان شرطا صحة أداء العبادة وقبولها هما : الإخلاص لله ، واتباع أمر الله ، كما بيّنه رسول الله . فـــ لا إله إلا الله محمّد رسول الله .

2 - فمن ادّعى أن له أمر أو حكم على المخلوقات أو له تأثير في الوجود .. من دون الله أو مع الله - جلّ وعزّ- فقد ادّعى أنه ندٌ لله أو شريك مع الله - تعالى عن الشريك - فقد جعل من نفسه طاغوتاً .. فمَن صدّقه واتبعه فقد اتخذه طاغوتاً : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ {22}) الأنبياء . (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً{42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً{43}تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{44}) الإسراء

أن الله جلّ وعلا أعطاه صلاحيات أوسع في التصرف في الوجود ، بما كرّمه به وحباه من خاصيات العقل والإرادة ، والقدرة ، والتعلّم ، وبما سخّر له ما في السماوات والأرض.. فجَعَله الخليفة في الأرض.. فهو أثناء حركته في الحياة وممارسته ما وهبه الله من قدرة وإرادة وعلم .. يستطيع تحقيق مراده ومطلوبه بأن " يُغالب أقدار الله بأقدار الله " ، وأن " يفرّ من قدر الله إلى قدر الله " .. فهو يستطيع أن ينتفع بما سخّر الله له من مخلوقات في الكون والحياة ، ولكن ضمن ما قدّر الله فيها من خاصيات وسنن ضابطة لها ، وبمقدار ما تحصّل عنده من علم بها ..

وهذا بدوره يقودنا إلى المجال الثاني ، وهو متعلّق فقط بالمخلوقَين الإثنين ؛ الجن والإنس ، فهما وحدهما المكلفان والمحاسبان على أعمالهما . وسنتطرق هنا لما يتعلق بالإنسان فقط ..

المجال الثاني : وموضوعه ، أن الله عز وجلّ هو وحده **المعبود الحق** في حياة الإنسان ، بمعنى أنه وحده صاحب **الأمر الشرعيّ** ، أي صاحب الشريعة والقانون الواجب له **الطاعة والاتباع** في **تنظيم** جميع شؤون حياة الإنسان ومعيشته .

وقد أنزل الله تعالى شريعته في رسالاته ، وبعث بها رسله ليبلغوها ويبينوها للناس ، فما خلت من أمة إلا وبعث الله فيها رسولا يبلغهم شريعة ربهم ويبيّنها لهم .. وكان القرآن المجيد هو رسالة الله الخاتمة ، المتضمنة لشريعته الخاتمة . وبعث بها رسوله الخاتم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم **فبيّنها** لنا من خلال التطبيق العملي على الواقع الإنساني ، **متمثلة في أمّة قد أكملت الدّين (العبودية) لله** عزّ وجلّ فشملت " عبودية الفرد" و " عبودية الأمّة " و " عبودية المجتمع " :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ البقرة

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾ الأنعام

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ ﴾ الجاثية

فشريعة الله جلّ ثناؤه ، هي وحدها واجبة الاتباع . فلا يحق لأي جهة كانت ، أو لأي أحد كان أن يُشرّع القوانين فيحلّل ويحرّم ، أو أن يتدخّل في تنظيم أي شأن من شؤون حياة الإنسان ؛ فرداً ومجتمعاً فكراً وسلوكاً.. إلا الله عزّ وجلّ وحده ، ومن بعد **أمره** و**إذنه الشرعيّ** ، أي حسب شريعته .. فلا تجب الطاعة ولا تكون إلا لله وحده ، وذلك **باتباع ما شرع الله وحكم به وحده** ، أي إخلاص الدين لله :

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ **أَنزَلۡنَآ** إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ **فَٱعۡبُدِ** ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ...٣ ﴾ الزمر

.. ذلك ، لأن الله جلّ وعلا هو وحده **الإله الحق** المعبود في **الوجود** ، أي صاحب **الأمر القدري** خلقاً وتقديراً واستمراراً وجزاءً .. **فلله الحجة البالغة** ، فهو الخالق المالك للإنسان – والخلق جميعاً –

والمتصرف به والقيّوم عليه وما قدّر فيه من خصائص وسنن تحكمها ، وما وهب له ورزقه من ملكات وطاقات ، وما سخّر له من الأرض والسماوات .. كرّمه بكل ذلك وأهّله ليكون **الخليفة في الأرض** ، أي السيد المتصرف فيها ، **وجعله المؤتمن** على ذلك كله بأن لا يُطيع أحداً فيها إلا الله جل ثناؤه ، فلا يستعمله ولا يوظفه إلا بالحق ؛ أي فيما يحبه الله ويرضى .. ومن هنا ، فلا يحق لأي أحد كان ، ولا لأية جهة كانت ، التصرف في أي شيء من تلك **الأمانة** ، صغُر أم كبُر ، إلا من بعد أن **يأذن الله** الخالق ، صاحب المُلْك ، كما **حكم** به ورضيه في شرعه ودينه – جلّ وعلا .. **بمعنى ، أنه لا ينبغي للإنسان أن يتخذ إلهاً يتلقى منه الأمر والحكم والإذن الشرعي** – أي الشريعة والقانون – فكراً وسلوكاً ، فرداً ومجتمعاً .. إلا الله وحده ، إلهاً مطاعاً بلا شريك [1] ، فالله عزّ وجلّ هو وحده الإله الحق للخلق جميعاً ، فهو وحده له الخلق ، وله وحده الأمر والحكم فيما خلق ؛ فـ **لا إله إلا الله** :

﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾ الأعراف

﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ **آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** (59) **أَمَّنْ** خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) **أَمَّن** جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) **أَمَّن** يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (62) **أَمَّن** يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) **أَمَّن** يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64) ﴾ النمل

﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) ﴾ آل عمران

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) ﴾ الفاتحة

---

1 - وكل مَن طلب الطاعة والإتباع لنفسه مع الله أو من دون الله - سبحانه - فقد جعل من نفسه نداً لله ، وأنّى له ذلك .. وما هو إلا عبد مملوك لله !! قد تجاوز حده وطغى على ربه ومولاه !! . ومن ثم ، فقد وَسَمه الله تعالى في كتابه العزيز باسم " الطاغوت " وهي صيغة مبالغة من الطغيان ، أي تجاوُز الحد . وهذا اللفظ من المصطلحات القرآنية . أنظر تفسير الآية (256) من سورة البقرة في تفسير ابن عاشور وتفسير الطبري . لذلك :{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)} النساء {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116)} النساء . {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)} الحج .. وفي الجملة : {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)} لقمان.

.. إلخ

فالعبوديّة لله جل وعلا في هذا المجال ، عبوديّة وخضوع لـ " أمر تكليفيّ " (شرعيّ) ، وليس لـ " أمر تكوينيّ " (قدريّ) ، وقد **أناطها** الله تعالى **باختيار** الإنسان الخليفة في الأرض ، بما وهبه الله تعالى من الإرادة والقدرة ، و**الاختيار** بين البدائل .. فهي عبودية اختيارية ، وهذا هو مناط تكريم الله جل وعلا ، الإنسان وتفضيله على كثير ممن خلق .. إلا أنه ، وفي مقابل هذا التكريم وهذه الصلاحيات للإنسان في الوجود .. فقد حمّله الله تبارك وتعالى المسؤولية على اختياراته .. وجعله يواجه عواقبها ، في الدنيا والآخرة، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ :

﴿ وَقُلِ **ٱلْحَقُّ** مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الكهف

ففي **إمكان** الإنسان مخالفة أمر الله الشرعي واتباع أمر جهة أخرى غير الله جلّ وعلا ، أي **يمكنه** – إذا شاء – اتخاذ إله غير الله ، تعالى الله عن الشريك .. وإن فعل ذلك فقد خرج عن ناموس الوجود وقوانين الفطرة التي فطر الله الخلق عليها ؛ الخضوع لأمر الله .. وهذا هو " الفسوق " عن أمر الله .. وبفسوقه ، يظهر الشر والفساد .. ولا بد لمسبّبه من تحمل نتائج عمله في الدنيا والآخرة .. إلا من تاب وآمن وأصلح ، فإن الله رحمن رحيم ، غفور ودود :

﴿ .. إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ الفرقان

وهذا هو موضوع المجال الثاني من الحقيقة اليقينية الكبرى ؛ " **لا إله إلا اللـه** " ومؤداه ، والذي يجب العلم به ..

وبهذا ، **يكتمل** العلم بالحقيقة اليقينية الكبرى في الوجود في مجاليها الإثنين ؛ **القدريّ** و **الشرعيّ** :

﴿ **فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ محمد

- ❖ ومن هنا ، وبناء على بيان تلك الحقيقة اليقينية الكبرى – بمجاليها – وتأسيساً عليها ، يكون بيان مقتضياتها ؛ من **نظام العبودية** والإسلام لله جل وعلا ، فـ لا إله إلا الله منهاج حياة ، وطريقة عيش.. فكما أن " **لا إله إلا اللـه** " هي أساس الوجود كله ؛ خلقاً وتقديراً واستمراراً ومصيراً .. والإنسان جزء منه ،

وفيه معاشه وكل مقومات وجوده وحياته واستمراره .. فلا بد أن تكون **لا إله إلا الله** ، كذلك هي **الأساس** في تنظيم **جميع شؤون** الحياة الإنسانية في مجالاتها المختلفة ؛ السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية.. فكراً وسلوكاً .. وعلى جميع المستويات أفراداً وأمّة ومجتمعاً .. وكما **بيّنها وطبقها** رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم متمثلة في **الأمّة المسلمة** ، وقد **أكملت دينها** ، أي **عبوديتها** لله تبارك وتعالى:

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام

وهذا الأمر **بالإسلام** الكامل والشامل لله جل وعلا ، أمر **للرسول** و **لأمته** من بعده :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة

ولهذه **العبودية** لله الإله الحق ، والإسلام له جلّ وعلا .. شرطان ، سواء في حق الفرد أم في حق المجتمع:

الأول – **الإخلاص** لله ،

الثاني – **الاتباع** لأمر الله ، كما بيّنه رسول الله ، محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم :

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ **أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ** فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف

وتقوم هذه **العبودية لله** على المحاور أو المواضيع الرئيسة التي وردت في سورة العصر ، وقد أشرنا إليها سابقاً ، وهي :

✓ **الأفكار** المبنيّة على " **لا إله إلا الله** " ، وهي الحقائق والمفاهيم الشرعية ، أي المتعبّد بها ، مثل أركان الإيمان وغيرها .. والحقائق السُننيّة في الآفاق والأنفس والأمم والمجتمعات .. والتي جاءت جميعها **كمعالجات للفكر** والفهم (المناط) لهدايته إلى نور الحق والتصديق به عن علم ، وعِصْمته من الوقوع في الجهل والهوى ، لئلا يتيه ويضل في ظلمات الجهل وشبهات الباطل :

﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ محمد

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ **هُدٗى** لِّلنَّاسِ **وَبَيِّنَٰتٖ** مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة.

✓ **الأحكام والتشريعات** المنبثقة عنها ، وهي الأحكام الشرعية ، أي أحكام الله الإله الحق وأوامره التي جاءت **كمعالجات** للأعمال والسلوك ، سواء أعمال القلوب أم أعمال الجوارح ، و كذلك ما يتعلّق بها

من أشياء (المناط) .. والتي يجب أن **يتّبعها** المؤمنون عبادة لله تعالى ، في **تنظيم علاقاتهم** الإنسانية في جميع مجالاتها المختلفة ، ومستوياتها المتعددة – أفراداً وأمّة – وكما نفذها وبيّنها الرسول الخاتم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم . سواء في " علاقاتهم الداخلية " ؛ في الأمة والمجتمع والدولة ، أم في " علاقاتهم الخارجية " ؛ مع الأمم والمجتمعات والدول الأخرى ، والتي لا تخضع لسلطان المسلمين :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية

✓ **دعوة الناس إلى عبادة** الله تبارك وتعالى على **أساس** أنه " **لا إله إلا الله** " فهي الحق المبين وذلك بانضمامهم إلى كيان الأمة المسلمة ليُسلِموا وينقادوا للإله الحق ويدينوا له بأمره وشريعته ، في جميع شؤون حياتهم .. كما هو الوجود كله مستسلم منقاد له عزّ وجلّ ، فينسجموا مع الوجود كله في الإسلام والخضوع والتسبيح لله الإله الحق ، تبارك وتعالى :

﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ **وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** ﴿٥٢﴾ ﴾ النحل

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٠٨﴾ ﴾ الأنبياء

❖ **ومضافاً** إلى ما سبق ، **مقروناً** به ، يكون بيان **النتائج المترتبة** ، أي الجزاء والمصير في الدنيا والآخرة على **موقف الإنسان** ، مسلماً كان أو كافراً ، فرداً أو أمّة أو مجتمعاً ، عمّا **بلغه** من دين الله جلّ وعلا متمثلاً بحقيقة " لا إله إلا الله " و محاورها الثلاثة (مقتضياتها) ، إن تصديقا واتباعاً أو تكذيباً وإعراضاً .. فكما **كرّم** الله تعالى الإنسان وجعله **الخليفة** في الأرض ، **وسخّر** له ما في السماوات والأرض جميعاً منه ، وأعطاه **الإرادة والقدرة** ، ومكّنه من **الاختيار** بين البدائل ، **ومغالبة** أقدار الله بأقدار الله .. فكذلك ، فقد حمّله **المسؤولية** على **اختياراته** في ذلك كله .. فلا يحق له ولا يجوز أن يوظف أي من تلك الإمكانات إلا في طاعة الله الإله الحق ، صاحب الملك الذي له الخلق والأمر .. فلا بد أن يحاسبه ربه ومولاه فيما إذا حفظ **الأمانة** أم ضيعها . فالله مالك الملك جلّ جلاله ، لم يكرّم الإنسان ويجعله بهذه المكانة الكونية السامقة المرموقة من بين الخلق ، عبثاً ولم يتركه هكذا هملاً .. بل لحكمة عظيمة .. فلا بد من الابتلاء والاختبار في هذه الحياة الدنيا ، لتُعلم درجة نقاء معدنه وصدق نيته وإخلاصه .. ومن ثم العودة إليه تبارك وتعالى في اليوم الموعود ، لينال كل مكلَّف ومؤتَمَن جزاءه العادل الذي يستحق ، ويواجه مصيره الذي صنعه بيده :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118) ﴾ المؤمنون

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) ﴾ الأنعام

.. الخ

وهكذا ، وبالرغم من اختلاف **المناط** واختلاف **المعالجات** من سورة إلى أخرى ، إلا أن جميع السور منضبطة **بمنهج واحد** وعلى **أساس فكري واحد** في بيان المعالجات ، حيث أن حقيقة " **لا إله إلا الله** " بمجاليها القدري والشرعي ، وبوصفها " فكرة الرسالة " ، جاءت هي الأساس الفكري لكل أمور **الدّين** أو **العبادة** (الإيمان ، العمل الصالح ، الدعوة) ، في التلقي والتعلّم والفهم ، والتطبيق والحمل ، والخطاب والسير .. فهي زاوية النظر **الوحيدة** إليها .. وكل ذلك يأتي مقروناً بـ " **البشارة والنذارة** " ، إما صراحة أو ضمناً [1] .. أي مقروناً ببيان **المصير** المترتب على **موقف** من **بلغه** الحق المبين .. ذلك أن كتاب الله قول فصل وما هو بالهزل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) ﴾ الطارق

6. وما سبق ذكره في النقطة السابقة ، أمر **تشترك** فيه السور كلها.. إلا أنها – كما هو مشاهد – **تختلف** فيما بينها في **درجة التركيز** على أيٍ من مواضيع **العبادة** ، وفي **التنويع** في ذكرها ووسائل عرضها .. وفي **بيان** المصير (البشارة والنذارة) ، وبشكل متنوّع عجيب فريد .. وما ذلك إلا **لاختلاف** مقصد كل سورة وسياقها ، أي اختلاف الحالات أو المواقف التي تواجهها السورة (مناط السورة) بقصد معالجتها ، والحاصلة أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة . مما يجعل لكل سورة " طابعها الخاص " في ما تتناوله من مواضيع العبادة (الدّين) ، وبيان المصير .. الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة

---

[1] - ونذكّر هنا بأن الله تبارك وتعالى عندما خاطب الناس في القرآن الكريم راعى أحوالهم وواقعهم ، فخاطب كل إنسان بما هو أهل له ، وبحسب الحالة التي هو فيها . فلكل مناط معالجته الخاصّة به . فخطاب الكافر المعاند المحارب لله ورسوله ، يختلف عن خطاب الكافر الجاهل وغير المحارب ، أو عن المنافق . وخطاب المؤمن العاصي ، يختلف عن خطاب المؤمن القائم على أمر الله تعالى .. وهكذا . وهذا واضح في القرآن الكريم . مع التأكيد على أن الأصل العام هو الرحمة بالمخاطبين لإنقاذهم من النار .. أما مَنْ أبى فذلك خياره . كما قال رسول الله :(كلُّ أمتي يدخلون الجنةَ إلا من أبى. قالوا: يا رسولَ اللهِ ومَن يأبى ؟! قال : مَن أطاعني دخل الجنةَ ، ومَن عصاني فقد أبى) . رواه البخاري 7280.عن أبي هريرة.

متماسكة ، وتشكّل جزءً من " المنهاج " لتحقيق الغاية من الرسالة ؛ إكمال الدّين لله . وفي مجموع السور ثَمّ " المنهاج " كاملاً .

لهذا ، أن يكون للسورة " **وحدة موضوع** " ، ليس هو المقصود – أصالة – من " التسوير " ، بل لا يصلح أن يكون هو " **مقصد السورة** " أو " **سياق السورة** " .. وحتى السور التي يظهر فيها أنها ذات موضوع واحد [1] ، فهي لا تخرج عن ما سبق تقريره ، وذلك :

- لأن " وحدة الموضوع " بحثٌ في " **محتوى** السورة " من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب وهو أمر آخر يختلف عن " **مقصد** السورة " ، أي الغرض الذي من أجله جاء هذا المحتوى المعيّن ، بهذا الشكل المعيّن ، في هذه السورة بعينها . فلا بد من التمييز – عند النظر في السورة – بين " **محتوى السورة** " من حيث الموضوع ووسائل العرض وأساليب البيان .. وبين " **مقصد** السورة " .
- لأن الدّين ؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً ، لم يُعرض في سور القرآن الكريم **مبوباً** حسب **الموضوع** ، مثل أسلوب البشر في التأليف والتنسيق، وهذا ظاهر في جميع السور. لذلك نجد أن ما يرِد في السورة المعيّنة من الموضوع المعيّن ، لا يشكّل إلا **بعضاً** من كلٍ موزّع على سور أخرى ، فما جاء فيها ليس **كل** ما هو متعلق بذلك الموضوع ، لا من حيث المحتوى ولا من حيث الشكل ، أي أسلوب العرض ، ((حتى إنك إذا أردت أن **تُلمّ بموضوع** واحد لا بد لك من تتبعه في طول القرآن وعرضه)) [2]..

فأن يكون للسورة " **وحدة موضوع** " .. ليس هو العامل المؤثّر في **تنويع** المواضيع والمعالجات أو أسلوب عرضها بين سور القرآن الكريم . بمعنى ، أن الأساس في أن يأتي في السورة من القرآن هذا **الجزء** المعيّن من هذا **الموضوع** المعيّن ، وأن يتم تناوله من هذه الزاوية .. بينما في سورة أخرى ، يأتي نفس الموضوع العام – يوم القيامة مثلاً – لكن بصورة مختلفة من حيث تفاصيله وأجزائه ، ومن حيث الشكل وزاوية التناول .. أقول : الأساس في ذلك كله والغرض منه ، ليس أن يكون للسورة " وحدة موضوع " .. إنما هو اختيار ما يلزم – من حيث الموضوع وأسلوب البيان – لتحقيق " مقصد السورة " والذي هو **معالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي يواجهه حمَلَة الرسالة أثناء سيرهم لتحقيق الغاية منها.. هذا هو مقصد السورة ، ألا وهو معالجة مناطها ، وهو الذي ينبغي أن يكون الأساس في فهم ما جاء في السورة من مواضيع ومعالجات (محتوى السورة) .

وعلى هذا ، لا يرد في " محتوى السورة " ، لا موضوعاً ولا أسلوباً ، إلا ما يلزم لمعالجة " مناط السورة " ، أي ما يحقق مقصدها .. وبهذا ومن خلاله تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة ، وبدون تكلّف .. وبه أيضاً تكون متميزة عن غيرها من السور .

---

1 - كـ السور التي تناولت " **اليوم الآخر** " ، مثالاً .

2 - (نحو تفسير موضوعي) لـ محمد الغزالي .

فمنهج التعامل مع **مواضيع الدّين** أو مجالات العبادة – من إيمان وعمل صالح ودعوة – في جميع السور .. حتى التي يظهر أنها ذات موضوع واحد .. يكون على أساس أنها **معالجات** لما يحدث من مواقف وحالات (المناط) أثناء حركة وسير المؤمنين – أفراداً وأمّة – لإكمال الدّين لله جلّ وعلا . فتكون السورة " **وحدة منهاجية** " تشكّل **جزءاً** من " المنهاج " **الكامل** لتلقي القرآن والسير به . وبمجموع السور يكتمل منهاج السير لبلوغ الغاية من القرآن .. وهذا هو " **الفهم المنهاجي** " لسور القرآن .

فإكمال الدّين لله عزّ وجلّ ، هو ما أُنزل القرآن (الدّين) لأجله ، وهو ما جُعل " المنهاج " طريقاً للوصول إليه ، وكان " التسوير" للدلالة على ذلك " المنهاج " وبيانه وبيان معالجاته . وسير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرسالة كان بحسب " المنهاج " ، **بتلقي القرآن مرتلاً** على مكث ، **للعلم والعمل** به ، حتى أصبح **حقيقة** في واقع الناس **والحاكم** على شؤون حياتهم .

فلم يُنزّل الله عزّ وجلّ القرآن (الدّين) ويبعث به الرسول ، على صورة مواضيع لإعطاء المعلومات عن القضايا المختلفة للمعرفة والثقافة العامة ، أو للاستمتاع بجمال الأسلوب وموسيقاه ، والانبهار بعذوبة طريقة العرض وقوتها .. فهذا وغيره ليس أهدافاً أو غايات – ولا يصح جعلها هدفاً أو غاية – إنما هي وسائل وأدوات لتحقيق ما نُزّل القرآن لأجله (الغاية من الرسالة).. فقد نزّله الله جلّ وعلا ، **ليكون هو وحده** المعبود المُطاع أمره في الواقع الإنساني كلّه ، وحتى قيام الساعة .. ولا يتحقق ذلك إلا بأن تكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر ، لذلك أرسل الله الرسول [1] :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ **لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾ التوبة

فجاءت **آيات الرسالة** بترتيبها **المنهاجيّ** (التسوير) ، **تعرض** " **مواضيع** " **الدّين عرضاً خاصاً** مؤثراً ، **كمعالجات للواقع الإنساني** ، **هدماً وبناءً** .. كـ " منهاج " للسير ، من أجل تحقيق " الغاية من الرسالة " فيه .. فالقرآن المجيد إما حجة على المتلقي أو حجة له [2] ، وهو قولٌ فصل وما هو بالهزل ، فما يُنَزّل

1 - وهي مهمة " العلماء الربّانيـين " من بعد رسول الله ، كما في الحديث الشريف : (.. العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يُوَرّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) .عن أبي الدرداء ، حسّـنه بعض أهل العلم . وفيه اختلاف كبير ، والجمهور على قبوله .

2 - وحجة القرآن كما هي قائمة في أفكاره وحقائـــقه ، فهي قائمة أيضاً في أسلوب عرضها الربانيّ البديع الفريد . فما جعل الله تعالى القرآن هكذا في أوجهه المختلفة إلا بقصـــد إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنســاني . ومن هنا ، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات ، وما الرســول إلا مبلّغ لآيات الله كما يريد الله تعالى ، بمعنى أنه المفعّل للآيات والبيّنات في واقع الناس والمعلّم لنا لكيفية تفعيّلها لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس ويوضح ذلك ما قاله الله تعالى لموسى وهارون ، عليهما السلام : (**بِآيَاتِنَا** أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } [القصص 35] . فالغلبة في النهاية لأولياء الله الذين معهم " آيات الله تعالى " سواء المتلوّة منها أم المادية ، فكلّها سمّاها الله تعالى "آيات" وذلك لدلالتها على الحق . والقرآن هو آية الله الخاتمة الخالدة . وهو آية متلوّة وفي نفس الوقت آية ماديّة . فالغلبة دائماً ، لمن يملك **العلم بالمنهاج** في تفعيل القوة الهائلة في التأثير والتغيير ، الكامنة في القرآن - أفكاره وأســلوبه - بوصـــفه " آيات بيّنات " ، ويُحسن توظيف تلك القوة من أجل تحقيق الغاية منه . كما حصل في أول أمر هذه الأمة على يد رسول الله . والغلبة الآن - وفي كل زمان - لا تكون إلا لمن يســير على " منهاج النبوة " في تلقي القرآن وتبليغه وبيانه ، أي يسـير على " منهاج النبوة " في تفعيل القوة التغييرية الكامنة في الرســالة ، بما فيها من الآيات البيّنات ، بقصـد تحقيق الغاية منها ، فيستحق - حينئذ - أن يكون من ورثة النبي . فلا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

منه يجب أن يُطبّق مباشرة على **الواقع الإنساني** لمعالجته وتغييره ، فكراً وسلوكاً ، فرداً ومجتمعاً.. ليصير كما أمر الله تعالى ورضيه أن يكون .. فالله تبارك وتعالى هو وحده **الإله الحق** الذي له الخلق والأمر ؛ **فأمره الشرعيّ** لا بد من أن يَنْفُذ في الواقع حال نزوله ، كما هو نافذ **أمره القدريّ** ؛ فـ **لا إلـه إلا الـله** :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ **وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا** ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] الأحزاب

وفي الجملة ، فإن الدّين بمواضيعه الكبرى – الإيمان والعمل الصالح والدعوة – لم يُعرض في القرآن **مبوّباً** حسب **الموضوع** ، أي لم يُبحث بحثاً **موضوعيّاً** بشكل أكاديميّ أو نظريّ كأسلوب البشر في التأليف والتنسيق ، لا في القرآن كله ولا في السورة الواحدة ، بل جاءت آياته **مرتلة** حسب " التسوير " ، فجاءت أفكار **ومواضيع** العبادة موزّعة على السور .. وتناولت كل سورة – وبالأسلوب القرآني – ما جاء فيها من مواضيع العبادة (الدّين) ، من خلال تناول " فكرة الرسالة " الواحدة (لا إله إلا الله) ، بمحاورها الثلاثة (الإيمان والعمل صالح والدعوة) ، وضمن إطارها العام (البشارة والنذارة) ، وبمنهجها القرآني **الثابت** في الخطاب والتلقي (منهج الخطاب) . بشكل **ميسّرٍ للذّكر** ، موجدٍ للعلم مُزيلٍ للجهالة ، فُرقان بين الحق والباطل ، ليكون هداية لمن أراد ، مُقيماً للحجة على من أبى واستكبر ..

إلا أن ذلك كان **باختلافٍ** في **تركيز** كل سورة على أيٍ من تلك المواضيع أو بعضٍ منها ، **وبالتنويع** في ذكرها وفي وسائل عرضها .. بما **يحقق** " مقصد السورة " **ألا** وهو ؛ **معالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي تواجهه " الجماعة المسلمة " ومن ثم " الأمة المسلمة " أثناء **السير** قُدماً لإكمال الدّين لله – تطبيقاً في الواقع وحملاً للناس – أي **لتحقيق الغاية** من الرسالة .. الأمر الذي يجعل لكل سورة ذلك الطابع الخاص بها فيما تناولته من مواضيع العبادة (الدّين) ، ويجعل منها كذلك ، وحدة واحدة تشكّل جزءً من " المنهاج " الكامل .. وهذا هو " الفهم المنهاجي " للسورة .

وبناء على ما تقدّم بيانه ، يمكن القول : أنه إذا أردنا أن نفهم االسورة من القرآن فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه ، ينبغي أن يكون " الفهم المنهاجي " للسورة هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة [2] .

---

1 - أنظر تفسير ابن كثير .

2 - " الفهم المنهاجيّ " للسورة - كما بيّنا بعض معالمه فيما سبق من النقاط - يصلح لأن يكون أصلاً وإطاراً عاماً لفهم ما يُعرف بـ "علم المناسبة " كما عند البقاعي ، أو بـ "نظام القرآن" كما عند الفراهي ، أو بـ "علم مقاصد السور" . انظر بحث (مناسبات الآيات والسور) د أحمد حسن فرحات. وأيضاً بحث (علم مقاصد السور) و بحث (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة .

وفيما يلي من البحث مزيد من التفصيل والإيضاح لمعالم أخرى . و " الفهم المنهاجي" للسورة - في ما نرى - يقدم أيضاً حلولاً جذرية لكثير من الإشكالات في بعض العلوم القرآنية ، ويقدم جواباً شافياً على كثير من التساؤلات العالقة فيها ، مثل علم الناسخ والمنسوخ . هذا والله تعالى أعلم وأحكم ، وهو الهادي سواء السبيل .

7. العلم بأن **المعالجات** للواقع الإنساني (المناط) تكون على **نوعين** : **معالجات سننيّة** و**معالجات شرعيّة** .. وذلك تأسيساً على الحقيقة اليقينية أنه لا إله إلا الله ، بركنيها الإثنين :

- بأن الله عز وجلّ هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب **الأمر القدريّ** خلقاً وتسوية ، تقديراً وهداية ، قيّوميّة واستمراراً ، جزاء ومصيراً .. متمثلاً ذلك ، بما **قدّره** الله عزّ وجلّ في **كل مخلوق** من **خواص** و من **سنن** تضبطها وتحكمها..

- وأن الله عز وجلّ هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب **الأمر الشرعيّ** أمراً ونهياً ، تشريعاً وتنظيما .. للحياة الإنسانية بجميع مجالاتها . متمثلاً ذلك ، بما أنزله الله تعالى من شريعة ودين في رسالاته من لدن آدم حتى الرسول الخاتم محمّد ، صلّى الله عليه وآله وعلى أنبياء الله ورسله جميعاً.

فالأمر القدري والأمر الشرعي كلاهما من آثار إلهية الله تبارك وتعالى ، ومن مظاهر تجليات أسماء الله الحسنى ، وآثار مشيئته وأفعاله – جلّ وعلا – في الآفاق والأنفس .. فكما بيّن الله جل جلاله لنا في رسالته الخاتمة **أمره الشرعي** ، بيّن لنا كذلك ، كثيراً من **أمره القدريّ** في خلقه وتقديره وقيوميّته – عزّ وجلّ – للكون والإنسان والحياة . وعلى هذا جاءت المعالجات – بوصفها أحكاماً لله – إما شرعيّة أو سننيّة :

<u>النوع الأول</u> : المعالجات السُّننيّة :

وتُؤخَذ إما من الدليل الشرعي ، وهو الأصل ، أو من التجارب والخبرات الإنسانية المتنوعة والمختلفة، " فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها " . وتؤخذ من التفكّر في خلق السماوات والأرض ، ومن النظر في آيات الله في الآفاق والأنفس ..

وتقوم على بيان وفهم " **السُنن الإلهية** " ، أي فهم القوانين الدائمة والثابتة التي **قدّرها** الله تعالى ، <u>**لضبط** الخاصّيات [1] التي خلق عليها كل مخلوق من **الكون والإنسان والحياة**</u> . وكل من " الخاصّيات " و" السنن " ، **تمثل مشيئة الله** تعالى الدائمة في الخلق فلا تتغيّر ولا تتبدل ، <u>أي أمر الله وقضاؤه وحكمه وجَعْله القدريّ</u> :

﴿ ٱلَّذِى <u>لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ</u> وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ **<u>وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا</u>** ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان

﴿ ..**فَقَضَىٰهُنَّ** سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ **وَأَوْحَىٰ** فِى كُلِّ سَمَآءٍ **أَمْرَهَا** وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا **<u>ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ</u>** <u>ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ</u> ﴿١٢﴾ ﴾ فصلت

﴿ ..فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ **تَبْدِيلًا** وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ **تَحْوِيلًا** ﴿٤٣﴾ ﴾ فاطر

1 - خاصيّة الشيء هي : ما يُعطيه الشيء نفسه وينتج عنه . مثل خاصية الإبصار في العين ، والإحراق في النار .

هذا ، **ومن أهم** السنن التي ينبغي العلم بها – إن لم تكن الأهم – تلك المتعلقة بضبط وتسيير ما جعل الله في الإنسان ، فرداً ومجتمعاً وأمّة ، من خاصّيات بوصفه " الخليفة " في الأرض ، والسيد فيها الذي سخّر الله له ما في السماوات والأرض جميعاً منه ، ليتمكن من القيام بالخلافة في الأرض ، والقيام بالأمانة المناطة به ؛ إكمال الدّين لله ، كما أشرنا في ما سبق من البحث [1] .

والموقف من **عبادة الله وحمل رسالته** لتحقيق الغاية منها ، شأن إنساني ؛ فهو سلوك **إنسانيّ** ناتج عن وعي واختيار . فسيكون مصبوغاً بالخصائص الإنسانية ، ومضبوطاً بالسنن التي تحكم الواقع الإنساني بوصفه إنسانياً ، فرداً وأمّة ومجتمعاً ، وبغضّ النظر عن الزمان وتعاقبه ، والمكان وتغيّره ، والمستوى المدني (التقني) واختلافه .. سواء من جهة " **أمّة المسلمين** " ؛ أهل الحقّ الذين رضوا بالله تعالى ربّاً وعبدوه وحده من أنبياء الله تعالى ورسله مع من آمن بهم واتبعهم ، من لدن آدم حتى خاتم النبيين ، عليهم الصلاة والسلام .. أم من جهة أهل الباطل الذين كفروا بالله – الإله الحق – وعبدوا الطّاغوت وأطاعوه ، في الجاهليات المختلفة على مر العصور .. أم من جهة الصراع المصيريّ بينهما :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ البينة

وقد أشرنا سابقاً إلى بعض آيات الله تعالى كأمثلة على تلك السنن ، في مثل قول الله تعالى :

﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ..﴿١١﴾ ﴾ الرعد

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ..﴿٤٣﴾ ﴾ فصلت

فالعلاقات الإنسانية لها **خصائصها** ولها **سننها** الإلهية التي تحكمها وتضبطها ، فلا بد عند النظر والفهم لما يقع من أحداث ومواقف (مناط) أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة ، أن يكون ذلك من خلال تلك الخصائص والسنن وفهمها في إطارها ، لما لها من صفة الديمومة والثبات . ومن ثم يكون التعامل معها بأن تُنزّل عليها " المعالجات الشرعيّة " المتعلقة بها ، مع اتخاذ كافة الأساليب والوسائل لتحقيق تلك المعالجات الشرعيّة في الواقع ، على أساس قاعدة : "**مغالبة أقدار الله بأقدار الله** " ، واعتماد **الحكمة** في معالجة الواقع .. **والصبر** على ذلك حتى يأتي الله بأمره .. كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت

---

1 - ((لهذا نجد أن صيغة (سنة الله) في القرآن الكريم ترد خاصة بالسنن الإجتماعية ، دون السنن الكونية ، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعد استعراض الآيات التي ورد فيها لفظ سنة ، بقوله : " وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه=> وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات)) . أنظر كتاب (سنن الله في إحياء الأمم) د حسين شرفه .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ آل عمران

.. الخ .

- **هذا** ، والعلم بديمومة **السُنن الإلهية** واطرادها ، يترتّب عليه **فوائد** كبيرة ومتنوعة [1].

إن فهم المؤمنين **للخاصيات والسُنن** الإلهية المتعلقة بالواقع الإنساني ، والنظر إلى الأحداث الحاصلة فيه بحسبهما .. فهما تمثلان مشيئة الله العامة فيه : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .. نقول: إن ذلك الفهم للسنن يُمَكّن المؤمنين من إدراك الواقع الإنساني الذي يتواجدون فيه إدراكاً صحيحاً ودقيقاً ، وفهم ما يقع من أحداث (المناط) ؛ لماذا وقعت ؟ وكيف ؟ وما الحكمة من وقوعها ؟ .. فلذلك الفهم تأثير مباشر على طبيعة سير المؤمنين بالرسالة ، حتى تحقيق الغاية .. حيث أنه :

– يعطي المؤمنين مستوى عالٍ من القدرة على التعامل مع الواقع الإنساني ومعالجته قدراً وشرعاً ، وتحقيق مراد الله تعالى فيه بكفاءة عالية وبإحسان :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك

– يقوي من عزيمة المؤمنين ويعينهم على الثبات على الحق والصبر على ذلك حتى يحكم الله تعالى .. فكل ما حدث ويحدث إنما هو بأمر الله القدري ومشيئته ، أي حسب سننه ، وأن لله وحده الحُكْم والقضاء في ذلك ، وأن له وحده الأمر من قبل ومن بعد ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ الروم

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ آل عمران

– يوجِد لدى المؤمنين بصيرةً نافذة ، وقدرةً على توقع ما يمكن أن يحدث ، واستشرافاً للمستقبل [2] ، " فلا

---

[1] - للتوسع في هذا الباب يمكن العودة إلى بعض المؤلفات التالية : (سنن الله في إحياء الأمم) د.حسين الشرفه . (أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق) د. أحمد كنعان .(السنن الإلهية) د.عبد الكريم زيدان . سلسة مؤلفات جودت سعيد (سنن تغيير النفس والمجتمع) . أو غيرها من الأبحاث في هذا المجال .

[2] - وهذا أصلٌ في تكوين " التفكير الإستراتيجي " عند المسلم ، أي النظرة بعيدة المدى للأمور والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد .. كما كان ظاهراً في قرارات وأعمال رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام - في قيادة الأمة ، وعند الخلفاء الراشدين من بعده ، وعند من تبعهم من قادة الأمة على مدى تاريخها الطويل .

تصدمهم الأحداث بل تكون لديهم صلابة في الموقف ، بخلاف مَنْ يجهل مصدر الأحداث وسببها والحكمة منها .. فإنه ليس لديه إلا الخوف والقلق " :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾ آل عمران

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ .. ﴾ التوبة

.. إلخ

وهذا هو الأمر المشترك بين الرسل كلهم ، بل والبشرية جمعاء ، فالسنن هي السنن والبشر هم البشر :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ **أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ** بَلۡ هُمۡ **قَوۡمٞ طَاغُونَ** ٥٣ ﴾ الذاريات

وهو **موضوع** الاقتداء بالرسل السابقين ومجاله ، الذي أمر الله تعالى به الرّسول الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمته من بعده :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ** .. ٩٠ ﴾ الأنعام

من حيث اتباع الحق والثبات عليه .. و الصبر على المشاقّ .. ومضاء العزيمة .. وعدم اليأس :

﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ **مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ** وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ ﴾ هود

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ ﴾ القلم

.. إلخ

فاكتسب الرسول الخاتم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كمالات الأنبياء والرسل الذين سبقوه .. فكان أكملهم ، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .

وهكذا ، وعلى مثل هذا كان **تلقي** رسول الله محمّد ، صلّى الله عليه وآله وسلّم والجماعة المسلمة ثم الأمّة المسلمة ، القرآن الكريم **وفهْم** سنن الله تعالى الثابتة التي لا تتبدّل ولا تتغيّر ، في عبوديتهم لله وتبليغ الرسالة وحمل الدعوة . **وفهْم** قصص الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام في **دعوة** أقوامهم **وتعبيدهم** لله تبارك وتعالى ، ثم القدرة على توظيفها والاستفادة منها (الحكمة) في تحقيق الغاية من القرآن في واقعهم

.. رغم التباعد في الزمان والمكان ، والاختلاف في المستوى المدنيّ والتقنيّ .. وما كان ذلك ليكون إلا بسبب أن الله جلّ وعلا ، شاء وقدّر أن تكون خاصيات كل مخلوق والسنن الضابطة لها ، دائمة ومستمرة:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب

هذا ، وبشكل عام ، فإن فَهْم حقيقة الواقع الإنساني الذي تعمل فيه الرسالة أمر مطلوب شرعاً ، سواء عند فهم المعالجات الشرعية أم عند تنزيلها على الواقع [1] أم عند فهم المنهاج وكيفية السير .. ذلك أن الرسالة والشريعة ما جاءت إلا **لمعالجة** الواقع الإنساني **وتغييره وصياغته** حسب مراد الله تعالى ، وهو أن يكون الدّين كله لله ، وهذا يقتضي فهم طبيعة الواقع الإنساني وخاصياته .. وفهم سننه الإلهية التي تحكمه ، فهماً يُمكّن حملة الرسالة من تلك **الصياغة للواقع** [2].. ومَثَلُ هذا كمثل الطبيب الحاذق الذي يعمل جاهداً – بما لديه من علم – على تشخيص المرض الذي يعاني منه المريض الذي بين يديه ، حتى يتمكّن من تحديد العلاج النافع الناجع وكيفية العلاج .. ليعود سليماً معافى .

وعلى هذا الأساس كان من سنة الله تعالى أن يبعث لكل قوم رسولاً **منهم** يَعرفهم ويعرفونه ، ويتكلم **بلسانهم** ؛ يفهمهم ويفهمونه .. ومن أجل ذلك بيّـن الله تعالى في القرآن الكريم **سننه** في حمل الرسالات مفصلة باستفاضة وشمول ، وعلى طول الطريق لإكمال الدّين لله جلّ وعلا .. ومنها السنن المتعلقة بتغيير الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة ؛ الاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها.. وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكرٍ لبعض تلك السنن أو الإشارة إليها [3] ، إما من خلال القصص وضرب الأمثال ، وهو الأعم الأغلب ، بالتعقيب عليها والإشارة إلى سنة الله تعالى أو حكمته منها . أو من خلال الإخبار والبيان المباشر ، كما في سورة الإسراء ، الآيات (1–10) في الإخبار عن إفساد بني إسرائيل ، حيث بيّن الله تبارك وتعالى سنته في الأمم حملة الرسالات ، في حال حفظهم أمانة الرسالة وفي حال تضييعها ، وذكر بني إسرائيل أنموذجا .. وفيها بشرى للمؤمنين بالتمكين في الأرض ، وتحذير لهم كذلك من تضييع أمانة الرسالة ، تطبيقاً وحملاً للناس – كما فعل بنو إسرائيل – فالتمكين للمؤمنين في الأرض شرطه القيام

1 - وهو ما يعرف بـ " تحقيق المناط " كما ذكرنا سابقاً من أن كل معالجة شرعية للواقع مبنية على مقدمتين الأولى : تحقيق المناط ، مهمتها معرفة وتحديد واقع الشيء المراد إصدار الحكم عليه . والثانية : فهم النصوص الشرعية المتعلقة بهذا الواقع . ثم ؛ تُطبق الثانية على الأولى . وبعبارة أخرى يُتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه ، إلى معرفة حكم الله في ذلك الواقع .

2 - أما ما يُسمى بـــ (فقه الواقع) فهو أمر آخر يختلف ، وهو مصطلح شائع وفيه لبس وتلبيس ، وحاصله عند كثير ممن يستعملونه : (الفقه المناسب للواقع) ، بمعنى أن نكيّف دين الله تعالى ليتماشى مع الواقع الموجود فيصبح واقعياً ، وهذا إبطال للدين وتناقض مع الغاية من الرسالة وهي أن يكون الدين كله لله . أنظر بحث (مفاهيم ومصطلحات رسالية).

3 - انظر- مثلاً- مشروع كتاب (أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم) (كشّاف موضوعي) إعداد زينب عطية محمد وقد صدر منه الجزء الأول وهو متعلق بـ (السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم)، ويتألف من مجلدين كبيرين .

بأعباء أمانة الرسالة [1] . وفيها أيضاً ، أن ما سبق بيانه وذكره من سنن الله تعالى هو من الهدى الذي جاء به هذا القرآن للتي هي أقوم ، أي أحسن وأعدل .

ومما يدخل في فهم طبيعة الواقع الإنساني (المناط) الذي تعمل فيه الرسالة ، وفهم كيفية معالجته بالرسالة في إطار السنن الإلهية العامة التي تضبطه ، فَهْم **أسباب النزول** ، ومنه معرفة أحوال العرب وأفعالها وأقوالها **حال النزول** ، فإن معرفة ذلك وفهمه يمنع من الوقوع في الاحتمالات المؤدية للشُّبَهِ والإشكالات عند فَهْم مراد الله تعالى من كلامه في القرآن الكريم ، كما قال الإمام الشاطبي :
((مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ التَّنْزِيلِ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْقُرْآنِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ عِلْمَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ إِعْجَازُ نَظْمِ الْقُرْآنِ فَضْلًا عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَاصِدِ كَلَامِ الْعَرَبِ؛ إِنَّمَا مَدَارُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ ، وَلَيْسَ كُلُّ حَالٍ يُنْقَلُ وَلَا كُلُّ قَرِينَةٍ تَقْتَرِنُ بِنَفْسِ الْكَلَامِ الْمَنْقُولِ، وَإِذَا فَاتَ نَقْلُ بَعْضِ الْقَرَائِنِ الدَّالَّةِ ؛ فَاتَ فَهْمُ الْكَلَامِ جُمْلَةً، أَوْ فَهْمُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمَعْرِفَةُ الْأَسْبَابِ رَافِعَةٌ لِكُلِّ مُشْكِلٍ فِي هَذَا النَّمَطِ ؛ فَهِيَ مِنَ الْمُهِمَّاتِ في فهم الكتاب بلا بد ، وَمَعْنَى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ هُوَ مَعْنَى مَعْرِفَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ)) [2] . ففائدة معرفة مقتضى الحال الذي ورد فيه الخطاب تُعين على فهم المراد منه ، وعليه فإن ((الْجَهْلَ بِأَسْبَابِ التَّنْزِيلِ مُوقِعٌ فِي الشُّبَهِ وَالْإِشْكَالَاتِ، وَمُورِدٌ لِلنُّصُوصِ الظَّاهِرَةِ مَوْرِدَ الْإِجْمَالِ حَتَّى يَقَعَ الِاخْتِلَافُ ، وَذَلِكَ مَظِنَّةُ وُقُوعِ لِنِزَاعٍ . وَيُوَضِّحُ هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى أَبُو عُبَيْدٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ؛ قَالَ : (خَلَا عُمَرُ ذَاتَ يَوْمٍ ؛ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ نَفْسَه : كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأمّة وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ ؟ فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ فَقَالَ : كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأمّة وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ ؟ . فَقَالَ : ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ فقرأناه ، **وعلمنا فيما نَزَلَ** ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ **ولا يدرون فيما نَزَلَ** ، **فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ** ، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ **اخْتَلَفُوا** ، فَإِذَا اخْتَلَفُوا **اقْتَتَلُوا** . قَالَ : فَزَجَرَهُ عُمَرُ وَانْتَهَرَهُ ؛ فَانْصَرَفَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَنَظَرَ عُمَرُ فِيمَا قَالَ ؛ فَعَرَفَهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ : أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ . فَأَعَادَهُ عَلَيْهِ ؛ فعرف عمر قوله وأعجبه) [3]. وَمَا قَالَهُ صَحِيحٌ فِي الاعتبار . وهذا شَأْنُ أَسْبَابِ النُّزُولِ فِي التَّعْرِيفِ بِمَعَانِي الْمُنَزَّلِ ، بِحَيْثُ لَوْ فُقِدَ ذِكْرُ السَّبَبِ ؛ لَمْ يُعْرَفْ مِنَ الْمُنَزَّلِ مَعْنَاهُ عَلَى الْخُصُوصِ ، دُونَ تَطَرُّقِ الِاحْتِمَالَاتِ وَتَوَجُّهِ الْإِشْكَالَاتِ. **وَمِنْ ذَلِكَ** مَعْرِفَةُ عَادَاتِ الْعَرَبِ فِي أَقْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا وَمَجَارِي أَحْوَالِهَا **حَالَةَ التَّنْزِيلِ** ، وَإِنْ لم يكن ثم سبب

1 - ونزلت هذه الآيات في أواخر العهد المكي في أجواء حادثة الإسراء والمعراج ، قُبيل الهجرة والتمكين في المدينة .
2 - الموافقات ، بتصرف يسير .
3 - قال محقق الكتاب مشهور حسن : ((أخرجه عبد الرزاق في "جامع معمر" "11/ 217-218/ رقم 20368"، ومن طريقه الهروي في "ذم الكلام" رقم "198"، والفسوي في "المعرفة والتاريخ" "1/ 516-517" عن علي بن بذيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به نحوه، وإسناده صحيح. وأخرج الحاكم في "المستدرك" في كتاب الأهوال عن ابن عمر - لا عن عمر- نحوه، وقال: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه")).

خاص[1] ، لا بد لِمَنْ أَرَادَ الْخَوْضَ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ مِنْهُ ، وَإِلَّا وَقَعَ فِي الشُّبَهِ وَالْإِشْكَالَاتِ الَّتِي يُتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَّا بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ)) [2] .

فتبين لنا من خلال ما سبق ذكره أنه لابد لمن أراد أن يفهم مراد الله تعالى من كلامه فهماً صحيحاً أن يسير على منهج رئيس في الفهم لا يمكن إغفاله وهو " المقام " أو " الحال" الذي نزل **النص لمعالجته**، لأن العلم بخلفيات النصوص وبالأسباب وبالأحوال التي وردت فيها، وسننها الإلهية الضابطة لها .. يورث العلم **بالمناط** الذي جاء الوحي لمعالجته ، **وبكيفية** معالجته ، مما ينفي الاحتمالات والظنون غير المرادة ، ويقطع الطريق على المقاصد المغرضة التي لم يُردها الشارع الحكيم ولم يرُمْها ، ويصحّح ما اعوجّ من أساليب التطبيق [3] .

النوع الثاني : المعالجات الشرعيّة (العبادة) :

وهي **المعالجات الشرعيّة** ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة ، للأحداث والوقائع (المناط) ، خطاباً وأفعالاً ، فكراً وسلوكاً ، ولا تُؤخذ إلا من الدليل الشرعي ، أي من الوحي وما دلّ عليه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية

وهي التي **يجب فيها الاتباع** للرسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم **والاقتداء** به ، **عبادةً** لله تعالى ، وطاعةً لأمره ، وحسب الضوابط اللازمة في ذلك ، كما بيّنا في القسم السابق من البحث :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ النساء

إذن ، فالمعالجات على نوعين :

- **شرعيّة** ، تثبت فقط بالدليل الشرعيّ وما دلّ عليه .
- **سننيّة** ، تثبت بالدليل الشرعي والدليل العقلي أحدهما أو كليهما .

هذا ، ولا يَرِدُ من المعالجات الشرعيّة والسننيّة في السورة الواحدة ، إلا ما يحقق **معالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي تواجهه الجماعة المسلمة ثم الأمة المسلمة أثناء **السير** لإكمال الدّين لله ..

1 - وهذا معنى واسع لسبب التنزيل فليس هو السبب الخاص أو المباشر فقط ، وهو ما عنيناه من كلامنا حول أهمية معرفة أسباب النزول . وننوه إلى أن عدد الآيات أو السور التي ثبت لها سبب نزول خاص قليل جداً ، قياساً لسائر آيات وسور القرآن الكريم ، وهي نحو (324) رواية - وقد يكون بعض الروايات مكرراً - حسب ما جمعه الشيخ إبراهيم العلي ، رحمه الله ، في كتابه النفيس (صحيح أسباب النزول) ، انظر مقدمة الكتاب .

2 - الموافقات ، مع تصرف يسير .

3 - أنظر (السيول المتدفقة في بيان مسائل متفرقة) - فراس عايد أبو سويلم ، نقلاً عن (منهج السياق في فهم النص) - د . عبد الرحمن بودرع ، سلسلة (كتاب الأمة) .

فمعالجة المناط هي **مقصد** السورة ، الأمر الذي يجعل منها وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءً من " المنهاج" الكامل .

8. العلم بأن تلك **المعالجات** – قدراً وشرعاً – تكون دائما متعلقة بـ **بفريقين اثنين** ، قد يُذكران في السورة الواحدة صراحة أو إشارة ، مجتمعين أو واحد منها ، وهما المؤمنون والكافرون :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأعراف

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ... إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحج

الفريق الأول : **المؤمنون** بالله واليوم الآخر .. **القائمون** على الرسالة – تطبيقاً ودعوة – من حيث؛ التزكية والإعداد الفكري ، والإعداد التنظيمي والمادي ، والعلم بالعقبات سواء ماديّة كانت أم شبهات فكريّة أم شهوات .. وكيفية مواجهتها ، والقدرة على إزالتها .. أثناء السير لإكمال الدّين لله تبارك وتعالى ، وتحقيق الغاية من الرسالة .. وسواء كانوا بوصفهم أفراداً أم جماعة أم أمّة ومجتمعاً :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ آل عمران

الفريق الثاني : **الكافرون** بالله بأنواعهم ودرجاتهم المختلفة ، مشركين ، منافقين ، أهل كتاب .. سواء كانوا هم الملأ ولهم السلطان (قبل التمكين) .. أم كانوا جماعات تخضع لسلطان المسلمين (بعد التمكين) .. أم كانوا دولاً وأمماً لا تخضع لسلطان المسلمين .. والذين يبغونها عوجاً عن سبيل الله المستقيم، ويشكّلون **عقبة** أمام جعل دين الله ظاهراً وإكمال الدّين لله جلّ وعلا :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ التوبة

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان

لذلك فإنه تبعاً لاختلاف **الفريق المَعْني** ، المؤمنين أو الكافرين ، تختلف **المعالجات** (قدراً وشرعاً)، ويختلف **التنوّع** في الموضوع ووسائل العرض من سورة إلى أخرى .. وكل ما جاء في محتوى السورة من

حيث الموضوع ووسائل العرض وأساليب البيان .. إنما جاء ليحقق المعالجة لمناطها الحاصل أثناء سير المؤمنين لإكمال الدّين لله .. **فمعالجة** المناط هي **مقصد** السورة ، الأمر الذي يجعل منها وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءً من " المنهاج " الكامل .

9. العلم بأن تلك المعالجات – قدراً وشرعاً – كما كانت متعلقة بـ بفريقين اثنين ، فإنها تأتي على **مرحلتين رئيستين** وهما :

المرحلة الأولى : مرحلة **ما قبل التمكين** للمؤمنين في الأرض ، حيث يكون المؤمنون **مكلفين** بالرسالة بوصفهم أفراداً أو جماعة . فيسيرون في معالجة الواقع الإنساني (المجتمع أو القرية) بحسب المعالجات المتعلقة **بهذه المرحلة** [1] ، قدراً وشرعاً ، وبوصفهم أفراداً أو " جماعة مسلمة " تعيش في **مجتمع** ليست كلمة الله تعالى هي العليا فيه (مجتمع جاهلي) . ويستمر السير حسب " المنهاج " في هذه المرحلة ، ويكون تنزيل المعالجات على الوقائع والأحداث (المناط) حال ظهورها .. حتى يُمكّن الله تعالى للجماعة المسلمة في الأرض ، فيصيروا " أمّة " مسلمة لله ، بوصفها الشرعيّ الأساس.

ويمثّل هذه المرحلة في سير الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنين معه ؛ المرحلة المكيّة .

المرحلة الثانية : مرحلة **التمكين** للمؤمنين في الأرض ، حيث يكون المؤمنون **مكلفين** بالرسالة بوصفهم **أمّة** من دون الناس [2] ، حيث وُجدت الأمّة المسلمة الناشئة بالوصف الشرعي الأساس ، وهو :

- قد **مكّن** الله تعالى لها في بقعة من الأرض ، لها **سلطان** عليها مُمثّل **بإمارة** عامة (الدولة أو الخلافة)
- أنه لا طاعة إلا لله ورسوله ، ومن أمر الله ورسوله بطاعته .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

ثم تسير **الأمّة** بهذا الوصف ، في معالجة الواقع الجديد ، في داخل الأمّة وخارجها ، بحسب المعالجات المتعلقة **بهذه المرحلة** ، قدراً وشرعاً . ودائرة هذه المعالجات تتسع لتشمل **جميع المعالجات الشرعية** ، بما فيها معالجات الدائرة السابقة ، فهي تشمل الدّين جميعه . ويستمر السير حسب " المنهاج " في هذه المرحلة ، بتتابُع أطوارها وأحداثها .. ويكون تنزيل المعالجات (الدّين) على الوقائع والأحداث (المناط) حال ظهورها .. حتى تصبح تلك الأمّة **الناشئة** ، أمّة مسلمة لله **بكامل خصائصها** ، قادرة على إكمال الدّين

---

1 - ودائرة هذه المعالجات لا تشمل المعالجات الشرعية المكلّفة بها الأمّة بوصفها الشرعي الأساس ، ولا المكلّف بها خليفة المسلمين (الإمارة العامة) بوصفه نائباً عن الأمة وقد أعطي البيعة على رعاية شؤونها بدين الله تعالى .

2 - المسلمون أمّة من دون الناس ، باعتبار الأمر الجامع لهم . وهو أن الإسلام متمثل بهم ظاهر فيهم . والضابط في إطلاق وصف الأمّة على مجموع المسلمين هو أن يتحقق في واقعهم كل ما أوجب الله تعالى الإجتماع عليه من الدين وحرّم التفرق فيه . انظر بحث (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - (الأمة والمجتمع والدولة) -. أنظر (الأمة) في (مفردات القرآن) - الراغب الأصفهاني .

(العبودية) لله تعالى – بواسطة الإمارة العامة (الدولة أو الخلافة) – وذلك بالقيام **بتنفيذ** جميع ما أمر الله تعالى به في دينه وشريعته على جميع شؤون الحياة ، و **بحمل** رسالة الله تعالى هداية للعالمين بالجهاد في سبيل الله ، في الأرض كلها وحتى قيام الساعة [1].

ويمثّل هذه المرحلة في سير الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والأمّة معه ؛ المرحلة المدنيّة .

لذلك فإنه تبعاً لاختلاف **المرحلة** ، قبل التمكين أو بعد التمكين ، واختلاف **المكلف** بالرسالة – **فرداً** أو **جماعة** أو **أمّة** – تطبيقاً ودعوة .. تختلف **المعالجات** ، قدراً وشرعاً ، ويختلف **التنوّع** في الموضوع ووسائل العرض .. من سورة إلى أخرى من سور القرآن الكريم .. فلا يجيء في السورة إلا ما يحقق المعالجة لموقف حدث أو حالة حصلت (مناط السورة) أثناء سير المؤمنين لإكمال الدّين لله .. **فمعالجة** المناط هي **مقصد** السورة ، الأمر الذي يجعل منها وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءً من " المنهاج " الكامل .

10. ويمكن **النظر** إلى تلك المعالجات – قدراً وشرعاً – في كثير من السور ، على أساس أنها جاءت كمعالجات إمّا **للشأن الداخلي** أو **للشأن الخارجي** أو لكليهما معاً ، **سواء** بالنسبة للجماعة المسلمة أم للأمّة المسلمة ، **وبحسب** المرحلة و الطور من السير حسب " المنهاج " ، للوصول إلى الغاية المرادة ، إكمال الدّين لله تعالى .

حيث تأتي المعالجات لتنظيم الشأن الداخلي ، أي **العلاقات الداخلية** ، للجماعة المسلمة أو الأمّة المسلمة . وخطها العام ، أنها في إطار **بناء الكيان المسلم** وإكسابه القوة بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق الغاية ، سواء كيان الفرد أم الجماعة أم الأمة . وذلك من خلال الأعمال الأساسية التالية : التزكية ، والتعليم

1 - الجهاد ليس هو القتال فقط ، بل القتال هو الخيار الثالث أثناء عملية الجهاد في سبيل الله . حيث لا بد بداية من أن يُطلب من الناس الدخول في دين الله ويسلموا لله مثل سائر المسلمين . فإن أبوا ، يُطلب منهم دفع الجزية ، والخضوع لشرع الله، وذلك بدخولهم تحت سلطان المسلمين وطاعة ولي أمر المسلمين بالمعروف . وإن أبوا ، يُقاتَلوا . " فالجهاد إنما شرّع ليكون الدين كله لله ، ويلزم من ذلك أن يخضع الناس كلهم لشرع الله تعالى ، وليس شرطاً أن يكونوا كلّهم يعتنقون الإسلام. ذلك أن الخلق كلهم عبيد الله تعالى مؤمنهم وكافرهم ، والله تعالى وحده هو ربهم وإلههم فلا بد للعبد أن يخضع لشرع ربه، ويكون خضوعه اختياراً منه ، فإن أبى واستكبر عن الخضوع طوعاً وحباً لله تعالى ، فلا بد أن يُجبر على الخضوع لشرع الله ، بدخوله تحت سلطان المسلمين وخضوعه لأحكام الله وشريعته وقوانينه النافذة في الأمة ، كما قال تعالى : (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ) وقال سبحانه : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه) وذلك بدخولهم تحت سلطان المسلمين .. لا بإكراههم في الدخول في دين الله (اعتناق الإسلام) ، لأنه (لا إكراه في الدين) . وكما يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (264/28) : ((فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا ، و "كلمة الله" ، اسم جامع لكلماته التي تضمّنها كتابه وهكذا قال تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[الحديد 25] فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه . ثم قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) فمن عدل عن الكتاب قُوّم بالحديد . ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف . وقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا - أي السيف - من عدل عن هذا ، يعني المصحف " . أنظر (السيول المتدفقة في بيان مسائل متفرقة) فراس عايد أبو سويلم . وانظر أيضاً (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) د. محمد خير هيكل، وتفسير ابن كثير

للكتاب والحكمة ، والإعداد الروحي والتنظيمي .. أو التخلص من العقبات الفكرية والنفسية والمادية ، أي الشبهات والشهوات والكيانات غير المسلمة ..

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سور المؤمنون والشورى والبقرة والأنفال .. حيث ورد فيها صفات المؤمنين وأخلاقهم وسماتهم كجماعة أو أمّة ، وورد فيها – كذلك – أحكامٌ ومعالجات تُنظّم علاقات أمّة المسلمين مع غير المسلمين الذين يخضعون لسلطانها ، كالمنافقين وأهل الكتاب يهوداً ونصارى ..

وكذلك الأمر في الشأن الخارجي أو **العلاقات الخارجية** ، بين الكيان المسلم – جماعة أو أمّة – والكيانات الأخرى ، سواء محلياً أم إقليمياً أم دولياً .. كما كان الحال في تنظيم علاقات الأمّة السياسية والعسكرية مع القبائل العربية المحيطة بالمدينة ، ومع قريش ، وقرى اليهود ، والطائف ..

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سور التوبة والحشر والأحزاب والفتح .

***

- تلخيص لما سبق بيانه من **الخطوة الثانية** في فهم دلالة " التسوير" على " **المنهاج** " :

1 ـ عند النظر في أي سورة لا بد من التفريق بوضوح بين عدة أمور (مفاهيم) متعلقة بالسورة الواحدة :

– " محتوى السورة " : وهو كل ما ورد فيها من أفكار وأحكام ، ووسائل عرض وأساليب بيان وتأثير .

– " مناط السورة " : وهو الحالة أو الموقف مما يواجهه حمَلَة الرسالة أثناء سيرهم لتحقيق الغاية من الرسالة ، ويرد ذكره في السورة ، منطوقاً أو مفهوماً .

– " مقصد السورة " (سياق السورة) : هو **معالجة** " مناط السورة " . فهو **الغرض** الذي من أجله ورد كل ما في " محتوى السورة " من أفكار ووسائل بيان ، فينتظمها على صعيد واحد ، وتنسجم فيما بينها وتتسق حتى تلتقي في ذلك **الغرض** كأمر (إطار) جامع لها ، تُفهم فيه دلالة الألفاظ والجمل والآيات . وبتعبير آخر ؛ إن " **مقصد السورة** " **هو الغرض** الذي من أجله ورد هذا الجزء المعين من الموضوع المعين ، وبهذا الأسلوب المعين ، في هذه السورة بعينها .

– " الفهم المنهاجي للسورة " : وهو أن تُرى السورة كـ " وحدة منهاجية " واحدة ، مترابطة متماسكة ، وتشكّل جزءاً من " المنهاج " الكامل ، وخطوة من السير بالرسالة لتحقيق الغاية منها ، وفي مجموع السور ثَمّ " المنهاج " كاملاً . ولا يتحقق ذلك إلا بالنظر إلى " محتوى السورة " من خلال " مقصد السورة " ، فيُفهم **المحتوى** في إطار **المقصد** الذي **جُعِل** من أجل **تحقيقه** [1] .

– " الوحدة الموضوعية للسورة " : وهو اعتبار أن كل ما ورد في السورة يتمحور حول **موضوع** واحد . وهذا بحث في " **محتوى السورة** " من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب ووصف له . ومن ثَمّ ، فلا يصلح أن يكون هو " **مقصد السورة** " . فليس **المقصود** (الغرض) بالأصالة من " **التسوير** " جعل السورة تدور على فكرة واحدة أو موضوع واحد . وإن ظهر أن بعض السور كذلك ، إنما ذلك من الوسائل والأسباب الموصلة للغرض الأصل ؛ " مقصد السورة " ، وهو : أن ما جاء في " محتوى السورة " يُعتبر **معالجاتٌ** لما يواجهه حملة الرسالة من مواقف وأحداث (مناط السورة) أثناء سيرهم بها لتحقيق الغاية منها . وهذا هو الأمر الذي يجمع السورة كلها وتدور حوله .

2 ـ إن **اختلاف** " مناط السورة " أي الحالة أو الموقف الذي تعالجه السورة ، هو **العامل المؤثر** في التنوع بين السور . ذلك أن اختلاف " المناط " يقتضي اختلاف " مقصد السورة " ، مما يعني اختلاف

---

[1] ـ وهذا الأمر من مقتضيات العلم والحكمة ، وأن كل شيء موجود لحكمة . ذلك أن من تقدير الله تعالى للأمور وسننه المسَلّم بها في الموجودات كلها : أن **الغاية** المرادة من وجود شيء ما أو **المُهمّة** التي سيؤديها ، هي التي **تحكم تصميمه وتركيبه** من حيث شكله ومضمونه ، حتى يمكن أن **تتحقق** الغاية منه **ويؤدي** تلك المَهمّة ، ويدل عليه قوله تعالى : (قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50}) طه . (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1}الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}) الأعلى . وهذا واضحٌ وبدهيٌ في كل الموجودات في الكون والحياة ، والأمور والأشياء والأدوات والوسائل والأساليب .. المادية منها والفكرية .. بلا استثناء . (مثل أن تُصنع المركبات بأشكال وأحجام وتصاميم متنوعة ومن مواد مختلفة .. سواء المستخدم منها في البر أم البحر أم الجو) .

" محتوى السورة " موضوعاً وأسلوباً ، أي المعالجات . الأمر الذي يجعل – وبالأسلوب القرآني البديع – لكل سورة ذلك **الطابع الخاص** بها في ما تتناوله من مواضيع العبادة (الدّين) ووسائل البيان والتأثير .. ومنه أن السورة قد تكون ذات " وحدة موضوعية " .

3 ـ واختلاف " مناط السورة " ، من سورة إلى أخرى ، يعتمد على عوامل عديدة أثناء السير بالرسالة على طول الطريق حتى تحقيق الغاية ، منها :

- ✓ **مرحلة** السير ، إن كان في ما قبل التمكين أو بعد التمكين ..
- ✓ **الفريق** المستهدف بالمعالجات ، المؤمنين أو الكافرين ..
- ✓ **الجهة** من المؤمنين المكلَّفة بالمعالجات ؛ بوصفهم أفراداً أم جماعة أم أمّة ..
- ✓ **الطور** من مرحلة السـير ، الذي وصـل إليه كِلا الفريقين في عملية البناء والهدم ، أي بناء أمّة المسلمين بمواصفات معينة ، وهدم وإزالة العقبات الفكرية والنفسية والمادية التي تحول دون إتمام عملية البناء للأمّة بالشكل المطلوب .. وتحقيق الغاية من الرسالة .

4 ـ هذا، وبرغم خصوصية كل سورة في تناولها لمواضيع **العبادة** (الدّين) **كمعالجات**، إلا أن جميع السور منضبطة **بمنهج واحد** وعلى **أساس فكري واحد** في بيان المعالجات ، الشرعية أو السننية ، حيث أن حقيقة <u>" **لا إله إلا الله** " بوصفها " فكرة الرسالة "</u> ، وركنها الركين ، جاءت هي **الأساس** لكل أمور **الدّين** أو **العبادة** ، <u>وهي زاوية النظر **الوحيدة** إليها</u> في التلقي والتعلّم والفهم ، والتطبيق والسـير والخطاب .

5 ـ ومع أن مواضيع الدّين (العبادة) متنوعة ومتعددة ، إلا أنها لا تخرج عن مواضيع رئيسة، أو أصناف كبرى وهي : <u>**الإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلى عبادة الله** الإله الحق وحمل رسالته للعالمين ، مع **بيان المصير**</u> .. كما بيّنتها سورة العصر .. فالسير لإكمال الدّين ؛ معناه العملي هو:

– **تلقي** ما **يلزم** – شرعاً وقدراً – من مواضيع هذه الأقسام الكبرى للعبادة ،

– **مرتلاً** على مكث حسب " المنهاج " ، بضوابطه السننيّة والشرعيّة .

– و**تطبيقه** أو تنزيله **على الوقائع** حال حدوثها أثناء السـير ، أولاً بأول ، حتى تصـبح أقسام العبادة (الدّين) كلهاحقيقة واقعة وقد تشكّلت الأمة بحسبها (تحقيق الغاية) .

والحمد لله رب العالمين

# # #

الخطوة الثالثة ، في فهم دلالة " التسوير" على " **المنهاج** " .

النظرة **الشاملة والعميقة لمجموع** سور القرآن الحكيم كاملة :

1. جمْع الأجزاء معاً حتى تكتمل الصورة ، أي ضمّ السوَر بعضها إلى بعض مُرتّبة ، من أجل أن يكتمل الفهم للمنهاج ، من البداية حتى تحقيق الغاية :

علمنا في الخطوتين السابقتين ، أن كل سورة جاءت تعالج **مناطاً** معيناً هو " مناط السورة " .. وأن كل سورة جاءت كـ " **وحدة منهاجيّة** " واحدة تُشكل **جزءً من** " **المنهاج** " الكامل ومتمثلة به ..
وعليه ، فحتى يتكوّن لدينا **الفهم الكامل والشامل** " **للمنهاج** " ، بشقيه القدريّ والشرعيّ ، ونكون منه على **بصيرة** من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية ، لا بد من **جمع** تلك **الأجزاء** وضمّ بعضها إلى بعض من أجل أن نحصل على **الكل** ، **فيكتمل الفهم** للمنهاج ..

ويمكننا ذلك من خلال الخطوات العملية التالية :

- بيان **ترتيب** حصول الأحداث في سير رسل الله ، عليهم السلام ، بالرسلات .. والذي كان **حسب سنن الله العامة** ، الدائمة الجريان التي لا يطرأ عليها التغيّر أو التبدّل ، لتحقيق الغاية من رسالات الله تعالى في المجتمعات الإنسانية .. **وبحسب** ما اختارته تلك المجتمعات (القرى) من مواقف ، كما بيّنا في ما سبق من البحث عندما تناولنا آيات سورة إبراهيم .
- ثم **مطابقة الترتيب** السابق لأحداث سير الرسل الكرام ، مع ما ورد في سور القرآن الكريم من بيان لسير رسول الله **الخاتم محمّد** صلّى الله عليه وآله وسلّم في واقعه . بمعنى أن ما حصل مع الرسول الخاتم – مما ورد ذكره في القرآن – يُفهم في ضوء تلك السنن العامة ، من حيث التتابع العام للأحداث ، ومن حيث طبيعة الأحداث نفسها ، في مثل مواجهة ما أوجده أعداء الله تعالى من شبهات وعقبات للصد عن سبيل الله ، ومن مكر وكيد (المناط) .. والصبر على معالجته ، قدراً وشرعاً .. والتوكل على الله والثقة بتحقق وعده ونصره .. فرسول الله محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ليس بدعاً من الرسل ، فسيره بالرسالة في واقعه الإنساني مضبوط بالسنن العامة نفسها التي ضبطت سير سائر الرسل من قبله – كما ذكرنا سابقاً– فلا بد من فهم ذلك **القدْر المشترك** والعلم به مع السنن الضابطة له ، وهو موضوع الاقتداء بالرسل السابقين كما بيّنا .. مع الإنتباه إلى ما **خصّ** الله تعالى به الرسالة الخاتمة ، والرّسول الخاتم ، والأمّة الخاتمة ، من **سنن** ومن **معالجات شرعيّة** في هذا السياق [1] .

---

1 - يجب معرفة تلك الخصوصية عند فهم " المنهاج " ، سواء في السنن التي تحكم تسلسل الأحداث والمواقف وتطورها في العلاقة بين الجماعة المسلمة والمجتمع الجاهلي الذي ليست كلمة الله هي العليا فيه ، أي قبل التمكين ، أم في السنن التي تحكم تسلسل الأحداث والمواقف وتطورها عندما يمَكّن الله للمسلمين ويصيروا أمّـــة من دون الناس . ومن الأمثلة على الخصـوصـية في مرحلة ما قبل التمكين : أن تلك الجماعة المسـلمة الأولى تعتبر نواة للأمّة التي كان على رسـول الله تكوينها وإعدادها بالوحي حتى تصبح قادرة على تحمّل أعباء رسالة الله من بعده ، إكمال الدّين لله ، تطبيقاً وحملاً لها=> للناس كافة إلى قيامالسـاعة : (.. وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ..{78}) الحج. ومن الأمثلة في مرحلة التمكين : سنن الله تعالى في نصر المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين، حيث

❖ دراسة وفهم ما هو **ثابت** من **سنة** الرّسول ، وخاصّة **سيرته** صلّى الله عليه وآله وسلّم [1].. **ومقارنتها ومطابقتها** مع ما توصّلنا إليه في النقطة السابقة ، بقصد **الوصول** – قدر المستطاع – **للترتيب المفصّل** للأحداث والوقائع كما حصلت مع الرّسول الخاتم أثناء سيره بالرسالة . الأمر الذي يؤدي إلى فهم **كيفية تطبيقه** لما كان يتنزّل عليه من المعالجات الشرعيّة – من إيمان وعمل صالح ودعوة – في واقعه . وأيضاً فهم الضوابط التي كان تنزيل المعالجات على أساسها ، كماً وكيفاً ، سيراً نحو تحقيق الغاية من الرسالة ؛ إكمال الدّين لله جلّ وعلا .

فالسنّة – في الأصل – فيها **البيان** لمراد الله جلّ وعلا الذي جاء في رسالته ، وذلك **من خلال تحقيق** ما كان يُنزَّل منها من معالجات وأحكام – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – في الواقع الإنساني (المناط) **بالتنفيذ العملي** ، بالقول والفعل والإقرار [2] . ولذلك ، عند النظر في ما **ثبت** من السنّة والسيرة لفهم " المنهاج " ، لا بد وأن يكون من خلال **بيان القرآن** للمنهاج وفي **ضوءه** ، على أساس أن **القرآن الكريم** هو **الأصل** في **حركة الرّسول** صلّى الله عليه وآله وسلّم لتحقيق الغاية منه .

هذا ، ونولي اهتماماً خاصّاً بالروايات والآثار **الثابتة** ذات العلاقة المباشرة بترتيب الأحداث حسب سننها ، وغالباً ما تكون من نوع الروايات التالية :

1. التي تَذْكر أسباب نزول الآيات أو السور ، أو التي تربط بين أحداث وقعت وبين آيات أو سور من القرآن الكريم ..
2. التي تصف بشكل عام ، **ترتيب** نزول (تلقي) القرآن ، مثل أول القرآن الكريم نزولاً وآخره .. والمكيّ منه والمدنيّ ..
3. التي تصف ، بشكل عام ، المنهج الذي كان **ترتيب** النزول (التلقي) الأول على أساسه ، كمّاً وكيفاً. كما في الروايات التالية :

✓ **الرواية** عن عائشة رضي الله عنها في بيان حكمة الله عزّ وجلّ في أنّ أول ما نُزّل من القرآن الكريم ، الإيمان بالله واليوم الآخر (خطاب النذارة) ، ثمّ نُزّل التشريع والأحكام لاحقاً. حيث قالت : (**أول** ما أُنزل من القرآن سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار ، **حتى** إذا **ثاب الناس إلى الإسلام** ، نزل الحلال والحرام ، **ولو نزل من أول الأمر** : لاتزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبداً ، **ولو نزل من أول الأمر** : لا تشربوا الخمر، لقالوا :

أن عذاب الله لهم سيكون بأيدي المؤمنين - جند الله - بالقتل والأسر وأخذ الغنائم : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)) التوبة . خلافاً لسنة الله تعالى العامة في مَنْ كفر من الأمم والأقوام السابقة ، حيث كان يعذبهم بجنوده في السموات والأرض : (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)) العنكبوت

1 - وقد جمع الشيخ ابراهيم العلي - رحمه الله - ما ثبت من روايات السيرة بين دفتي كتاب واحد أسماه : (صحيح السيرة النبوية) من منشورات دار النفائس - الأردن . وقد أعيدت طباعته مرات عديدة .

2 - " كان خُلُقه القرآن " كما وصفت عائشة رضي الله عنها رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام . أخرجه النسائي .

لا نترك الخمر أبداً . **أُنزل** على النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وأنا جارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وهي من سورة القمر ، **وما نزلت** البقرة والنساء إلا وأنا عنده في المدينة) [1].

✓ **الرواية** عن الصحابي جندب بن عبد الله والتي يصف فيها **طريقة الرّسول** صلّى الله عليه وآله وسلّم في تعليم القرآن (الدّين) للصحابة رضي الله عنهم . قال : (كنا مع النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فتيان حزاير [أشدّاء] ، فتعلمنا الإيمان قبل القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا) [2].

✓ **الرواية** عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : (لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يُؤتى **الإيمان** قبل **القرآن** ، فتنزل السورة على محمّد فنتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزجرها وما ينبغي أن يقف عليه منها ، ثم رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ مابين فاتحته إلى خاتمته ما يدري أمره ولا زجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده ، فينثره نثر الدّقل) [3].

ظاهر الروايات الثلاث السابقة يدل على أن **أوائل ما نُزّل** من القرآن و **تلقاه** الجيل الأول من الأمة وتعلموه من الدّين ، كان موضوعه **العلم** بأن الله هو وحده الإله الحق ، أي أنه وحده الذي تجب له العبودية والطاعة ، مع بيان **مصير** مَن آمن ومصير مَن كفر .. وهو محتوى " **خطاب الإنذار** " (قم فأنذر) : لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، مع بيان المصير .. فأُتوا – بذلك – **الإيمان** ، أي تعلّموا الإيمان .. واستمر تنزيل القرآن إلى أن مكّن الله تعالى المسلمين في الأرض ، ثم تنزّلت باقي أمور الدّين وأحكامه التفصيلية ، مَبْنيّة على الإيمان بـ لا إله إلا الله ، واليوم الآخر ، مُنبثقة عنها . وعلى حد تعبير السيدة عائشة : (حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام) .. فأتوا بذلك القرآن ..

حيث أصبح الأصل في خطاب الله تعالى المؤمنين بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴾ ثم يأتي بعده الأمر أو النهي .. ومثله خطاب الرسول الكريم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فـ ..) ثم يأتي بعده الأمر أو النهي..

فتعلّم المسلمون آيات القرآن وما جاء فيها من أحكام دينهم ، **وعملوا** بما جاء فيها ، أي تعلموا القرآن .. فازدادوا به إيماناً وطاعة لله عزّ وجلّ ، حتى أكملوا دينهم لله تبارك وتعالى ..

فالمقصود من أن يُؤتى الإنسان الإيمان قبل القرآن – كما بيّنته عائشة أم المؤمنين – : أنه عند السير بالقرآن حسب " المنهاج " ، فإن أول ما يُتلقى من القرآن هو العلم بأن الله تعالى هو وحده الإله الحق

1- البخاري .

2 - ابن ماجه بسند صحيح . والمقصود بـ " تعلّم الإيمان قبل القرآن " هو ما بيّنته عائشة رضي الله عنها في الرواية السابقة، من أن تلقي وتعلّم آيات وسور القرآن المتعلقة بالإيمان كان سابقاً لآيات الأحكام الشرعية والحلال والحرام .

3 - الحاكم وصححه على شرط الشيخين . والدّقل : الرديء من التمر .

الذي تجب له الطاعة والعبودية ، والكفر بما دونه من الآلهة المدّعاة ، مع العلم بالمصير وعيش اليوم الآخر ..

ومن بعد ذلك ، يُتلقى من القرآن تفاصيل أحكام العبودية لله في مختلف مناحي الحياة مَبنيّة على ما سبق العلم به منبثقة عنه ، كما تلقاه الجيل الأول من هذه الأمّة المسلمة ، جيل القدوة وخير القرون .. وحسب أطوار السير حتى تحققت الغاية . حيث كان من أوّل **آيات** القرآن نزولاً آيات سورة العلق الخمس الأولى وموضوعها : التعريف والتذكير بالربّ الحق ، من خلال بيان حيثيات الربوبية التي تقتضي الشكر والانقياد للربّ الحق .. وأيضاً سورة الفاتحة ، أم الكتاب ، وفيها التحميد لله والتمجيد لله ، والإقرار له بالعبودية وطلب العون منه عليها .. وآيات سورة المدثر ، وموضوعها : الإنذار ، بمعنى أن أي إنسانٍ بلغه أن الله هو الربّ الحق ، يتحمّل المسؤولية والتبعة – في الدنيا والآخرة – عن الرضا بالله ربّاً ، والقبول به وحده معبوداً ومُطاعاً ؛ فلا يُتلقى الأمر والنهي إلا منه وحده .. فـ **لا إله إلا الله** ..

ولم يكن بعدُ نازلاً من أركان الإسلام سوى الشهادتان ، والصلاة في شكلها الأولي .. فلم يُفرَض بعدُ لا الصيام ولا الزكاة ولا الحج ، ولا حتى الصلاةُ – في شكلها النهائي – إلا في نهاية المرحلة المكيّة قبيل الهجرة إلى المدينة المنورة .. وما حُرّم الربا نهائياً إلا في أواخر المرحلة المدنيّة قبيل وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم [1].. الخ .

وهذه **المنهاجية** في تلقي القرآن (الدّين) مرتّلاً ، هي التي يجب فهمها وفقهها ، من حيث الكيف والكم ، أي من حيث الموضوع والمقدار : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ النمل .. وأثر الحكمة والعلم في تلقي الآيات مرتّلة ، بيّنته الروايات الثلاث السابقة ..

وقد أشار رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى تلك المنهاجية في قوله : {**اسكتوا عني ما سكت عنكم،** فإنما هلك من هلك ممن كان قبلكم **بكثرة سؤالهم** ، **واختلافهم** على أنبيائهم} [2] .. يحث المسلمين على مجرّد الانقياد والاستقامة على ما كان يتنزّل من أمر الله عز وجل ، أولاً بأول ، من غير **تكلّف** في بحث كيفيّته وكميّته .

.. إلخ

وعلى هذا المنوال يمكن دراسة وفهم سنة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و سيرته ، بقصد الوصول لأكمل تفصيل للأحداث والوقائع أثناء سيره بالرسالة ، وفي ضوء بيان آيات القرآن .

***

2. <u>**بيان الترتيب السننيّ لمراحل وأطوار سير الرسول** صلّى الله عليه وآله وسلّم . وكيف أن **سور القرآن الكريم** تتوزّع على أطوار السير المختلفة حتى تحقيق الغاية</u> :

1 - أنظر (صحيح أسباب النزول) و (صحيح السيرة النبوية) لـ إبراهيم العلي .
2 - حديث حسن ، (صحيح أسباب النزول) لـ إبراهيم العلي . آية (101 – 102) سورة المائدة

فقد علمنا أن حصـل عملياً مع رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسـلّم في سـيره ، هو نتيجة لتطبيقه أحكام الدّين (العبادة) كمعالجات على واقعه ، وحســـب " المنهاج " حتى إكمال الدّين لله جلّ وعلا : تزكيةً وإعداداً للمؤمنين ، أفراداً و جماعةً و أمّة . ومعالجةً للعقبات والعوائق في الطريق ، الداخلية منها والخارجية ، من كيانات وشـهوات وشبهات ، ومن مكر وكيد أهل الكفر بأنواعهم المختلفة ، مشركين وأهل كتاب ومنافقين .. إلخ .

هذا ، وكثمرة للنظرة **الشـاملة والعميقة** لسـور القرآن الحكيم ، ولما **ثبت** من روايات السّـنة المطهّرة ومنها السيرة ، **ومقارنتهما ومطابقتهما معاً** .. نحصل على ما يلي :

- الفهم الكامل والشـامل **لما حصل** مع الرّسـول صـلّى الله عليه وآله وسـلّم في سيره بالرسـالة ، بشـقيه القدريّ والشرعيّ ، **ومرتباً ترتيباً سُـننيّاً** ، وبأكثر تفصيل ممكن ، ومن البداية حتى تحقيق الغاية من الرسالة .
- ونرى كذلك أن **سور القرآن الكريم** قد توزّعت على جميع أطوار السير السـابقة ، وذلك بحسـب تعلّق أو ارتباط " **المناط** " الذي جاءت تعالجه كل سورة (مناط السورة) بأي طور منها ..

أولاً : وأمّا ما حصل مع رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام في سيره بالرسالة ، فهو كما يلي [1] :

أ : المرحلة الأولى ، وهي " **ما قبل التمكين** " للحق وأهله في الأرض ، وسِمَتها العامة " الاستضعاف " للحق وأهله . حيث كانت حســب الأطوار الأســاســية التالية لمواقف قريش وملائها من الحق ، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً .. ولكل طَوْر تفاصيله ، خطاباً وأعمالاً :

1. التشـكيك بالحق ، والتهوين من شـأنه وشـأن أهله ، وإظهار عدم الإهتمام واللامبالاة .. وذلك في بدايات مخاطبة الناس بـــــ " خطاب نذارة " { قم فأنذر } ؛ أي بأنه لا إله إلا الله ، **فاعبدوه** ، وبيان مصير من آمن واتبع ، ومصير من كذّب وتولّى .. عند الله جل وعلا .
2. التكذيب وإثارة الشبهات .. في تصعيد لموقف المشركين ، واستمر ذلك حتى السنة الثالثة من البعثة .. ودخولهم مع المؤمنين في جدال بالباطل ..
3. ما لبث أن تحوّل إلى صراعٍ ذي طابع فكري سياسـي ، وذلك على أسـاس " خطاب النذارة " ؛ لا إله إلا الله **فاعبدوه** وبيان المصير ، موضوعاً .. وبالقرآن الكريم ؛ لغة وكلمات :

1 - سنذكر هنا المراحل والأطوار مختصرة ، وسنتعرّض لتفاصيل أوفى في الجزء الرابع : " التبيان لسور القرآن " .

﴿ ..وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان .. أي بالقرآن [1] ..

فكان صراعاً ذا طابع فكري سياسي ؛ أساس " خطابه " القرآن الكريم .. لغة وموضوعاً . حيث كانت ألفاظ الخطاب ومصطلحاته ، **كلمات** الله عزّ وجلّ .. وموضوعه ، **تعيين** مَن الذي تجب **الطاعة** لأمره في المجتمع ؛ الله أم طاغوتهم ؟ ولمن يكون **الاتباع** ، لرسول الله أم للملأ منهم ؟ ، مع بيان مصير من آمن واتبع ، ومصير من كفر واستكبر .. ثم ، تطوَّر الأمر إلى **الإيذاء** النفسي والبدني للمؤمنين (الكيد) ، وذلك من السنة الرابعة من البعثة وحتى السنة العاشرة .. مروراً بالهجرة إلى الحبشة ، وحتى انتهاء الحصار في الشِعب ووفاة أبي طالب .. وقد اتخذت قريش وملؤها الجحود والكفر موقفاً نهائياً من رسالة الله تعالى ورسوله .. وذلك حتى نهاية السنة العاشرة للبعثة .

4. التهيئة للفصل بين الفريقين المتخاصمين في **ربهما** .. فبعد وفاة أبي طالب تجرّأ الملأ من قريش على رسول الله بما لم يستطيعوه من قبل ، ومنعوه من بلاغ رسالة الله جلّ وعلا ، وصدّوه عن المسجد الحرام .. وقد وصل الأمر إلى درجة التفكير والتخطيط (المكر) للتخلص من رسول الله للقضاء على دعوته ، حتى لو أدّى الأمر إلى حبسه أو قتله أو إخراجه من " القرية " .. وقد أصبح الناس فسطاطين متمايزين ؛ مؤمن وكافر .. لينجي الله جلّ وعلا الذين آمنوا من " مكر " و " كيد " الكافرين ، والتمهيد لإنزال العذاب بهم .. وذلك ، من السنة الحادية عشرةَ وحتى الهجرة إلى المدينة في بداية الثالثة عشرةَ .. بدءاً من ذهاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الطائف ، في سياق البحث عن بديل لأبي طالب يؤمّن له الحماية حتى يستطيع أن يبلغ كلام ربه عزّ وجلّ، كما ثبت من خطابه – صلّى الله عليه وآله وسلّم – للقبائل بقوله :

{ **هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي عزّ وجلّ** } [2] .

وبعد ذلك مناجاته ربه بالدعاء المشهور ، وقد استحق قومه العذاب في الدنيا قبل الآخرة بكفرهم .. لكن ، من سنّة الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال

وكذلك ، من سنّته – عزّ وجلّ – في هذه الأمّة الخاتمة ، أن الأصل في عذاب الكافرين أن يكون بأيدي المؤمنين ، قتلاً وأسراً :

﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ التوبة

---

1 - بشهادة سياق الآيات ، وبما أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة والوسع في مدافعة العدو ، وإذا كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم ، وبيان حقائقه لهم لإبطال شبهاتهم وأراجيفهم ، وإتمام حججه عليهم .. وأولها " الحجة الرسالية " .

2 - أخرجه أحمد 322/3 ، 339 .وغيره ، أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ التوبة

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ محمد

لأجل ذلك ، تأجّل نزول العذاب بقريش إلى ما بعد خروج المؤمنين من مكة والهجرة إلى المدينة .. ومن أجل ذلك ، هيأ الله تعالى بيعة الأنصار الأولى والتي كانت بيعة على الإيمان ، ثم الثانية ثم الهجرة لإيواء المؤمنين وتمكينهم ونصرهم .

ب : المرحلة الثانية ، وهي مرحلة " **التمكين** " للحق وأهله في الأرض **وإكمال الدّين لله وحده** ، وكانت حسب أطوار أربعة أساسية – تابعة ومكمّلة لما سبق من أطوار السير – ولكلّ طَوْر تفاصيله ، خطاباً وأعمالاً ، وهي كما يلي :

5. الإيواء والتمكين للمؤمنين . ليُظهر الله تبارك وتعالى الحق وأهله ويُزهق الباطل وأهله.. وذلك، من الإستقرار في المدينة وإعلان ميلاد " الأمّة المسلمة " بشكلها الأساس ، من خلال " وثيقة المدينة "، وتحوُّل الخطاب القرآني إلى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ .. إلى ما بعد غزوة بدر ، وتحقُّق وعد الله تعالى – بحسب سنته – بوقوع العذاب على قريش بأيدي المؤمنين في غزوة بدر قتلاً وأسراً .. فلا هم **استغفروا** ربهم ، ولا هم **أبقوا** رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيهم [1] . وذلك بعد سَنة ونصف من الهجرة .. حيث كان القتال مأذوناً به دفاعاً عن النفس :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

6. التثبيت وعدم الاستئصال . حيث تحوّل ميزان القوى لصالح الأمّة المسلمة الناشئة .. وذلك، من غزوة أُحد إلى ما بعد غزوة الأحزاب . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعدها :

---

1 - ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال

{ **الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم** } [1] . ونزل الأمر بالمبادأة بالقتال .

7. الفتح والانتشار .. من صلح الحديبية إلى فتح مكة . لاحظ سورة الفتح .

8. إكمال الدّين (العبودية) لله تعالى والاستخلاف في الأرض . وقد اكتملت في الأمّة المسلمة خصائصها ومقوماتها .. وذلك ، من بعد فتح مكة إلى حجة الوداع ، ونزول الأحكام النهائية في سورة التوبة ومن قبلها سورة المائدة ، وإنفاذها على مستوى الجزيرة العربية .. ثم وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد ترك الأمّة على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها ، فلا يزيغ عنها إلا هالك ، حيث أكملت دينها لله جلّ وعلا . وقد أصبح أمر القتال إلى مقاتلة المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة .

ثانياً : أما بالنسبة لتوزيع **سور القرآن الكريم** على الأطوار الثمانية السابقة ، وبحسب تعلّق أو ارتباط " **مناط السورة** " الذي جاءت تعالجه كل سورة ، بأي طور منها :

ذكرنا أن كل سورة في القرآن الكريم جاءت لبيان المعالجات للواقع الإنساني (المناط) وحسب أطوار سير رسول الله بالرسالة في واقعه . وأن كل " **مناط** " حدث ووقع في " **طور**" من أطوار السير حسب سنن الله تعالى في تتابُع وتسلسل حدوث الوقائع والمواقف . فتصبح السور – تبعاً لذلك – **موزعة كمجموعات** على الأطوار الثمانية السابقة ، وكل مجموعة منها تبيّن وتفصّل المعالجات – الشرعيّة والسننيّة – للمواقف والأحداث التفصيلية التي حدثت في الطور المتعلقة به ، وحسب سنن الله تعالى في تتابع حدوثها ، كما جاءت مبيَّنة في القرآن والسنّة [2] .

مع ملاحظة أن هذا الترتيب للسور – بالإضافة إلى كونه ترتيباً **سننياً** – فهو ترتيب **تلقٍ** للرسالة ، فهو **تكامليّ** ، بمعنى أن ما نُزّل في الطور الثاني يُضاف إلى ما نُزّل في الطور الأول ، مكمّلاً له .. فما يُنزّل لاحقاً يُضاف إلى ما نُزّل سابقاً ، كالبناء يكمّل بعضه بعضاً .. وهكذا حتى تمام تلقي الرسالة ، وحينئذ ؛ يكون السير قد اكتمل وتحققت الغاية :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى **يُنَزِّلُ** عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ **لِّيُخۡرِجَكُم** مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩ ﴾ الحديد

(يُنَزِّلُ .. لِّيُخۡرِجَكُم) فباستمرار التنزيل يستمر الخروج .. حتى إذا تمّت الآيات البيّنات نزولاً وتلقياً واتّباعاً واستقامة .. يكْمُل الإخراج من الضلال والدخول في الهدى كافة (إكمال العبودية لله تعالى) .. كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله :

1 - أخرجه البخاري . انظر صحيح السيرة لـ إبراهيم العلي .

2 - وبيان ذلك وتفصيله في الجزء الرابع : " التبيان لسور القرآن " .

(نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا ، فكان الله إذا أراد أن **يُحدث في الأرض شيئا أنزله منه حتى جمعه**) [1] .

وبذلك يتكوّن عندنا الفهم الكامل والشامل والعميق ، لما حصل مع الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **في واقعه** ، بترتيبه **السننيّ العام ، والمفصّل** بقدر ما وصلنا من روايات ثابتة في السنة والسيرة.

وهذا الفهم لما حصل مع الرّسول الكريم ، هو **فهم منهاجيّ** للسير بالرسالة قُدُماً نحو تحقيق الغاية منها ؛ إكمال الأمّة دينها لله جلّ وعلا .. فهو فهم **لكيفية تطبيق** رسول الله لما كان **يتنزّل** عليه من معالجات شرعيّة – من إيمان وعمل صالح ودعوة – في واقعه ، و فهم **للضوابط** التي كان تنزيل تلك المعالجات على أساسها ، كماً وكيفاً ..

وعلى أساس هذا " **الفهم المنهاجيّ** " الكامل والعميق – قدراً وشرعاً – للسور ، يكون السير لتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني في أي زمان ومكان . وبيان ذلك سيكون في النقطة التالية ، بإذن الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين .

# # #

1 - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور .

فصل :

بيان كيفية السير العملي بالرسالة حسب " المنهاج " ، بقصد تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني المعيّن ، بناء على ما سبق بيانه في هذا البحث .

أولاً : بيان بعض الخطوط العريضة أو الأطر العامة للكيفية [1] :

1. إن المسلمين – أفراداً وجماعة وأمّة – مُتَعبّدون **بالجانب الشرعيّ** للمنهاج ، أي بالمعالجات الشرعيّة والأوصاف والضوابط الشرعية للأفعال والخطاب ، والتي بيّنتها سور القرآن المجيد (الكتاب) ، وكما طبقها رسولنا الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، على الواقع الإنساني (الحكمة) .
2. إن **الجانب القدريّ** لـ " المنهاج " ، **لا** يدخل في دائرة الاقتداء بالرسول ، لأنه ليس تكليفاً شرعياً .. بل هو من أمر الله القدري .. فموضوعه بيان **الطبائع والخصائص** وفهم **السنن الضابطة** لها ، فهو يضيء لحَمَلة الرسالة الطريق من خلال فهم **التسلسل العام** للأحداث .. ويُمكّنهم من استشراف المستقبل وتوقّع الأحداث قبل حصولها .. فيَحْمل المؤمنون ، أفراد وجماعة وأمّة ، رسالة الله عزّ وجلّ وهم على بيّنة من أمرهم وبصيرة وفهمٍ لمراد ربهم جلّ وعلا :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف

3. إن الترتيب **التفصيلي** لحصول الوقائع وتسلسل الأحداث للسير بالرسالة يُعتبر من **الجانب القدريّ** لـ " المنهاج " ، فالذي يحدده في أي مجتمع إنساني – في كل زمان ومكان – وقد بلغهم الحق بلاغاً مبيناً، هو **مشيئة الله** تبارك وتعالى ، متمثلة في **خصائص** السير بالرسالات في المجتمعات الإنسانية و**سنن الله** الضابطة لها – أمر الله القدريّ – وحسب ما **يختاره** المجتمع من تلك الخصائص وسننها ، عند اتخاذ مواقفه من رسالة الله وحَمَلتها .. ف بها جميعاً – **الخصائص والسنن واختيارات المجتمع** – تكون النتيجة الفعلية لواقع الناس ، ومصيرهم في الدنيا والآخرة [2] ..

ومن هنا، فالتتابع (الموالاة) والترتيب المفصّل للأحداث والأعمال لا يدخل في دائرة الإقتداء بالرسول، لأنه ترتيب **سننيّ** وليس ترتيباً **شرعياً** ، فهو متوقف على طبيعة الواقع الإنساني (المجتمع) ، وعلى رد فعله من الحق وأهله .. وقد بلغه الحق بلاغاً مبيناً ..

وعليه ، فإن ما حصل مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم – أثناء حمله للرسالة – من أعمال وأحداث **بترتيبها المفصّل** ، ليس شرطاً أن يحصل مع حملة الرسالة الآن .. كما أن ما حصل مع

---

1 - سيكون العرض هنا مجملاً وبشكل مبادئ عامة ، لأن المقصود هو رؤية أوضح وفهمٍ أكثر لطبيعة " المنهاج " . والبحث المفصّل لهذه النقطة سيكون في الموضِع المخصص لها ، وهو الجزء الخامس : " التنزيل على الواقع " .

2 - (.. إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. {11}) الرعد
(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ .. {53}) الأنفال

رسل الله السابقين – عليهم السلام – **بترتيبه المفصّل** لم يحصل مع الرسول الخاتم .. فلكل واقع إنساني ، في زمانه ومكانه ، **ترتيب مفصّل** للأحداث عند السير فيه بالرسالة حسب " المنهاج " ، لتحقيق الغاية منها .. ومن هنا ، فليس هنالك **ترتيب مفصّل** لأعمال السير بالرسالة ، لا **شرعيّ** ملزم، ولا **سننيّ** واجب الحدوث .. إنما هي الخصائص والسمات العامة لكل طور ولكل مرحلة ، وسننها الضابطة لها ، وهي الأمر العام المشترك بين رسل الله جميعاً ، كما بين الله تعالى ذلك في سورة إبراهيم وغيرها من السور.

4. وعلى ما سبق ، والقرآن الكريم بين أيدينا **جملة واحدة** ، مرتلة آياته حسب " التسوير " ، فإن حَمْله والسير به في **واقع إنساني معيّن** – في أي زمان ومكان – بقصد معالجة ذلك الواقع حتى تحقيق الغاية .. يكون حسب الجانب الشرعي لـ " **المنهاج** " ، **وذلك بالتنزيل المفرّق** (الترتيل) لآيات القرآن الكريم حسب " الضابط الشرعيّ " ، على الأحداث والمواقف (المناط) المتعلقة بها ، حال حدوثها في طورها ومرحلتها ، حسب " الضابط السننيّ " .

ويتحقق ذلك عملياً بالالتزام بـــــ " الطريقة الشـرعية " في تنزيل الأحكام والمعالجات الشـرعية على الوقائع ؛ أي على " المناط " ، وهي كالتالي :

- ✓ بداية ، لا بد من " **تحقيق المناط** "، أي فهم **الحالة** التي عليها هذا **الواقع الإنســـاني المعين** ، قياســاً إلى مدى قربه أو بعده عن تحقُّق الغاية من الرســالة فيه ، وقياســاً إلى الخط العام للســير بالرسالة الخاتمة .. لمعرفة في أي **مرحلة** يأتي هذا الواقع الإنساني المعين وفي أي **طور** .
- ✓ وبعد ذلك ، يكون بيان **المعالجات الشرعية** اللازمة لمعالجة ذلك " المناط " ، حسب " المنهاج "، ومعرفة النقطة التي يبدأ منها السير ، خطاباً وأعمالاً .
- ✓ وتعيين **المكلّـــــف المَعْني** – الفرد أم الجماعة أم الأمّة – في تطبيق تلك المعالجات على ذلك المناط .

5. من بعد ذلك كله ، يبدأ المكلّف المَعْني بالسير الفعلي حسب المنهاج ، **بتنزيل** ما يلزم من **آيات القرآن** الكريم – **تلاوة وبياناً** – التي فيها المعالجات **للمناط** المعيّن (الضابط الشرعيّ) ، **حال ظهوره** أثناء السير (الضابط السننيّ) ، سواء كان ذلك ، بتنزيل آية واحدة أو عدة آيات أو سورة كاملة .. فيعالَج ذلك الواقع **فعلياً** بآيات الرسالة ، وبترتيب تنزيل **تفصيلي متناسب** مع تتابع حصول الأحداث والمواقف في مرحلتها وفترتها ، حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيه .. تماماً ، كما نُزّلت آيات القرآن المجيد أول مرة على مكث ، **مرتلة** على قلب الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لمعالجة الواقع الإنساني آنذاك حسب " المنهاج " وبترتيب النزول التفصيلي **المتناسب معه** (ترتيل التلقي الأول)، حتى تحققت الغاية من الرسالة وكَمُل دين الأمّة (عبوديتها) لله جلّ شأنه .. وقد حدث ذلك التنزيل **المرتّل** للآيات

، والرسالة موجودة **جملة واحدة** ، **سواء** في اللوح المحفوظ أم في السماء الدنيا ، مرتبةً آياتها حسب ترتيلها الأصل ؛ " التسوير " . كما في الرواية عن ابن عباس والتي تصف هذا الأمر :

(نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا ، فكان الله إذا أراد أن **يُحدث في الأرض شيئا ، أنزله منه حتى جمعه**) [1] .

6. ومن ثَم ، فعند **السير الفعلي** بالرسالة حسب " **المنهاج** " من أجل تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني المعيّن ، في أي زمان ومكان ، والرسالة الآن بين أيدينا جملة واحدة ، فإن حَمَلة الرسالة **ليسوا ملزمين** بالتعامل مع آيات القرآن الحكيم كـ " سُوَر " كما حصل عند **فهم** " المنهاج " أول الأمر ، بل **العبرة** الآن **بالمعالجات** نفسها ، ولكل مناط معالجاته .. ذلك أن ترتيل الآيات في سور (التسوير) دليل على " **المنهاج** " وعلى **ضوابط** تنزيل الآيات مرتلة . أي على بيان كيفية تلقي الرسالة وبيان **طبيعة السير** بها .. كما بيّنا فيما سبق عند بحث خطوات فهم دلالة " التسوير " ..

أما دليل وبيان السير الفعلي والعملي بالرسالة في الواقع الإنساني المعيّن بقصد تحقيق الغاية منها ، فهو ما حصل مع الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهو أنه لا بد من تلقي القرآن مرتلاً .. وتنزيل المعالجات على مكث حسب " المنهاج " على المناط الحاصل فعلاً .. في طوره ومرحلته .

فالبرغم من وجود القرآن جملة واحدة في اللوح المحفوظ ، وإنزاله إلى السماء الدنيا كذلك جملة واحدة.. إلا أنه عند **تنزيله** على قلب رسول الله للمباشرة بمعالجة الواقع الإنساني آنذاك ، كان التنزيل **مفرقاً** على مكث وأن ذلك التفريق كان له " **ترتيل** " معين له ضوابطه السننيّة والشرعيّة . أي أن معالجة الواقع الإنساني آنذاك كانت بالسير حسب " المنهاج ".. أولاً بأول .. حتى تحققت الغاية من القرآن :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ **جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ** كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ **وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا** ٣٢ ﴾ الفرقان

وإليك مثالاً من أحد المواقف مما حصل مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في " التنزيل (التلقي) الأول " كما جاء في الرواية الثابتة ، عندما بعثت قريش عتبة بن ربيعة ليفاوض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. فمِمّا قاله عتبة في وصف الحال الذي أصبح عليه الموقف بين الجماعة المؤمنة من جهة وبين المجتمع الذي يعبد الطاغوت ، أي المجتمع الجاهلي ، من جهة أخرى :

(.. أما والله ما رأينا سخلة أشأم على قومها منك ، فرّقتَ جماعتنا ، وشتّتَ أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى طار فيهم أنّ في قريش ساحراً ، وأنّ في قريش كاهناً . ما يُنتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى .. وبعد أن انتهى من عرض ما جاء به ، قال له رسول الله : { **أفرغت** } . قال : نعم . فقال رسول الله :

1 - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور .

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ حتى بلغ ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصّلت:1-13])[1] .

فتعامَل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مع **الموقف** ، بتلاوة بعض آيات سورة فُصّلت .. أي أنه **عالج المناط** الحاصل مكتفياً بتلاوة بعض الآيات ، وليس بسورة كاملة .. وهذا فيه دلالة على أن الأصل في الخطاب أن يكون بالقرآن ، وأنه لا يُشترط تنزيل كل ما جاءت به السورة من معالجات مرة واحدة ، وإن كانت السورة تشكّل وحدة واحدة ، فلا يُشترط ذلك .. لأن كونها تشكّل وحدة واحدة دليل على " المنهاج " ، أي على **بيان** طبيعة السير ، وكيفية معالجة " المناط " في طوره ومرحلته .

ومن جهة أخرى ، فعدم اشتراط تنزيل جميع المعالجات مرة واحدة ، ينسجم مع طبيعة الحركة بالرسالة في المجتمع ، حيث تأخذ الأحداث (المناط) – في الغالب – طابعاً مركباً وليس بسيطاً ، فيكون لها أبعاداً وتداعيات مجتمعية كثيرة ؛ ذلك أن المقصود من الحركة بالرسالة في المجتمع هو معالجته كمجتمع ، أفكاراً وعلاقات وأنظمة [2] .. فالأفراد والمواقف والأحداث يُعالَجون على أساس أنهم أفراد في مجتمع معيّن ، ومن أمّة مميزة صاحبة رسالة ، ومسؤولة عن تطبيقها على نفسها ، وعن حملها للناس .. لهذا تأخذ الأحداث والوقائع (المناط) المراد معالجتها طابعاً مجتمعيّاً ، وإن كانت في ظاهرها فردية .. وقد تكون موقفاً فكريا للمجتمع وملائه ، أو حالة اجتماعية أو سياسية .. *كما في الرواية السابقة* .. وقد تأتي المعالجة في السورة فيها التفصيل للتعامل مع الجوانب المختلفة والمتنوعة للمناط ، فليس شرطاً استخدام كل المعالجات لكل جوانب المناط دفعة واحدة بل تُقدّر الأمور بقدرها ، وهذا يحتاج إلى قدر كبير من " **الحكمة** " في التعامل مع الواقع الإنساني . بدليل ما حصل مع رسول الله في تلقيه الآيات أول مرة ، حيث كان مفرقاً وعلى مكث ؛ أي **مرتلاً** :

﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ **يَتۡلُواْ** عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ **وَيُعَلِّمُهُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ **وَٱلۡحِكۡمَةَ** وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ آل عمران

والضابط في الأمر هو : تحقيق المعالجة الفعّالة للمناط المعيّن ، الحاصل في طوره ومرحلته من السير . أي إحقاق الحق وإزهاق الباطل في إطار عملية البناء والهدم ، وحسب الضوابط والاعتبارات الشرعية ، حتى تحقيق الغاية من الرسالة .. وبالتالي لا بد من استخدام **التنويع** المناسب ، سواء بالأفكار أم بالأسلوب . وفي الوقت المناسب ، والحال أو المقام المناسب ؛ وهذه هي **الحكمة** ، سواء تحقق ذلك بتنزيل آية واحدة أم بعدة آيات أم بسورة كاملة ..

---

1 - (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي .

2 - المجتمع هو : منظومة مكونة من الناس، والأفكار، والمشـــاعر، والقوانين، التي تتفاعل فيما بينها، وتوجهها القيادة المجتمعية في ضـــوء وجهة النظر في الحياة ، نحو غاية كلية تحددها وجهة النظر . أنظر" النظرية الإسـلامية في فلسـفة الدراسات الإجتماعية والتربوية " د عبد القادر هاشم رمزي . وللتفصيل أنظر بحث " مفاهيم ومصطلحات رسالية ".

ومن الجدير – حينئذ – **النظر** في ما ثبت من سنة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، باعتبارها **مثالاً** و**بياناً** عملياً لكيفية تنزيل المعالجات على **الواقع الإنساني** ومعالجته بها " **على مكث** " .. للاقتباس من **نور الحكمة النبوية** في التعامل مع الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة ، وعلى أساس أن **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب** .

7. ومن هذا المقام ، نشهد طرفاً من حكمة الله جلّ ثناؤه في **تكليف** رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، **بإعادة جمع القرآن** جملة واحدة ، وترتيب آياته حسب " **التسوير** " .. الترتيب الأصل ..

ونشهد جانباً من حكمته جلّ وعلا في **حِفْظه** للقرآن بحسب " التسوير " كرسالة خاتمة للناس .. فقد كان حفْظاً **للرسالة** ، وحفْظا **لمنهاجها** معاً ، حتى قيام الساعة ..

لذلك ، تكفّل الله **بذلك كله** – الجمع والحفظ – بنفسه جلّ وعلا ، ولم يكِلْه لأي مخلوق كان مهما علت منزلته عند الله جل وعلا ، ليبقى القرآن الكريم **رسالة الله الخاتمة** ، **تامة الآيات** ، وعلى ترتيلها الأصل " التسوير " دليل **منهاجها الثابت** ، **هداية** لمن أراد من النّاس الهداية ، و**حُجّةً** على من أبى ، والتحدي بها قائم .. ولتبقى **دائماً** فيها **القدرة** على تحقيق **الغاية منها** ؛ إكمال الدّين (العبودية) لله تبارك وتعالى والمُحافظة عليها محققة .. متى أُريدَ بها ذلك .. ولنا القُدوة الكاملة والأُسوة الحسنة في رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وقد حقّق ذلك كلّه أول مرة :

﴿ ..قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة

﴿ ..وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت

ونؤكّد هنا ، على أن ما حصل مع رسول الله في سيره بالرسالة لإكمال الدّين لله جلّ ثناؤه ، حسب " المنهاج " ، **يستوعب** – كمعالجات شرعيّة وسننيّة – **كل ما يمكن أن يحصل** مع المسلمين والأمّة المسلمة من أحداث ، وكل **ما يمكن** أن يواجهوه حتى قيام الساعة ؛ من نصر أو هزيمة ، من قوة أو ضعف ، من رخاء أو شدة .. فكل ما يلزم العلم به **من الشرع** ، قرآناً وسنة ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة .. أو ما يلزم العلم به **من خواص وسنن** تحكم الواقع الإنساني .. **لفهم الواقع** (تحقيق المناط) **وتنزيل المعالجات** ، **والسير حسب** " **المنهاج** " .. فكلّه محفوظ ، بحفظ الله عزّ وجلّ لآيات القرآن الكريم حسب " التسوير " (الترتيل الأصل) مع ما يلزمه من البيان ، أي بوصفه " الذّكْر " ، فكان حفْظاً للرسالة ؛ **معالجاتها** و **منهاجها** معاً ، حتى قيام الساعة :

﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ **تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** **وَهُدًى** وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ.. ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء

" أي ، إن هذا القرآن الذي بين أيدكم ، بآياته وسوره ، يهدي للتي هي أعدل وأعلى .. هكذا على وجْه الإطلاق ؛ **فيمَن** يهديهم ، **وفيما** يهديهم إليْه من كلّ منهج وكلّ طريق وكلّ خير ، وفي كلّ زمانٍ ومكان " ..

والحمد لله رب العالمين .

***

ثانياً : وبناء على ما سبق ذكره ، **أين نقف نحن المسلمين الآن** حسب **سنن** الله تعالى في **الأمم حملة الرسالات** ، في أي مرحلة أو طور (تحقيق المناط) ؟ ومن أين نبدأ السير بالمعالجة [1] ؟

أ – لا بد بداية ، من " **تحقيق المناط** " ، **أو تشخيص واقع الأمّة المسلمة** ، وواقع المجتمع الذي تعيش فيه لمعرفة أين هي من الغاية المرادة ؟ وكم هي بعيدة عن تحقيق الغاية من الرسالة وحسب الوصف الشرعي التسلسل السننيّ العام لخط السير ؟ فهل هي في مرحلة التمكين ، وينطبق عليها الوصف الشرعي للأمة المسلمة ، أو في ما قبل التمكين ؟ وهل كلمة الله تبارك تعالى هي العليا فيها ، أو كلمة الطاغوت ؟ وهل أصابها – حسب سنن الله تعالى – بعض ما أصاب الأمم حَمَلة الرسالات قبلها من أمراض وانحرافات؟ وما درجة الإصابة ؟ ..

وفي هذا السياق ، نذكّر بالنقاط التالية ونؤكد عليها :

1– إنّ حال " **إكمال الدّين لله** " التي ترك عليها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، الأمّة المسلمة عند وفاته ، وقد شهدت الأمّة له في حجة الوداع بأنه بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأشهد الله تعالى على ذلك ، وقد نزلت شهادة الله بأنها أكملت دينها وعبوديتها لله تعالى :

﴿ ..ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ** وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ..﴿٣﴾ ﴾ المائدة

وهذه الحال هي " الحال المعيارية " أو "المقياس" أو "المرجع" في قياس مدى تحقق غاية الرسالة في الواقع الإنساني .. وهي المقياس الأصل الذي يُرجع إليه – في كل زمان ومكان – عند النظر في واقع الأمّة المسلمة لتقييمه (تحقيق المناط) ، ومعرفة ما يجب عمله (المعالجات) .. فهي **الحال الشرعيّة الأصل** التي **يجب** أن يكون عليها المسلمون **دائماً** ، حتى قيام الساعة ، بوصفهم الأمّة الخاتمة المسؤولة عن رسالة الله الخاتمة تطبيقاً ودعوة . ومن أركان الوصف الشرعي لـ " الأمة المسلمة " :

- أنها **مُمكّن لها** في بقعة من الأرض ،

1 - سنتكلم هنا بشكل عام ومُجمل ، بقصد إعطاء رؤية أوضح وفهمٍ أكثر لطبيعة " المنهاج " . والبحث المفصّل لهذه النقطة سيكون في الموضع المخصص له ، وهو الجزء الخامس : " التنزيل على الواقع " .

- ذات **سلطان** عليها ، تمثّله " **إمارة عامة** " ،
- وبها جميعاً ، أي بـ الإمارة العامة ذات السلطان على بقعة من الأرض ، تستطيع الأمة جعل **السيادة** لدين الله تعالى في المجتمع الذي تعيش فيه (كلمة الله هي العليا) ، حتى تكون العبودية كاملة لله تبارك وتعالى (إخلاص الدين لله) **بتنفيذ** كل ما أمر الله به على نفسها ، وعلى من هو في ذمتها من غير المسلمين (أهل الذمة) ، وحمل **دعوته** للناس كافة بالجهاد في سبيل الله .. أي تحقيق الغاية من الرسالة .

2– إنّ كون الأمة المسلمة على تلك الحال ، **لا يلزم** منها **أن يعتنق** جميع أفراد المجتمع – الذي تعيش فيه الأمة وتمارس عليه سلطانها – دين الإسلام ، لأن الله سبحانه وتعالى جعل **الأصل** في **دعوة** الأفراد الكافرين ، عدم الإكراه :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ البقرة [1]

وهذا ما كان عليه الحال والعمل فعلاً زمن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في المدينة المنورة وفي الجزيرة العربية . وكذلك كان الحال والعمل زمن الخلفاء الراشدين ومن أتى بعدهم في البلدان التي فُتحت لاحقاً وحُررت من عبادة غير الله تبارك وتعالى .. وإلا لم يكن هنالك " أهل ذمة " أصلاً ..
فـ " أهل الذمة " هم غير المسلمين الذين يخضعون لسلطان المسلمين وأحكام الإسلام (القانون العام) . وقد أقرّهم الله تعالى أن يبقوا على عقيدتهم وعلى بعض أحكام دينهم في بعض شؤونهم الشخصية ، إنْ هم أرادوا ذلك . ويدفعون الجزية مقابل عيشهم في أمان بين المسلمين [2] :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التوبة

ومن ثم ، فـ " **إكمال الدّين لله** " شرطه أن تكون **كلمة** الله جل وعلا هي العليا .. أي أن **شرع** الله تعالى **وأمره** هو **الظاهر** في المجتمع فوق كل شرع وأمر (السيادة للشرع) ، فيكون الله تبارك تعالى ، هو وحده **الإله** المطاع أمره في **تنظيم علاقات المجتمع ورعاية شؤونه** الداخلية والخارجية ، المسلمين ومن هم في ذمة المسلمين :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة

---

1 - أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي . صفحة : 50-51 . وتفسير ابن كثير .
2 - أنظر (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) د محمد خير هيكل .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

فهذا هو المعتبر عند النظر لقياس مدى **تحقق** " **الغاية من الرسالة** " في المجتمع المعين ، وليس ملاحظة **عقائد أفراد** ذلك المجتمع ، أي من كونهم مسلمين أم لا . فالأمر الذي ينظر إليه هو : " عبودية المجتمع " بوصفه مجتمعاً . بمعنى لشرع مَن يخضع أفراد المجتمع في **تنظيم علاقاتهم** ، ولحكم مَن يحتكمون ؟ فالسيادة لأي شريعة وأي قانون ؟ .. أي ، مَن هو **الإلـه** الذي يعبدونه ويتبعونه بتنفيذ **دينه (قانونه وشريعته)** في رعاية شؤونهم كلها ؟ . هذا هو الضابط في **قياس** مدى **تحقق** " **الغاية من الرسالة** " في مجتمع معيّن ، ألا وهو معرفة حقيقة "عبودية المجتمع" ، ولمن يقدمها . وفي تحديد حقيقة وصف ذلك المجتمع ؛ " جاهلي " أم " إسلامي " :

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ **أَهۡوَآءَهُمۡ** [1] وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ **أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ** وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة

((فلا ثَم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية . فمن أعرض عن الأول ابتُلي بالثاني)) [2].

فإن كان حكم الله تعالى وشريعته هي السائدة ، والناس منقادون متّبعون لها – المسلمون وغير المسلمين – فالمجتمع مسلم لله تعالى ، فهو " مجتمع إسلامي " ، وإن كان كثير من أفراده غير مسلمين .. أما إن كان حكم " الجاهلية " وشريعتها هي السائدة والناس منقادون لها ، والمجتمع متّبع لحكم الجاهلية ، فهو " مجتمع جاهلي " ، وإن كانت الغالبية العظمى من أفراده مسلمين .

مما يعني أن الحكم على " **المجتمع** " بأنه " إسلامي" أو "جاهلي" ، يكون حكماً عليه بوصفه **مجتمعاً** ، وليس حكماً على أفراده . فلا **يلزم** من الحكم على المجتمع إطلاق نفس الحكم على **الأفراد** و**الأعيان** من حيث إيمانهم وكفرهم ، لا حكاماً ولا محكومين .. وذلك :

– لأن المجتمع الإنساني ليس مكوناً من **مجموع** أفراد فقط ، حتى يكون الحكم على المجتمع حكماً على أفراده ، فهو ليس أي جماعة من الناس .. بل حقيقة المجتمع الإنساني أنه : **الجماعة** من الناس ، التي بين أفرادها **علاقات دائمة** (اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية ..) ، ولها **نظام** يرعى شؤون ومصالح الأفراد والمجتمع ، من خلال تطبيق **قوانين وتشريعات** تُسيّر تلك العلاقات داخلياً وخارجياً .. هذا هو المجتمع.. ومن ثَمّ ، فالحكم عليه من حيث وصفه ؛ هل هو " جاهلي " أم " إسلامي" ينصبّ على " عبودية المجتمع " ، ينصبّ على الجهة التي يخضع لأمرها المجتمع في تنظيم علاقاته وإدارة شؤونه –

---

1 - أي آراءهم وأحكامهم وقد اتخذوها من غير دين الله تعالى ، سواء كانت رأي أغلبية أم رأي أقلية أم فردٍ أم طبقةٍ.. الخ .
2 - تفسير السعدي .

سواء كان راضياً أم مكرهاً – .. فالحكم ينصبّ على مصدر النظام ، وعلى المرجعية في سنّ التشريعات والقوانين (الدّين) ، أي على مَن هو **الإله** المطاع **أمره** في هذا المجتمع :

﴿ ..كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ..﴿٧٦﴾ ﴾ يوسف

(فِي دِينِ الْمَلِكِ) : أي ، في شريعة الملك النافذة ، أي حسب قانونه .. إنما أخذ أخاه حسب حكم شريعة الله المنزلة على يعقوب عليه السلام [1] ..

فبحسب الجهة التي يتلقى المجتمع منها أنظمته وتشريعاته (**دينه**) في رعاية شؤونه وتنظيم علاقاته الداخلية والخارجية ، يكون الحكم عليه في كونه يعبد الله جل وعلا (مجتمع إسلامي) أم يعبد غير الله (مجتمع جاهلي) .. أي بحسب من هو صاحب الكلمة العليا في المجتمع .. وصاحب الأمر النافذ .

– إن مسألة الحكم على إيمان الأفراد تختلف عن مسألة الحكم على المجتمع ، ولها ضوابطها الخاصة بها ، ليس هنا موضع بسطها .. ومنها : أن الفرد إذا تلبّس بقَولٍ أو فعلٍ كُفْريّ ، **لا يلزم** منه تكفير ذلك الفرد مطلقاً ، حاكماً كان أو محكوماً ..

– ومن جهة أخرى ، فإن الحكم على الأفراد من حيث إيمانهم وكفرهم ، ليس له اعتبار في بداية السير في مرحلة ما قبل التمكين ، أي قبل وجود الأمّة المسلمة بوصفها الشرعي الأساس ، إلا من باب تشخيص واقع الفرد (تحقيق المناط) لمعرفة وتحديد ما يلزمه من معالجات شرعيّة وسننيّة ، أي كنظرة الطبيب للمريض لتشخيص حالته ثم تقديم العلاجات المناسبة لحالته ، وليس كنظرة القاضي لواقع المتهم للحكم عليه وإنزال العقوبة به .. ذلك أن القاضي المسلم يستمد وجوده من الأمّة المسلمة صاحبة السلطان ..

اللّهم ، إلا في أطوار متقدمة من السير في مرحلة " ما قبل التمكين " وبعد ظهور موقف الأفراد الجليّ الواضح (المناط) وردة فعلهم البيّنة من الحق في " خطاب النذارة " ، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً ، سواء كانوا حكاماً أم محكومين ، أتباعاً أم متبوعين .. حينئذٍ ، فإن من المعالجات – في حال أصروا على رفض اتخاذ الله وحده رباً متّبعاً وإلهاً مطاعاً – إنزال الآيات المتعلقة بواقعهم (المناط) والتي **تصفهم** بما يستحقون شرعاً وقدراً ، **وتكشف** حقيقتهم أمام عامة الناس .. مثل وصفهم بالجهل ، المعاندة ، الكِبْر ، الإفساد ، الظلم ، الفسوق ، الإجرام ، الكفر ، بأنهم نجَس .. إلخ .

3 – إن البراءة من الشرك في مرحلة " ما قبل التمكين " تتمثل في **البراءة** من **المعبود** المُتبع (الطاغوت) ومن دينه (التشريعات) **فقط** ، دون الأعيان والأفراد :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون

---

1 - انظر مثلاً : تفسير الجلالين ، و التفسير الميسّر .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأنعام

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ يونس

﴿ .. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ الشعراء [1]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الزخرف

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام [2]

– إلخ .. مما ورد في السور المكيّة حول هذا السياق ..

أما بعد أن توجد " الأمّة المسلمة " بوصفها الشرعي ، أي ذات السلطان وكلمة الله هي العليا فيها، ويوجد القاضي المسلم المخوّل بإصدار الأحكام القضائية حسب دين الله ومن شريعته ، وتأخذ تلك الأحكام طريقها للتنفيذ الفعلي بقوة السلطان ((إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)) .. ففي هذا الواقع تصبح البراءة من الشرك ليس بالبراءة من المعبود المُتبع (الطاغوت) ودينه (التشريعات) فقط ، بل وأيضا **البراءة** التامة من **الأفراد** العابدين المتبعين لغير الله ورسوله والمؤمنين ، ومفاصلتهم ، ويكون ذلك بحسب " المنهاج " . **والخط العام** في ذلك هو ما حصل مع رسول الله في قيادة **الأمة المسلمة** في المدينة المنورة، حيث كان يسير في الأمر على مكث – بالتدرّج أو بالترتيل – بحسب **استطاعة الأمّة** واستعدادها لخلع الولاء من غير المسلمين الخاضعين لسلطانها وغيرهم ، وجعله لله وحده ولرسوله وللمؤمنين .. وبشرط المحافظة على **وحدة كيان** الأمّة وتماسكه .. وأيضاً ، بحسب **تطوّر مواقف** الكتل والجماعات (الكيانات) غير المسلمة في كيان الأمّة – من مشركين وأهل كتاب ومنافقين – من الحق ومن سير الأمّة نحو إكمال دينها لله [3] :

---

1 - فكان الأصـــل في الموقف من أعمال الكافرين - خاصـــة في أواخر المرحلة المكية - هو الإعراض عنهم و"الإنكار السـلبي" على مواقفهم ، وهو الحد الأدنى من الإنكار، كما في قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُــونَ فِي آيَاتِنَا **فَأَعْرِضْ** عَنْهُمْ **حَتَّى** يَخُوضُــواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِـيَنَّكَ الشَّـيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {68}) الأنعام . أي أن القعود معهم جائز ما لم يخوضوا في آيات الله عزّ وجلّ . وهو الحكم الشرعي نفسه الذي كان في بدايات المرحلة المدنية كما في قوله تعالى : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُــواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً {140}) النســاء . حتى إذا تمادوا في كفرهم (ازدادوا كفراً) نزل حكم الله تعالى النهائي بحقهم .

2 - قارن موقف إبراهيم عليه السلام في هاتين الآيتين ، مع موقفه الذي سيرد بعد قليل في سورة الممتحنة ، وهي مدنيّة .

3 - لا إله إلا الله محمّد رسول الله ، تعني أنه لا معبود إلا الله وبالشريعة التي أُنزلت على محمّد . أي لا مصدر للقوانين ولا مرجع للتشريعات إلا دين الله الخاتم ؛ الإسلام . فهذه حقيقة واحدة ثابتة لا تدرّج فيها ، ومن ثَـــمّ فالإقرار بهذه الحقيقة والإتفاق عليها من قِبَل الأمة ، هو الركن الأول في وصف الأمة الناشئة بأنها مسلمة .. فالمؤمنون أمة من دون الناس=>

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ المائدة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ **عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ** تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ **كَفَرُوا۟** بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا **بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ** مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ الممتحنة [1] .

– إلخ .. مما ورد في السور المدنيّة حول هذا السياق ..

أما الترتيل أو التدرج الذي ذكرنا، إنما هو في تنزيل الأحكام والمعالجات على ما يستجدّ من أحداث أثناء سير هذه الأمة المسلمة الناشئة نحو إكمال دينها لله جلّ وعلا .

1 - مواقف خليل الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كانت متنوعة حسب خطوات سَيره ومواقف قومه من الحق ، فمرة كان مهاجراً:{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) .. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)} [العنكبوت]. ومرة حاجّه قومه في الله ، فأقام الحجة عليهم :{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ.. (80).. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)} [الأنعام]. ومرة تبرّأ من **آلهتهم** فقط كما في سورة الزخرف والأنعام ، ومرة تبرّأ **منهم** ومن **آلهتهم** كما في سورة الممتحنة . وقد ذُكر كل موقف في سورة مختلفة وذلك كمعالجة للحالات (المناط) المختلفة التي يواجهها ـ مع قومه ، والتي هي شبيهة بمواقف وحالات (مناط) كان يواجهها الرسول الخاتم مع قريش والتي جاءت تلك السور تعالجها ، وقد ذكرها الله تعالى لاتخاذ العبرة والقدوة وتثبيت قلب الرسول ومن معه من المؤمنين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

نتمنى على القارئ الكريم مراجعة تفسير (سورة الكافرون) في كتاب (نظام القرآن) للفراهي الهندي ، ففيها تفصيل لبيان مواقف إبراهيم عليه السلام مع قومه ، وبيان ترتيب حدوثها حسب الترتيب السننيّ العام ، كما هو في القرآن الكريم. وذلك في إطار قيام الفراهي بالتأصيل لبيان طبيعة المرحلة والظرف الذي نزلت فيه (سورة الكافرون) من سير نبيّنا محمد بالرسالة ، من أجل فهم محتوى السورة في إطار سياقها وظرفها الذي نزلت فيه.

وعليه ، فلا بد من فهم الفرق البيّن الواضح بين المرحلتين وبين النظرتين ، وأخذه بعين الاعتبار .. وإلا ، تحصل أخطاء ومخالفات شرعية ، لا يعلم أحد إلا الله تعالى ، مضاعفاتها وتداعياتها السلبية على الجماعة المسلمة وعلى الأمّة وعلى دين الله .

تلك بعض القواعد العامة والخطوط العريضة فيما يتعلّق بـ " تحقيق المناط " .

ب – أما بالنسبة **لتعيين المكلف** أو الجهة المكلّفة من المسلمين بتلك الأحكام والمعالجات ، إن كان بوصفهم أفراداً أم جماعة أم أمّة ، فلكل مكلّف واقعه ، وله المعالجات المناطة به – شرعاً وقدراً – وهو وحده المسؤول عنها .. ولا يجزيء مكلف عن آخر فيما أناط الله تعالى به من أحكام ومعالجات إلا بدليل شرعيّ .. (**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ..**) [1] ..

من الواضح أن المسلمين في مرحلة ما قبل التمكين ، يكونون مكلفين بوصفهم أفراداً ، وبوصفهم جماعة أو مجموعة ، يعيشون في مجتمع ليست كلمة الله هي العليا فيه (مجتمع جاهلي) .. تجمعهم أخوة الإيمان بالله واليوم الآخر ، ويجمعهم العمل على عبادة الله وحمل رسالة الله للناس بقصد إكمال الدين لله ، وجعل كلمة الله هي العليا في المجتمع (مجتمع إسلامي) .. والخطوة الأولى في ذلك الوصول إلى حال الأمة بوصفها الشرعي الأساس .. أي عليهم القيام بالتكاليف والأحكام والمعالجات المناطة بهم كأفراد أو جماعة فقط دون الأحكام المناطة بالأمة أو بالسلطان (الإمارة العامة) . ذلك أن الأمة بوصفها الشرعي الأساس غير متحققة ، والخليفة أو أمير المؤمنين غير موجود ، لذلك فإن **الأحكام المُناطة بهما يُعلّق تنفيذها** لحين وجودهما ، فلكلّ مكلّف واقعه ووصفه ، و لكل مكلّف معالجات مُناطة به .. ولا يجزيء مكلف عن آخر فيما أُنيط به من أحكام ومعالجات ، إلا بدليل شرعي .

أما في مرحلة التمكين ووجود الأمة بوصفها الشرعي الأساس ، فالمسلمون مكلفون بوصفهم أفراداً وجماعة وأمة لها سلطان على بقعة من الأرض .. فعليهم القيام بالتكاليف والأحكام والمعالجات المناطة بهم كأفراد و جماعة و أمة .. ومن ثم السير حسب " المنهاج " حتى إكمال الدين لله ..

ج – أما بالنسبة **لمعرفة المعالجات الشرعية** الواجب اتباعها ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً ، من خلال الدراسة المنهاجية المفصلة للسورة أو للسور المتعلقة بذلك " المناط " ، كما في " التبيان لسور القرآن " :

فإذا كان المسلمون في حالة " ما قبل التمكين " ، كما هو الحال الآن ، فهُم – بطبيعة الحال – داخلون في **سنن الله** تعالى لهذه المرحلة ، بوصفهم حَمَلة الرسالة والمسؤولين عنها تطبيقاً ودعوةً .. وينبغي أن يكونوا على علم بتلك السنن وإحاطة في فهمها .. وتنطبق عليهم الأحكام والمعالجات الشرعية المتعلقة

1 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 2409 : عن عبدالله بن عمر .

بواقعهم هذا (المناط) بوصفهم أفراداً و جماعة .. فيجب أن يلتزموا بها ويسيروا بحسب " المنهاج " في مثل هذه المرحلة .. لرفع الأمّة المسلمة والمجتمع الذي تعيش فيه ، من الواقع (المناط) التي هي عليه ، إلى تلك الغاية المرادة أو الحال الأصل ؛ **إكمال الدّين لله** .. مقتدين برسولنا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم في ذلك ، سائرين على سبيله ومنهاجه ..

ونَذْكر هنا – على سبيل المثال – بعض **الأوصاف والضوابط الشرعيّة** ، **والسنن العامة** في مرحلة " ما قبل التمكين " ، أي قبل وجود الأمّة :

- ✓ الأصل في **خطاب** أفراد المجتمع وملائه أن يكون بـ " خطاب النذارة " (لا أله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير) ، بلاغاً بيّناً ، موجداً للعلم لمن أراد الهداية ، مقيماً للحجة على من أبى [1] ..
- ✓ إزالة كل ما يثيره الناس من **شبهات** حول الحق (لا إله إلا الله ، العبادة ، اليوم الآخر) لإبقائه واضحاً بيّناً .. فيه الهداية وإقامة الحجة .
- ✓ القيام **بالعبادات** غير المُناطة أو المشروطة بوجود الأمّة والسلطان والإمارة العامة للمسلمين (الدولة والخليفة) .
- ✓ **الأعمال** في هذه المرحلة ذات صبغة فكرية سياسية ، وصراع فكري إيماني حول أفكار " خطاب النذارة " ، بشكل أساس ، ولا يجوز القيام بأعمال ذات طابع عسكري أو قتالي .. بل فقط ، أعمال فكرية سياسية تتمحور حول بلاغ الرسالة وبيانها ، وإقامة " الحجة الرسالية " على المجتمع الجاهلي وقيادته :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ **وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان .. أي القرآن الكريم

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ **كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ** وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ** إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً .. ﴿٧٧﴾ ﴾ النساء

- ✓ السمة العامة لحال الجماعة المسلمة هي **القلة** و **الاستضعاف** و **الخوف** ، فلا بد من الصبر والثبات:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ **قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ** فِى ٱلْأَرْضِ **تَخَافُونَ** أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال

---

[1] ـ لا يُقال هنا : إن ذلك خطاب للناس عندما كانوا كافرين ، أما الناس الآن فهم مسلمون . لا يُقال ذلك ، لأن العبرة ليس بعقائد الأفراد المخاطبين بكونهم مسلمين أم لا . بل العبرة أو الوصف الملزم ـ قياساً إلى تحقق غاية الرسالة ـ هو : هل كلمة الله هي العليا في المجتمع ، أم لا ؟ دون النظر إلى عقائد أفراده ، كما بيّنا ذلك في النقطة السابقة عندما ذكرنا بعض الخطوط العريضة في (تحقيق المناط) . لذلك كان الوصف الذي أثبتناه لمرحلتي السير الرئيستين بـ : مرحلة **ما قبل التمكين** للمؤمنين في المجتمع (**ليست** كلمة الله هي العليا).. ومرحلة **ما بعد التمكين** للمؤمنين في المجتمع (كلمة الله هي العليا) .. وذلك دون اعتبارٍ لعقائد أفراد ذلك المجتمع ، أي دون الحكم على إيمانهم .. إنما في مرحلة **ما قبل التمكين** ، يُخاطب المجتمع ـ **أفراداً وقيادة** ـ خطاب نذارة وبوصفه الشرعي ، وبعدها يُنظر في ردّ فعلهم وموقفهم منه (المناط) .. وبحسبه يكون تحديد **المعالجات** المناسبة حسب المنهاج ، ويستمر السير على ذلك .. فكلما أحدث المجتمع ـ **أفراداً وقيادة** ـ **شيئاً** ، أحدث حَمَلة الرسالة لهم **جواباً** ومعالجات من كتاب الله وسنة رسوله ، وحسب " المنهاج " .. كما كان سير رسول الله في تلقي الآيات مفرقة على مكث وتنزيلها كمعالجات لمواقف المخاطبين من الرسالة .

.. إلخ

فإذا ما أصبح المسلمون **أمّة** بوصفها الشرعيّ **الأساس** ، عندها يصبحون مكلفين – إضافة لما سبق – بالأحكام والمعالجات الشرعية المتعلقة بواقعهم الجديد والمكلفين بها بوصفهم الجديد ، أي بوصفهم أمّة ، فعليهم أن يلتزموا بها ، وأن يكونوا على علم ومعرفة بسنن الله تعالى في هذه المرحلة الجديدة (الأمّة) ، كما بيّنها الوحي في كتاب الله وسنة نبيّه (الكتاب والحكمة) .. عندها ، فهُم يسيرون بحسب " المنهاج " في هذه المرحلة ، وعلى بصيرة من أمرهم .. وعليهم أن يستمروا على ذلك حتى يصيروا أمّة **بكامل** خصائصها **قادرة** على إكمال الدّين لله تعالى ، أي العودة إلى تلك الحال الأصل ؛ تحقيق الغاية من الرسالة، والبقاء عليها .

هذا ، ومرحلة التمكين والنصر للمؤمنين ، وتحوّلهم إلى " أمة مسلمة " بوصفها الشرعي الأساس ، تُعتبر مرحلة **التأهيل** للأمّة المسلمة الناشئة وإعدادها ؛ **تزكية وتعليماً** ، **قوّةً وتدريباً** ، للقيام بمهمتها التي وُجِدتْ من أجْلِها ؛ إكمال الدّين لله تعالى **بتطبيق** جميع دين الله تعالى وشرْعه على نفسها في جميع شؤونها ، **وبحمل** دعوة الله تعالى هدايةً ونوراً للناس كافّة بالجهاد في سبيل الله ، في الأرض كلّها وعلى مدار الزمان.

ومن أهم **معالم الخط العام** في تأهيل الأمّة المسلمة وإعدادها :

- ✓ تقرير هُوية الأمة ومهمتها ؛ أنها أمة مسلمة لله وحده تبارك وتعالى ، وأنها الأمة المسلمة الخاتمة التي ما وُجدت إلا من أجل الاستمرار في مهمة الرسول الخاتم ؛ الشهادة على الناس ، وذلك بعبادة الله وحده وحمل رسالته الخاتمة هدى للعالمين (إخلاص الدين لله) ، أي " الخلافة في الأرض " على شرعة الله ومنهاجه .. ومن ثَمّ فمنهج حياة الأمة هي الفكرة التي قامت بها ، وعليها ، ومن أجلها .. فكرة الرسالة الخاتمة .. **لا إله إلا الله محمد رسول الله** .. كما قال الله تعالى :

  ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴿١٩﴾ ﴾ آل عمران ..

  ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران ..

  وكما قال رسول الله : (فما ليس من أمرنا فهو رَدٌّ) .

- ✓ على مكث ؛ ذلك أن الله ﴿ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف ، فأراد أن يكون تنزيل آي القرآن الكريم على قلب رسول الله **مفرّقاً** وبحسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة ، إي على " الترتيل " كما أسلفنا .. مراعياً " استطاعة الأمة " في التعلّم والتزكية وهي ترتقي درجات إكمال العبودية (الدّين) لله جلّ ثناؤه ..

- ✓ حفظ الذات ؛ اعتبار أن الأولوية القصوى هي **المحافظة** على **كيان الأمّة** ووحدته من التفرّق أو الزوال .. فالأمة هي المكلّفة بالقيام بالرسالة ، تطبيقاً ودعوة .. والحفاظ على وجود المكلّف وحياته أولوية قصوى .. كما هو معلوم .

- ✓ تزكية وتعليم الأمة ؛ **صهر** الأمة بفكرة الرسالة والتذكير بالمصير ؛ أي الإيمان بالله واليوم الآخر ، بالتركيز على تلاوة وتدبّر كلام الله تعالى .. قال ابن كثير في تفسيره : ((.. عَنِ ابْنَةِ الْحَارِثِ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ: مَا حَفِظْتُ " ق" إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ . قَالَتْ : وَكَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدًا). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ . وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَجَامِعِ الْكِبَارِ، كَالْعِيدِ وَالْجُمَعِ ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَالْمَعَادِ وَالْقِيَامِ ، وَالْحِسَابِ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ)) .
- ✓ إزالة العوائق ؛ **تنقية** جسم الأمة وكيانها من " **العناصر الخبيثة** " مهما كان شكلها : **شبهات ، أو شهوات ، أو كيانات :**

أما الشبهات والشهوات فمهما كان مصدر إثارتها ، سواء ذاتي من المسلمين أنفسهم ، بسب عدم النضوج الروحي والفكري والنفسي لبعض فئاتٍ من الأمة .. أم خارجي من أعداء الله ورسوله والمسلمين – في داخل الأمة ومن خارجها – بما يشيعونه من تلبيس على الحق .. فلا بد من معالجتها بالمعالجات الشرعيّة والسننيّة اللازمة .. ويكون علاجها في خطه العام : بالبيان والكشف عن التلبيس ، وبالتذكير بالله وباليوم الآخر ..

وأما الكيانات ؛ وهي الأفراد أو الجماعات الموجودة في داخل جسم الأمّة ، وذات قوة وتأثير على عامة المسلمين لما لها من علائق وعلاقات في نسيج الأمة الداخلي ، فكرياً أو اقتصادياً أو سياسياً .. لكنّها غريبة عن الأمة في فكرها وتوجهاتها ، وتعارض – جهراً أو سراً – توجه الأمة نحو إكمال دينها لله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ التوبة ..

فعلاجها – في خطه العام – يكون بالعمل على إضعاف تلك الكيانات الغريبة ، ثم فصلها عن كيان الأمّة ونبذها أو إبطال تأثيرها .. وذلك :

فكرياً ، بإقامة " الحجة الرسالية " عليها وكشف الفاسد من فكرها وبيان بطلانه .. كل ذلك بالوحي .. وفي العلن وعلى الملأ . وبتعبير آخر إزالة ظلام باطلها بنور رسالة الله جلّ ثناؤه ..

وسياسياً ، بضرب قياداتها ونزع ثقة أتباعهم بهم ، بكشف حقيقتهم وحقيقة أعمالهم لعامة الناس ، وبتحميل أتباعهم مسؤولياتهم أمام الله تعالى وأمام الأمة .. وكشف حقيقة مواقفهم المتعارضة مع مصالح الأمة وتوجهاتها نحو الحق ؛ نحو إكمال الدّين لله .. وقطع وشائجها وعلاقاتها مع الأمة .. ومع أعداء الأمة ..

واقتصادياً ، بتجفيف الموارد المالية ..

وعسكرياً ، بتوجيه ضربة قاصمة لهم .. إذا اقتضى الأمر ذلك إذ لم تفلح كل الوسائل السابقة ..

ومثال ذلك : حالة المنافقين في المدينة المنورة ، وحالة اليهود .. وكيف أن الأحداث الجارية بقوة وتسارع ، وتَنزُّل الآيات والأحكام المتتابع ، وسير الأمة حثيثاً نحو إكمال دينها لله .. كان الله تعالى من خلالها يكشف ما تُخفيه صدورهم ، ويُبيّن حقيقة قلوبهم المريضة ، ويُظهر بشاعة نواياهم الخبيثة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ ﴾ آل عمران

﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١ ﴾ محمد

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ﴾ البقرة

إلخ ..

ويتحقق ذلك كله ، بالسير حسب " المنهاج " باتّباع المعالجات الشرعية وفهم السنن الكونية ، لجعل الأمّة بمجموعها على بصيرة ، وقوية متماسكة كالبنيان المرصوص ، وطيبة طاهرة عابدة لله تبارك وتعالى عن رضى وحُب ، تُقدّم كل ما يلزم لإكمال الدّين لله تعالى وإعلاء كلمته ، من تضحية وإنفاق وجهاد وصبر .. ليس من أجل شيء إلا طمعاً في رضوان الله تبارك وتعالى ، وابتغاءً لوجه ربها الأعلى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ ﴾ آل عمران

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧ ﴾ الأنفال

ونكتفي بهذا القدر في هذا المقام ..

البسط والتفصيل سيكون – إن شاء الله تعالى – في الجزء الخامس : " التنزيل على الواقع " .

والحمد لله رب العالمين ..

# # #

في الختام :

إن **إخلاص الدّين** لله تعالى ، **فكرة** و **منهاجاً** ؛ أثناء السير بالرسالة هو شرط تحقيق الغاية ، وشرط المحافظة عليها ، على أساس أن الغاية من الرسالة هي تعبيد الناس لله تعالى عبودية كاملة شاملة ، أي إخلاص الدّين والطاعة لله وحده بلا شريك :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ **إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ** ﴿٢﴾ **أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ** .. ﴿٣﴾ ﴾ الزمر

فالأمر الشرعيّ الأصل المكلّف به الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن اتبعه هو ، إكمال الدّين (العبودية) لله ، بجعله خالصاً له تبارك وتعالى . أي تحقيق الغاية من الرسالة ، والمحافظة عليها :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ الأنعام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ **ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً** وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة

والسير حسب " المنهاج " لإكمال الدّين (العبودية) لله وجعْله خالصاً له تبارك وتعالى دائماً .. إنما هو بمثابة درجات يرتقي فيها المؤمنون من طور إلى طور من مرحلة إلى مرحلة . فإذا كانوا في مرحلة ما قبل التمكين كجماعة مسلمة تعيش مستضعفة في مجتمع يعبد الطاغوت ، فعليهم الاستقامة على أمر الله تعالى ، والمجاهدة بالقرآن :

﴿ **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** وَمَن تَابَ مَعَكَ **وَلَا تَطْغَوْا۟** ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ هود

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ **وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان

فإذا حان الوقت الذي يصبحون فيه مؤهلين – شرعاً وقدراً – ليكونوا أمّة .. مكّنهم الله تعالى في بقعة من الأرض ، ليعبدوه وحده فيها :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال

وهي سنة لله دائمة ، كما ضرب الله تعالى مثلاً ببني إسرائيل عندما كانوا مستضعفين :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القصص

وتستمر الأمّة الناشئة في الارتقاء في العبودية لله تعالى ، حتى تصل إلى الحال الشرعيّة الأصل ألا وهي تحقيق الغاية من الرسالة ؛ إكمال العبودية لله تعالى تطبيقاً ودعوةً . أي حتى تصبح أمّة تُكمل العبودية لله تعالى ، بأخذ رسالة الله تعالى بقوة – تطبيقاً ودعوةً – عن قناعة ورضى وحب :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الحجرات

هذا ، ولكل طور ومرحلة من السير مقوماته واستحقاقاته ، قدراً وشرعاً ، أو واجباته ومَهماته وتبعاته التي يجب على المؤمنين ، أفراداً وجماعة وأمّة ، أن يتحمّلوها على عواتقهم و بذل أقصى الجهد في ذلك .. واتخاذ المواقف التي تُرضي الله ورسوله ، وتُعزّ دينه ، وتُعلي كلمته .. والتضحية بكل ما يلزم من الغالي والرخيص من الأموال والأنفس في سبيل الله تعالى .. والأمر الجامع لذلك كله هو **إحسان العبودية لله** جلّ وعلا .. إخلاصاً واتباعاً ، بقدر الوسع والاستطاعة ((سددوا وقاربوا)) ، والذي جعله الله تعالى **شرطاً** للاستخلاف في الأرض ، **وسنّة ثابتة** فيه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ **وَلَيُمَكِّنَنَّ** لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ **يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ۚ وَمَن **كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ** فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور

فشرط الانتقال إلى مرحلة الأمّة المُمَكّنة هو : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ ﴾ وقد حققه جيل القدوة الأول ؛ محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن آمن معه ، باستقامتهم وصبرهم على **أمر الله** تعالى ، تطبيقاً ودعوة ، وبالسير حسب " **المنهاج** " (إحسان العبودية لله جلّ وعلا) في مرحلة الاستضعاف :

﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا** ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ **وَلَا تَرْكَنُوا** إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ **ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴿١١٣﴾ ﴾ هود

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف

فمنّ الله عزّ وجلّ عليهم بالإيواء والنصر والتمكين ، فأطعمهم بعد جوع وآمنهم بعد خوف :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ **مُّسْتَضْعَفُونَ** فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ **فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم** بِنَصْرِهِۦ **وَرَزَقَكُم** مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ **تَشْكُرُونَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال

وكذلك فإن شرط بقاء الأمّة في التمكين ، ووصولها إلى إكمال الدّين لله تعالى ، وإتمام النعمة عليها هو : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ ﴾ وقد حققه أول هذه الأمّة بقيادة رسولها الكريم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم معه ، باستقامتهم وصبرهم على **أمر الله** تعالى ، تطبيقاً ودعوة ، وبالسير حسب " **المنهاج** " (إحسان العبودية لله جلّ وعلا) في هذه المرحلة :

﴿ .. **وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ** إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ **إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ** أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ **بِٱلْمَعْرُوفِ** وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ **ٱلْأُمُورِ** ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** فِي ٱلْأَرْضِ **كَمَا ٱسْتَخْلَفَ** ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ **يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ** وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور

وهكذا كانت الأمّة المسلمة تترقّى ، بقيادة الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، في مراتب العبودية لله تعالى . وتسير حثيثاً حسب " المنهاج " على هدى وبصيرة من الله حتى **إكمال** الدّين لله ، بتلقي الآيات القرآنية مرتلة ، وبتنزيلها كمعالجات لتزكية الأمّة وإعدادها ، وإيجاد حلول ومعالجات لما كانت تواجهه الأمّة من مواقف وعقبات (المناط) .. حتى وصلت إلى هناك ، إلى القمة السامقة في العبودية لله تعالى ، وقد أصبحت في النور التام ، وعلى المَحجّة البيضاء .. فنزل قول الله تعالى :

﴿ .. **ٱلْيَوْمَ يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ** لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ .. ﴿٣﴾ ﴾ المائدة

ثُمّ تُوفي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، تاركاً الأمّة على المَحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ النساء

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ **وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ** رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ التوبة

وقد بقيت الأمّة المسلمة – بقيادة الجيل الأول – متيقظة وقائمة على حدود الله تعالى حارسة لها ، وبصرها يرنو إلى الأفق تنظر إلى البشرية المتخبطة في دياجير ظلمات عبادة غير الله عزّ وجلّ – " الطاغوت " بأشكاله وألوانه المتعددة – والتي ترزح تحت وطأة " المعيشة الضنكى " بسبب اتباع أمره وطاعة شريعته .. فتُشْفق الأمة على هذه البشرية التعسة .. وتغار على حرمات الله جلّ شأنه ، فتثور فيها الحميّة لله تعالى ؛ كيف يُعبد غيره ؟!! وكيف وهو الواحد القهّار الفرد الصمد ، جبّار السماوات والأرض، رب العالمين .. وتشتاق إلى رضوانه وإلى ما أعدّه عنده – سبحانه – في جنّاته لأوليائه وأحبائه .. فأخذَتْ تبذل الأنْفَس من الأموال والأنفُس .. سخيّة في الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وجعل دينه ظاهراً على الدّين كله .. حاملة للناس كلهم النور من عند ربهم ، تذكّرهم به جلّ شأنه ، وتعبّدهم له تعالى ذكره ..
مزيلة للطاغوت وثقل جرنه عن صدور الناس ورقابهم ، حتى يتنفسوا هواء الحرية الحقيقية ، حرية العبودية لله رب العالمين ..
ومزيلة للران المتراكم على قلوبهم و للغشاوة المغلّقة لعيونهم .. حتى يروا النور الحقيقي ..
نور لا إله إلا اللّـه ..

فكان لسان حال الأمّة ومقالها : ((نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام))..

واستمرّ حال الأمّة كذلك إلى ما شاء الله تبارك وتعالى .. حتى خلف من بعدهم خلْف من الأمّة غيروا ، وأخلّوا **بشرط الله تعالى وسنّته** في الاستخلاف .. فغيّر الله سبحانه وتعالى ما بهم :

﴿ ..يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور

﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ **حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ** مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ .. ﴿١١﴾ ﴾ الرعد

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ **حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ** مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال

إلى أن وصل الأمر بالمسلمين أن أصبح الدّين غريباً ، والقابض على دينه كالقابض على الجمر .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ..

هذا ، ولا صلاح لآخر هذه الأمّة المباركة إلا بما صلح به أولها .. ولن تعود سيرتها الأولى إلا بالرسالة ، " فحياة هذه الأمة صاحبة الرسالة الخاتمة مرتبطة بموقفها من رسالتها ، وذلك في نشوئها وارتقائها وصدارتها ، أو في رجوعها وهبوطها " ..

وشرط الله جلّ ثناؤه لا يزال قائماً ، ووعده محفوظاً ، وسننه ثابتة .. فقد سبق أن نصر – جلّ وعلا – عباده وأنبياءه ، وأعزّ جنده وأولياءه .. وقد كانوا من قبل ضعفاء غرباء .. ومكّن لدينه وقد بدأ غريباً .. فحقق وعده أول مرة ، وظل محققاً وواقعاً ما دام المسلمون على شرط الله تبارك وتعالى :

﴿ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ النور

﴿ .. **وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ** إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ **إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ** أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

" أما وقد عاد الدّين غريباً كما بدأ ، مثلما أخبر الصادق المصدوق : { **إن الإسلام بدأ غريباً** ، **وسيعود غريباً** ، **فطوبى للغرباء** } [1] .. والله جلّ وعلا وعده الحق ، ولا يُخلف الميعاد ..

فمَنْ هم يا تُرى أولئك " الغرباء " السعداء بدعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لهم بالحسنى ؟ والذين يحملون رسالة الله تعالى ويأخذونها بقوة ، تطبيقاً ودعوة ، من جديد ، وحسب منهاجها ؟ ليبدأوا اليوم الجولة الثانية ، كما بدأ رسول الله وأصحابه الجولة الأولى ؟ ليُخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الأحد ؟ ..

إن الراية تنتظر العصبة المؤمنة .. وهذا القرآن حاضر .. وريح الجنة تفوح من بعيد .. لا .. بل من قريب " :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ **وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا** فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ **وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ التوبة

1 - رواه مسلم (145) وابن ماجه والترمذي .

وخلاف ذلك ..

﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ **أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا **وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ** وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ التوبة

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ **إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ** ﴿٢﴾ **إِلَّا ٱلَّذِينَ** ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر

والحمد لله رب العالمين ..

وصلى الله وسلّم وبارك ، على رسولنا محمّد ، المبعوث رحمة للعالمين ..

قائمة بأهم المراجع

- القرآن الكريم

- السنة الشريفة

تفسير القرآن الكريم :

- تفسير الطبري
- تفسير ابن كثير
- تفسير القرطبي
- تفسير الجلالين
- تفسير ابن أبي حاتم
- تفسير أبو السعود
- فتح القدير ، الشوكاني
- زاد المسير ، ابن الجوزي
- التحرير و التنوير ، ابن عاشور
- تفسير السعدي
- في ظلال القرآن ، سيد قطب
- محاسن التأويل ، القاسمي
- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ، د. حكمت بن بشير بن ياسين
- نظام القرآن ، الفراهي الهندي
- الكشاف ، الزمخشري
- التفسير الكبير ، الرازي
- التفسير الحديث ، د محمد دروزة
- التفسير المنتخب ، لجنة من علماء الأزهر
- التفسير الميسّر ، نخبة من أساتذة التفسير
- تفسير جزء عم ، د مساعد الطيار

معاجم اللغة والمفردات :

- المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني .
- مفردات القرآن ، الفراهي الهندي .
- المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم ، د . محمد حسن حسن جبل .
- معجم المقاييس ، ابن فارس .
- لسان العرب ، ابن منظور .
- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- إعراب القرآن وبيانه ، محي الدّين الدرويش .

مراجع متنوعة :

(فضائل القرآن) ابن كثير .
(مباحث في علوم القرآن) د . صبحي الصالح
(مقدمة التفسير) الراغب الأصفهاني .
(السيل الجرار) الشوكاني
(الرسالة) للإمام الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر
(الواضح في أصول الفقه) محمد حسين عبدالله .
(الموافقات) الإمام الشاطبي .
(السيرة النبوية الصحيحة) د أكرم ضياء العمري .

(صحيح السيرة النبوية) ابراهيم العلي .
(صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي .
(الصحيح المسند من أسباب النزول) مقبل بن هادي الوادعي
(نزول القرآن والعناية به في عهد الرسول) محمد بن عبد الرحمن الشايع .
(لا يأتون بمثله) محمد قطب .
(الهدى المنهاجي في سور القرآن الكريم) د. الشاهد البوشيخي
(مدخل لدراسة القرآن الكريم) د. عبد الله درّاز .
(أسرار ترتيب القرآن) عبدالله إبراهيم جلغوم .
(حجيّة السنة) د عبد الغني عبد الخالق .
(آيات عتاب المصطفى) د عويد المطرفي .
(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر) ابن القيم .
(نحو تفسير موضوعي) محمد الغزالي .
(مناسبات الآيات والسور) د أحمد حسن فرحات .
(علم مقاصد السور) د محمد الربيعة .
(علم السياق القرآني) د محمد الربيعة .
(مفهوم التدبّر في ضوء القرآن والسنة والآثار) د محمد الربيعة .
(العمل : قدرة وإرادة) جودت سعيد
(سنن الله في إحياء الأمم) د حسين شرفه .
(السنن الإلهية) د عبد الكريم زيدان .
(أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق) د أحمد كنعان .
(أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم)(كشّاف موضوعي)،إعداد زينب عطية محمد .
(السيول المتدفقة في بيان مسائل متفرقة) فراس عايد أبو سويلم .
(النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية والتربوية) د عبدالقادر هاشم رمزي .
(الدراسات الإنسانية في ميزان الرؤية الإسلامية) د عبد القادر هاشم رمزي .
(الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) د. محمد خير هيكل .
(أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية) محمد سليمان الأشقر .
(نظام الإسلام - العقيدة والعبادة) محمد المبارك .
(منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) - د زياد خليل الدغامين .
(منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، دراسة نقدية) - د سامر عبدالرحمن رشواني .
(نحو تفسير موضوعي) محمد الغزالي .
(النبأ العظيم) محمد عبدالله دراز .
(قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل) عبدالرحمن حبنكة الميداني .
(إمعان النظر في نظام الآي والسور) محمد عناية الله أسد سبحاني .
(تحزيب القرآن) مقالة لـ ماجد البلوشي ، ملتقى أهل التفسير .
(شيء من اللغة) مقالة د. جميل ولويل ، صحيفة الرأي الأردنية .
(الدراسة المصطلحية وموقعها في مناهج التجديد في تفسير القرآن الكريم) د. محمد البوزي .
(نسقية السورة القرآنية - دراسة في تفسير ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب) د أحمد بزوي الضاوي - ملتقى أهل التفسير ..

ملاحظة :

الغالبية العظمى من المراجع لهذا البحث - سواء المذكورة أعلاه أم غيرها - كان الرجوع إلى نسختها الإلكترونية المنشورة في " المكتبة الشاملة " . وفي موقع " الدرر السنية " على الشبكة . وخاصة كتب التفسير وكتب السنة وشروحها .

الفهرس	
الموضوع	الصفحة

المجال الثاني : من حيث الأعمال (المعالجات) نفسها ، وكيفية تنفيذها : 1. المعالجات أثناء السير هي الدّين نفسه ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة . 2. المعالجات يُعمل بها ضمن إطارين ، أثناء السير لإكمال الدّين لله تعالى : • عملية تعليمٍ وتزكية وإعداد للجماعة المسلمة ومن ثم الأمّة المسلمة . • عملية مواجهة لما كان يســـتجدّ من عقبات فكرية ومادية، ومواقف مكر وكيد .. من الذين كفروا بأشكالهم وأنواعهم المختلفة . 3. الأدلة الشرعيّة ، مصدر المعالجات ، هي : • آيات القرآن المجيد ، وسوره . • الثابت والصحيح من السنّة .. وبيان أنها محفوظة مع القرآن .	75 77
4. ذكر بعض الضوابط والأصول في فهم الأدلة الشرعية ، القرآن و السنّة . • الأصل العام في فهم دلالة أفعال الرسول .	80
ج – خلاصة الجولة السابقة التي قمنا بها في كلا المجالين : " الترتيل " و " الأعمال " .	84
القسم الثالث : كيفية الاستدلال بـ " التسوير " على " المنهاج " أ – تمهيد نقطة أولى : " التسوير " من الأدلة على " المنهاج" ، وليس " ترتيب السور" في المصحف . نقطة ثانية : " التسوير " له دلالة (دلالات) أخرى إضافية غير مجرّد الحفظ للآيات .	85
ب – خطوات فهم دلالة التسوير على المنهاج : <u>الخطوة الأولى</u> : فهم دلالة الكلمات والجمل والتراكيب، الواردة في السورة الواحدة . <u>الخطوة الثانية</u> : النظر إلى الســورة على أنّ لها ســياق واحد تُفهم فيه دلالة الكلمات والجمل والآيات ، وأنها تشكل جزءً من " المنهاج " . وبيان ذلك فيما يلي : 1 ،2 ،3 . كل ما في " محتوى السورة " موضوعاً وأسلوباً إنما جاء ليحقق " مقصد السورة " أي المعالجة لمناطها. وتبعاً لاختلاف المناط ، والمرحلة التي وُجد فيها ، واختلاف المكلّف ، تختلف المعالجات ، ومن ثم يختلف التنوّع في الفكرة وأسلوب عرضها من سورة إلى أخرى، الأمر الذي يجعل لكل سورة خصوصيتها وطابعها الخاص بها .	88

لإبـداء الرأي والنصيحة.. يمكن التواصل على البريد الإلكتروني التالي : jawadrah1@gmail.com